

حَدِيثُ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ

أَوْ

فِتْرَةٌ مِنَ الزَّمَانِ

لَمُنشَأُهُ

مُحَمَّدُ الْمُؤَيَّبِيُّ

﴿ الطبعة الرابعة مع الرحلة الثانية ﴾

كلمة النبي عليه الصلاة والسلام  
بمصر ولا يقول إلا حقاً

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد القاهرة

ت : ٩٢٢٦٦٢٠ — ٩٣٦٢٧٧

## اهراء الكتاب

ألف المؤلفون والكتاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإهدائها الى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيف العاجز يهذى هذا الكتاب الى كل من يقرؤه من أديب يجد فيه طرّفاً من الأدب ، وحكيم يرى فيه لمحة من الحكمة ، وعالم يبصر فيه شذرة من العلم ، ولنغوى يصادف فيه أثرًا من الفصاحة ، وشاعر يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال

وأهديه الى أرواح المرحومين : الأديب الوالد ، والحكيم جمال الدين ، والعالم محمد عبده ، واللغوى الشنقيطى ، والشاعر البارودى .  
وأولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدّبت بأدبهم وأخذت بهديهم

وأهدى هذه الرسالة التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بنحطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل الفضل والأدب لما تضمنته من الحث على طلب العلم وأدب النفس والحسن أسلوبها فى كتب المودات . وهى لا تزال عندى إماماً يهدينى ونوراً أستضيء به ، فأردت أن أشاركهم فى هذه النخيرة التى يحق الضنّ بها

والحرص عليها ، ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك  
اليد الكريمة . وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين في  
اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم،  
ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم، ويبدلون في سبيل  
ذلك من الأموال والمساعي مالا يُقدّر ، فإنني أكون قد أهديت إلى  
أهل الفضل هدية يمتدّون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله :

## جبرِ مفاضل

تفکیر فی شئون الکمال یشع المصدر الجهد من حشرتها  
و خوضک فی فنون الآداب یریح قلباً علقک بہک (ماہا  
و یس بعدہ) اناک ربی اللہ العجائز و لک یومئذ الخدم  
و لقد غنمت اللطیفة اللویبہ فی مصرکة اخری و ہذا یوفی من  
فاشد ازرک و ابرم بما اوتیت من کلبانہ و الحدق و امرک  
حقی تون کلمہ الکی ہی کعبا و لکن کالذین غزتم انفسکم  
اہواہا و ساقتم مظون الا سہواہ شقاہا و حسبہ انتم کسبون  
مسا و یملون امرآ و کن عواللہی و لو عافک و لا تقف فی نیک  
الا انفصال عند عجبک لانہیۃ للفضیۃ و لاحد للکلا و لا توقف للفرای  
و انت بفریتک ہی منہ اوبابہا ہی غیرک و مدمہ جبال مدیج کلبی مدھا

## حبيبي الفاضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها  
وخوضك في فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها وليس بعد  
الإرهاض<sup>(١)</sup> إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدي ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية  
في مصر كرهة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى فاشدد أزرها وأبرم بما  
أوتيت من الكياسة والحذق أمرها حتى تكون كلمة الحق هي العليا .  
ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها وساقتهم الظنون إلى  
مهواة شقائها وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ويصلحون أمراً . وكُنْ عوناً  
للحق ولو على نفسك ولا تقف في سيرك إلى الفضائل عند عجبك لانهاية  
للفضيلة ولا حدّ للكمال ولا موقف للعرفان وأنت بفرزتك السامية  
أولى بها من غيرك والسلام

جمال الدين الحسيني

الأفغانى

(١) الارهاض الخارق الذي يظهر من النبي قبل البعثة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي  
الأمي القرشي الأبطحي التهامي المكي المدني وآله الطيبين الطاهرين .  
وبعد فهذا الحديث - حديث عيسى بن هشام - وإن كان في نفسه  
موضوعاً على نسق التخيل والصوير فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال  
لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل  
العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص  
التي يتعين اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها . وهذه الطبعة الرابعة  
بعد نفاذ الطبعة الثالثة تعديناها أيضاً بما تقتضيه معاودة النظر من اصلاح  
مواضع النقص والإهمال ، ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة  
السهو والإغفال . ومن الله التوفيق لكل حال . والتسديد في كل  
مقال وفعال

## العبرة

حدثنا عيسى بن هشام — قال رأيت في المنام . كأنني في صحراء  
 « الإمام » . أمشي بين القبور والرجام<sup>(١)</sup> . في ليلة زهراء قراء . يستر  
 بياضها نجوم الخضراء<sup>(٢)</sup> . فيكاد في سنا نورها ينظم الدرر ناقبه . ويرقب  
 الدرر راقبه . وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور . وفوق هاتيك  
 الصخور . بغرور الإنسان وكبره . وشموخه بمجده ونفخه . وإغراقه في  
 دعواه . وإسرافه في هواه . واستعظامه لنفسه . ونسيانه لرمسه . فقد  
 شخ المتروور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك . استكباراً لما جمع واستعلاء  
 بما ملك . فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقاً في لحده . بعد أن وارى  
 تحت صفائح<sup>(٣)</sup> صحائف عزه ومجده . وما زلت أسير وأتفكر . وأجول  
 وأتدبر . حتى تذكرت في خطاي فوق رمال الصحراء . قول الشاعر  
 الحكيم أبي العلاء :

خفف الوطاء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الاجساد  
 وقبيح بنا وإن قدم المهـد هوان الآباء والأجداد  
 سر إن أسطعت في الهواء رويداً لا أختيالاً على رفات العباد  
 ففرعت سن الندم . وخفقت وطاء القدم . وإن في دهماه أولئك  
 الأموات . وغمار تلك الرمم والرفات . لمباسم طالما حوّل العاشق قبلته

(١) الرجام ، جمع رجم وهو القبر (٢) الخضراء ، السماء (٣) الصفائح ، حجارة القبور

لُقبلتها . وباع عذوبة الكوثر بمذوبتها . قد امتزجت بِنِبار الغبراء .  
واختلطت ثنابها بالحصى والحصاء (١)

وتذكرتُ أن تلك الحدود التي كان يَغارُ منها الورد فيسكبى بدموع  
الندى . ويشتمل الفؤاد منها بنار الجوى . ويقف الخال منها موقف الخليل  
من النيران . أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان (٢) . ويتفرق فيها ماء  
الحياء وماء الشباب . قد طوى الدهرُ حسنهما طى الكتاب . وصارت بحكم  
القضاء . أديماً لوجه الفضاء

وأنَّ تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوك الصيد (٣) . فكانوا  
رُعاة الأُمم رعايا النيد . وسحرتُ بيابلَ هاروتَ وماروتَ . ووقفت موقف  
الاستكانة ربَّ الجلال والجبروت . ياتمس - والتاجُ في يمينه . وعرق  
الحياء فوق جبينه - من خلال لحظاتها قبولاً . كسائلٍ يمدُّ لالتماس  
الإحسان كشكولاً . قد أمتت تراباً تحت الرمس . (٤) كأن لم تفتن  
بالأُمس

وأنَّ ذلك الفاحم الأثيث من الشعر (٥) . انخاطفَ بيريقه سوادَ  
القلب والبصر . قد حصدتهُ من منابته يدُ الزمن . فنسيج الأجلُ منه  
توب الكفن

وأنَّ تلك النهود التي كأنها حقائق من لجين (٦) تزينت بِحَب من

(١) الحصاء ، صفار الحجارة وأحدثها حصبة (٢) ابن ماء السماء ، هو ابن المنذر وكان أسود ،  
وشقائق النعمان زهر احمر (٣) الصيد ، جمع أسيد وهو الملك التكبر الزاهي (٤) الرمس ، القبر  
(٥) شعر أثيث ، كثير عظيم (٦) اللجين ، الفسة

المرجان . أو كراتٍ من جليدٍ بثقَ فيها زهرٌ من الرمان . قد أصبحت  
كالخلاة على الصدر . تحمل الزاد لدود القبر

كم صائٍ عن قبلة خدهُ سلطت الأرض على خده  
وحاملٍ يقل الثرى جيدهُ وكان يشكو الضعف من عقده  
وأن تلك الرفات والعظام . من بقايا الملوك العظام . الذين كانوا

يستصغرون الأرض دارا . ويحاولون عند النجوم جوارا . - وتلك الضلوع  
التي انحنت على البطش والحلم . والشفاه التي طالما لفظت أمر الحرب  
والسلم . - وتلك الانامل التي كانت تبرى القلم للكتاب . وتبرى  
بالسيوف الرقاب . - وتلك الوجوه والرؤوس . التي استعبدت الأبدان  
والنفوس . ووصفت تارة بالبدور وتارة بالشموس . - قد تساوى الرئيس  
فيها بالمرؤوس . فلا تفريق اليوم ولا تمييز . بين الدليل منها والعزيز :

هو الموتُ مُتْرٍ عنده مثلُ مُقْتَرٍ

وقاصدُ نهيجٍ مثلُ آخرٍ ناكبٍ

ودرعُ القتي في حكمه درعُ غادةٍ

وأياتُ كسرى من بيوت العناكبِ

فرُجِلَ في غبراءٍ والخطبُ فارسٌ<sup>(١)</sup>

وما زال في الأهلين أشرفَ راكبٍ

وما النعشُ إلا كالسفينة رامياً

بغرّاقه في بحر الردى المتراكبِ

(١) فارس ، بمعنى مفترس

وبينا أنا في هذه المواعظ والمِبر . وتلك الخواطر والفِكر . أتأمل  
في عجائب الحدّان . وأعجب من تقلب الأزمان . مستغرقاً في بدائع المقدور .  
مستهدياً للبحث في أسرار البعث والنشور . اذا برجّة عيفة من خلفي .  
كادت تقضى بحتي . فالتفتُ التفتاة الخائف المذعور . فرأيت قبراً  
انشقّ من تلك القبور . وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة . عظيم الهامة .  
عليه بهاء المهابة والجلالة . ورواء<sup>(١)</sup> الشرف والنبالة . فصعقتُ من هول  
الوهل<sup>(٢)</sup> والوجل . صعقة موسى يوم ذلك الجبل . ولما أفقتُ من غشيتي .  
وانتهت من دهشتي . أخذت أسرع في مشيتي . فسمعته يناديني . وأبصرته  
يदानيني . فوقفت امتثالاً لأمره . واتقاءً لشره . ثم دار الحديث بيننا  
وجرّى . على نحو ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل ، وما عملك ، وما الذي جاء بك ..  
فقلت في نفسي حقاً إن الرجل أقرب العهد بسؤال الملكين فهو يسأل  
على أسلوبهما ، فاللهم أنقذني من الضيق . وأوسع لي في الطريق . لآخلصُ  
من مناقشة الحساب . واكتفي شر هذا العذاب . ثم التفتُ إليه فأجبتة :  
(عيسى بن هشام) — لاسمى عيسى بن هشام . وعملى صناعة الاقلام .  
وجئت هنا لآعتبر بزيارة المقابر . فهى عندي أوعظ من خطب المنابر  
(الدفين) — وأين دواتك يا معلم عيسى ودفترك

عيسى بن هشام — أنا لست من كتاب الحساب والديوان . ولكنى  
من كتاب الإنشاء والبيان

(الدفين) - لا بأس بك، فاذهب أيها الكاتب المنشيء فاطلب لي ثيابي وليأتوني بفرسي «دحمان»

(عيسى بن هشام) - وأين ياسيدي يتكم فاني لا أعرفه  
(الدفين) مشتمراً - قل لي بالله من أي الأقطار أنت فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية

(عيسى بن هشام) - اعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تُعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم وزقاقه ورقه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه  
(الباشا) مغضباً - ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً فتى كان للبيوت أرقام تُعرف بها، وهل هي «إفادات أحكام» أو «عساكر نظام»، والأولى أن تناواني رداءك استر به وتصاحبني حتى أصل إلى بيتي

(قال عيسى بن هشام) - فنزلت له عن ردائي<sup>(١)</sup> وقد كان المهود أن سلب المارّة لا يكون إلا من قطاع الطريق فإذا هو أيضاً من سكان القبور - ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول:  
(الباشا) - للضرورة أحكام، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء في

(١) الرداء، ما يلبس فوق الثياب كالعباءة

مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و«التبديل»  
في الليالي التي كان يقضيها في البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية. ولكن  
كيف العمل وكيف يتسنى الدخول

(عيسى بن هشام) - ماذا تريد

(الباشا) - أنسيت أننا في الثلث الأخير من الليل وليس من  
يعرفني بهذا الرءاء على أبواب مصر ولم يكن معي كلمة «سرّ الليل»  
فكيف تفتح لنا الأبواب

(عيسى بن هشام) - كما أنك ياسيدي لم تعرف أرقام البيوت ولم  
تسمع بها في حياتك فأنا لا أعرف «سرّ الليل» ولم أسمع به

(الباشا) مستهزئاً ضاحكاً - ألم أقل لك إنك غريب الديار ، ألم تعلم  
أن «سرّ الليل» كلمة تصدر من القلمة في كل ليلة إلى «الضابطة» وإلى  
جميع «القره قولات» والأبواب فلا يجيزون لأحد مشي الليل إلا  
إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له ، وهي تُعطى  
لمن يطلبها من الحكومة سرّاً لقضاء أشغاله بالليل ، وتتغير في كل ليلة .  
فليلة تكون كلمة «عدس» وليلة تكون «خضار» وليلة تكون «حمام»  
وليلة تكون «فراخ» وهلم جراً

(عيسى بن هشام) - يظهر لي من كلامك هذا أنك لست أنت  
من أبناء مصر فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطمعة ولم  
نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير في ليهم . على أن الفجر قد دنا  
ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا غيرها

(الباشا) - الأمر في ذلك موكول اليك

قال عيسى بن هشام - فسرنا في طريقنا وأخذ الباشا يزيدني تعريفا  
بنفسه ويقص علي من أبناء الحروب وأخبار الوقائع التي شاهدها بعينه  
وسمعا بأذنه، ويذكر لي ماشاء من مآثر «محمد علي» وشجاعة «ابراهيم» .  
وبما زلنا علي تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار الى ساحة القلعة ،  
فوقف وقفه المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي  
ويخاطب القلعة بقوله في بلاغة تركيته :

«إيـه لـك يـامـصـدر النـعم ومـصرع الجـبـارة من عـتـاة المـالـيك، ويا بـيت  
المـلـك وحصـن المـمـلـكة ومنـبـع العـز ومـهـيـطـة القـوة ومـر تـفـع المـجـد ومـوئـل  
المـسـتغـيـث ورحـمـي المـحـتمـي وكـنـز الرغـائـب ومنـتـهـي المـطـالـب ومـشـوى البـطـل  
الشـهـم ومـقـبـر المـلـك الـهـمـام، أيـها الحـصـن كـم فـكـت بـالـكـرم عـانـيا . وقـيـدت  
بـالـاحـسـان عـافـيا . وكـم أـرغـمت أنـوفا . وسـلـت سـيـوفا . وجـمـت بـين البأس  
والندى . وداورت بين الحياة والردى »

قال عيسى بن هشام - ثم التفت الباشا الي وقال : أسرع بنا نحو  
البيت لألبس ثيابي وأتقلد حسامي وأركب جوادى ، ثم أعود الى القلعة  
فأتم أذيال ولي نعم الداوري الأعظم

## الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق ، وبيننا نحن نسير إذ  
تعرض لنا مكارٍ يسوق حماره وقد راضه الخبيثُ على التعرض وسد  
الطريق على المارة ، فكلمنا سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمكارى ينبح  
بصوت قد بُحَّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :

(المكارى للبasha) - اركب يا أفندي فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك

منذ ساعتين

(البasha للمكارى) - كيف تدعونى أيها الشقيُّ الى ركوب الحمار  
وما رغبتُ فيه قط وما دعوتك في طريقى ، وكيف لمثلئى ان يركب الحمار  
الناحق . مكان الجواد السابق

(المكارى) - وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت  
تتكلم مع صاحبك في طريق « الإمام » وقد دُعيتُ مراراً من السائرين  
فلم أقبل منهم ولم ألتفت اليهم لارتباطى معك بتلك الاشارة ، فاركب  
معى أو أعطنى أجرتنى

(البasha) وهو يدفع المكارى بيده -- اذهب عنا أيها السفيه فلو

كان سلاحى معى لقتلتك

(المكارى) متسافهاً في القول - كيف تجسر على هذا الكلام ، فإمّا  
أن تمطينى أجرتنى وإما أن تذهب معى الى « القسم » ، وسترى هناك  
ما يعاقبونك به على تهديدك إياى بالقتل

(الباشا لعيسى بن هشام) - إني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح  
السفيه الذي استرسل معنا في سفاهته ووقاحته ، فلم فاضربه بالنيابة عني  
حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه

(عيسى بن هشام) - كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكم  
(الباشا) - مالي أراك قد شقّ الخوف قلبك وقطع الهلع أنفاسك ،  
أيمتريك الخوف وأنت معي ، ان هذا لمعجب منك  
(المكارى) مستهيناً - العفو! العفو! من أنت ومن غيرك ، ونحن  
في زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ، ولا تفاوت بين المكارى  
وبين الأمير

(الباشا لعيسى بن هشام) - ويحك هلم فاضربه أو دعني أقتله  
(عيسى بن هشام) - أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً  
ما دمت معي . واعلم أنه لا تصدرونا « مخالفة » أو « جنحة » أو « جناية »  
إلا والعقاب من ورائها ، فلا تعجب من طول صبري واحتمالي ، وأقول  
لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام « إنك لن تستطيع معي صبراً  
وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً » ، والطريقة للتخلص من سفاهة  
هذا السفيه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا ، وأنا أسأل  
الله أن يباغنا بيتك بالسلامة

(الباشا) - لا تخط هذا الكلب الناجح درهماً واحداً ، وقد أمرتك  
أن تضربه ، فإن لم تفعل فأنا أتزل إلى ضربه وتأديبه ، والفلاح لا يصلح  
جلده إلا بجلده

قال عيسى بن هشام - ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسمه ضرباً، وأخذ المكارى يستغيث وينادى يا « بوليس » يا « بوليس » ، وأنا أجتهد في إيقاظه من مخالبه وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم، وأقول للباشا : ليس هذا مما يُحمد عتباها، فاتق الله أيها الأمير في عباد الله . فإنا أتممت هذا القول حتى رأيتهُ اشتد به الغضب وتعلبت عليه الحدة فتغير وجهه، وانقلبت حماليقه، وتقلصت شفته واتسع منخره وضاعت جبهته ، نخفت أن يحمله جنون الغضب على البطش بي مع المكارى فتداركت أمري وقلت له : مثلك أدام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل ، فأنت أرفع قدراً من أن تمس بيدك الشريفة . مثل هذه الجيفة . فسكنت بذلك من حدته ، وعمدت الى المكارى فوضعت في يده دُرِيهَمَاتٍ على غير علم من الباشا وطلبت إليه أن ينصرف عنا، فاازداد اللائم بذلك الا استغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس

(الباشا لعيسى بن هشام) - ألم أقل لك ان الفلاح لا يصلحه الا الضرب ، ألم تعلم أن غاية ما ينتهى اليه أمره في رفع الألم عنه أن يعالج صياحه استغاثةً بالمشايخ والأولياء . ولكن قل لى بالله هل « بوليس » هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىٌ جديد

(عيسى بن هشام) - نعم إن هذا البوليس هو ولى الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة

(الباشا) - لست أفقه هذا المعنى، فأوضح لى حقيقة هذا البوليس (عيسى بن هشام) - هو « القواس » الذى تعرفه

(الباشا) - وأين هذا «القوَّاس» الذي لا يسمع النداء فإني أرغب في حضوره ليتاقى أمرى في هذا الشقى

(المكارى) - يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) - هلم الى مساعدته في نداء القوَّاس .  
قال عيسى بن هشام - فقلت في نفسى كيف أنادى البوليس وأنا أحمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة منا لا يكثرث بنداء المستغيث .  
ثم التفت الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياحٌ أو نداء فانه مشتغل ببائع الفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليه وتبعه من تجمَّع حولنا من النظارة . فوجدوه واقفاً وفي يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه في صباحه من باعة الأسواق في محافظته على « النظام » وهو لاه بصاحب الدكان يأمره أن يضع في داخلها ما عرَّضه في خارجها من « عيدان القصب » وفي يده عود منها يهدده به ويهزه في وجهه هزّة الرمح ، ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف امرأة ويناغيه ، حتى اذا أتبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل في يده « وعود القصب » في الأخرى

(البوليس للجمع) - ما هذا الصياح في الصباح ، وما هذا النداء . وما هذا العناء ، كأن كل واحد من الاهالى يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته

(المكارى) - أغثنى « يا سمادة الجاويش » فان هذا الرجل .

ضربني ولم يعطني أجرتي، وأنت تعرفني في هذا «الموقف» وتعرف أنني  
لست ممن يتشاجر أو يتخاصم  
(الباشا) - خذ أيها القواس هذا السفينة وضعه في السجن حتى  
يأتيك أمرى فيه

(البوليس للمكارى) - من أين ركب معك هذا الرجل  
يا «مُرسى»

(المكارى) - ركب معى من جهة «الإمام»  
(الباشا للبوليس) - ما هذا الإبطاء في تنفيذ أمرى . أسرع به  
الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً - أظنك أيها الرجل من «مجازيب  
الحضرة» في «الإمام» هلّم معى الى القسم فان هيئتك تنبىء عن إفلاسك  
وعجزك عن دفع الأجرة

قال عيسى بن هشام - وجذب الشرطى صاحبى من ذراعه فكاد  
يُغتمى عليه من الدهشة فلم يدري ما يصنع . وأودع البوليس ما كان في يديه  
من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى أودع المكارى حمارة عنده، وسار  
صاحبى مسحوباً بذراع الشرطى ، والمكارى خلفهما ، والجمع على أثرهم  
الى «القسم» فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدأ المكارى يصرخ  
ويصيح ، فقايله أحد عساكر «المراسلة» فضربه ليسكته لأن «حضرة  
المعاون» غريق في نومه ، فدخلنا جميعا في حجرة «الضؤل» لضبط

الواقعة فوجدناه يأكل والقلم في أذنه وقد نزع « طربوشه » وخلع نعليه وحلَّ أزرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين أظنهما من أقربائه يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهي وسعة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة الملك وما في قدرته من حبس أى شخص كائناً مَنْ كان وشهادته عليه بما يجرى في هواه . فَطَرَدْنَا جميعاً من الحجرة حتى ينتهى من طعامه ، ونخرجنا ننتظر ، وأراد الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألمَّ به من الحزن نخافته يده فسقط فوق جنديّ كان يكذب الأرض هناك ، فأخذ الجنديّ في السب والشتم ودخل الى حجرة « الصول » هاجماً فقال له إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدّى علىّ « فى أثناء تأدية وظيفتى » فضربنى بكل جسمه . فأمر « الصول » بإحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه أن يحرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة ، وأملى عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم أفهم منه حرفاً . وبعد أن شهد « البوليس » الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد « الصول » نفسه فى محضر الجنحة بأنه شاهد المتهم يتمدى على أحد عساكر القسم فى أثناء تأدية وظيفته ختم المحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ الى « خشبة المقاس » وتحرير « ورقة التشبيه » ، فجاء العسكرى صاحب الدعوى وأخذ يمين صاحبه وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاه أنواعاً من الأذى فى مقاسه . كل هذا والباشا كالمغشى عليه من الدهشة والذهول ، حتى إذا أفاق من غشبه التفت الى يقول :

(الباشا) - أنا لا أتصور في هذه الحالة التي أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر، أو أن أكون حليماً في المنام، أو أن يكون الداوري الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة (عيسى بن هشام) - لا بد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام

(قال عيسى بن هشام) - ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا هل له من ضامن يضمنه ، فقدمت نفسى لضمائته فلم يقبلوا منى إلا بتصديق « شيخ الحارة » فخرت في أمرى ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال. فألقى بعض المساكين في أذنى أن اخرج فإنك تجرد « شيخ الحارة » بالباب فأعطيه عشرة قروش للتصديق على الضمانة، فخرجت وحلقتي ذلك العسكري فدلتنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا في مناولة أجرة التصديق . ثم اشتغل عنى بمشاهدة المساكين في ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية أن يوقظوا المعاون من رقاده ، ثم ما لبثوا أن رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب فى أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ، ووجدت من كان من بينهم أشد إيذاءً لعباد الله وأعظم حرصاً على راحة المعاون فى منامه قد هجم على باب الحجر فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز السرير هزاً عنيفاً ، فاستيقظ المعاون فزعاً وعلم أن « المفتش » قد شوهد داخلًا من باب القسم ، فأسرع الى ثيابه فلبسها

في لحظة وهَرَوَلَ الى استقباله ، فلما رآه وقف « وقفه النظام » . ولكن كان من نكدِ طالعه أَنه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل زرّه جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة ، وكان الشعر قد تجدد في عارضيه لأنه لم يتمكن من حلقة في يومه ، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى الحجرة مُغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته في الزي « للأوامر المستديمة »

ولما رأى الباشا سكون الضرب والسياح مرة واحدة وما تولى المساكر من الخوف والاضطراب وما شاهده من حركات المعاون سألني عن شأن هذا الداخل الذي أورت ذلك الانقلاب . فأعلمته بأنه « المفتش » جاء الى « القسم » للتفتيش والتنقيب في « الأحوال » والنظر في شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما يقرره القانون والنظام . فقال إذاً فلندخل اليه لنعرض عليه ما أصابنا من الأهانة . فدخلنا فوقنا أمامه فوجدناه يكتب في تقريره ، فالتفت الينا وسألنا عن أمرنا ، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد المساكر بإخراجنا من حضرته . ثم رأيناه قد وضع التقرير في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت في التفتيش والتنقيب لغير زيّ المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والسياح والضجيج في أنحاء القسم الى أشد ما كان عليه قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين في شدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكى عمال القسم الى « النيابة » ، فدخل أحد المساكر الى المعاون ليخبره بما يقول الرجل فوضعتُ أذني عند الباب

فسمعت المعاون يحدث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ، ولعنة الله على ضرورة الحاجة في المعاش . ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه في فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر في التفتيش على طربوشى ولحيتى ، ولو كان من « أولاد العرب » لاطَّلَعَ على الاختلال الواقع في القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الأصول » . ثم التفت الى العسكري وسمع منه ما ينقله اليه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية الى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة ، والباشا داخل فيهم ، فذهبت الى المعاون وكتبت فيه ليطلقه بعد ضمانتي له فأبى ذلك وقال لى بوجه عبوس : الأولى أن يبقى فى القسم الى الغد حتى يُكشَف على « السوابق » ثم يرسل من هنا الى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين

## النِيبَة

قال عيسى بن هشام - ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت الى دارى بت طول لياتى في هم وأرق وقضيت رقادى في اضطراب وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية وهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك مضى الزمن ولا يدري ما الحال ولا يعلم بتغيير الامور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الاحكام واثقلاب الدول. وكنت هممت أن أكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى له لولا ما دهمنا به القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألم بنا. ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأى عندى أن يبقى الرجل جاهلاً بالأمر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهله بتغيير الأحوال قائماً بعذره في التخلص من محاكمته. ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صحبتة بعد ذلك حتى أريه ما لم ير وأسمعه ما لم يسمع وأشرح له ما خفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضى ولأعلم أى المهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعا وما الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر. فبكرت الى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبي من الثياب لير تديها عند خروجه من حبسه فوجدت العسكرى يستعد به للذهاب الى قلم «السوابق» فى دار المحافظة، فلما بصّر بنى نادانى بقوله :

(الباشا) - ما هذه الخطوب والملمات ، قد كنت أظن أن ما وقع  
لى أمس كان لسخط ولى نعمتنا الداورى الاعظم وغضبه على عبده بمكيدة  
كادها لى أعدائى أو فرية اقتراها حسادى فلذلك صبرت لحكم الضرورة  
وامتثلت على تلك الصورة حتى أتمكن من التشرف بالاعتاب والمشول  
بين يدى مالك الرقاب فأزبل الشبهة وأنقى الريية وأبرأ لهُ مما رماني به  
الساعى والواشى وأجلى له حقيقة عبوديتى وإخلاصى فيضاعف على رضاهُ  
لحسن ما قمت به من الطاعة فى احتمال هذا الهوان

طال منى تحملُ خلتُ أنى قابضٌ من أذاته فوق جبر

ثم لانى أعمد بعد ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب فى  
هؤلاء الأذنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترؤا عليه فى  
معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ، ولكنى سمعت فى الحبس - وياسوه  
ما سمعت - وعلمت - ويا شر ما علمت - أن الدول دالت والأحوال  
حالت وأنكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان وفى حال من الفوضى يصح  
فيها قول ذلك المكارى : « انه هو والباشا فى المنزلة سواء » وتلك التى :

تُصمُّ السميعَ وتُعمى البصيرَ ويُسألُ من مثلها العافية

فاللهم عفوك وصفحك ، هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت  
المراتب وانحلت الرياسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير  
والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشيتى على حبشيتى فضل ولا  
لأمير منا على مصرى أمر . ذلك مالا يكون ولا تحتمله الظنون . ثم

اعلم أيها الرجل ان ذنب أو تلك السفهاء فيما جنوه على لا يُعد في جانب  
ذنبك عندى الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر لكتمانك على  
الأمر حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذلك شأنه وأعوذ بالله منك ومن  
شياطين الجن

(عيسى بن هشام) - انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله موسى  
للخضر عليهما السلام « لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي  
عُسْرًا » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما  
أورثني التبلد والتحير ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتنبهك الى ما تغيرت  
به الحال من بعد عهدك ، وما كدت أنتبه الى تعريفك بها حتى دُهِنَا  
بذلك المكارى ودُهِنَا بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما أتيت ، والمعذر مقبول  
لديك ، فاصبر على ما تلاقيه . واحتمل ما أنت فيه . وتقبل القضاء . بوجه  
الرضاء ، ولا تأمن على ما فات . لتكفر عنك السيئات

(العسكري للباشا) - هلم الى « السوابق »

(الباشا) - سبحان العزيز القادر أترى قد زال عنى بؤسى واتقشع

نحسى ورجع الى عزى فجاء ونى بموكبى وخيلى

(عيسى بن هشام) - ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد

الصفائف . والعتاق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيّد فيه سحنة المتهم  
وسباه . ويكشف فيه عما جنته يده

(العسكري للباشا) وهو يسجبه - لا تُطِلْ فِي السَّكَّامِ وَامْشِرْ

مَعِي سَاكِنًا سَاكِنًا

(الباشا) وهو يمتنع - ما الخيلة في القضاء ، وما العمل في المقدور ،  
وكيف الخلاص وأين النجاة ، ومن لى بالموت ثانية ليردنى الى راحة القبر  
(عيسى بن هشام) وهو يتضرع - أقسمت عليك بدفين القلعة ،  
وَوَقَّعَ سَيْفُوكَ فِي الْمَعْمَةِ ، إِلَّا مَا قَبِلْتَ نَصِيحَتِي وَعَمَلْتَ بِمَشُورَتِي فَلَا  
تَعَارِضُ وَلَا تَعَانِدُ فَإِنَّ الْأَمْتِنَاعَ لَا يَفِيدُ وَلَا يَزِيدُنَا فِي مَلْمَتِنَا إِلَّا شِدَّةً .  
والعقلُ يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وأن نلبس لكل حالة  
لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها

(الباشا) ممتثلاً - اللهم لا رأى مع القضاء

قال عيسى بن هشام - ورسرنا مع المسكرى فوصلنا الى «قلم السوابق  
وتحقيق الشخصية» فرأى الباشا هناك من الشدة ما تخلع له القلوب  
وتشيب منه النواصي ، فجرده من ثيابه وخصوا بدنه عضواً عضواً  
وقاسوا وجهه وجسده وحذقوا في عينيه، وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس  
الصعداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانه  
لأن المعاون قاتله الله رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانتي ليجوز له  
الجبس ، فأرسلونا مع المسكرى الى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا  
أمامه قضايا حجة وأصحابها مزدحمون ينتظرون نوبتهم، فانفردنا ناحية ننتظر  
نوبتنا أيضاً ، والتفت الى صاحبي يسأل ويستهم :

(الباشا) - أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام

(عيسى بن هشام) - نحن أمام النيابة ، وهذا عضو النيابة ، وهؤلاء

أرباب الدعاوى

(الباشا) - وما النيابة

(عيسى بن هشام) - النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية، والنرض من إنشائها أن لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء

(الباشا) - وما «الهيئة الاجتماعية» التي تنوب عنها

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الامة

(الباشا) - ومن هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الامة عليه

لينوب عنها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراه بأمر ولا بعظيم من عظماء الامة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه الى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الامة ولاية الدماء والأعراض والأموال (الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة، وللشهادة في الجنة

أعلى الدرجات، ولكن كيف تصور عقولكم - وأظنكم فقدتموها - أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا لأحد من الناس. والذي يفوق ذلك عجيباً ويزيد العقل خيالاً أن يحكم الناس فلاحاً وينوب عن الامة حرّاث. ويشهد الله أنني خرجت من شدة الى شدة وانتهيت من خطب الى خطب فسلمت وصبرت، ولكن لاصبر لي على هذه الخارقة، فما أعظم الفاجعة واشقّ النازلة، لقد فني مني الصبر. ومن لي بفناء القبر

( عيسى بن هشام ) - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد بل هي ورقة يأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك في بعض الأحيان

( الباشا ) - مه مه كانك تريد الإجازة التي يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها ، غير أننا ما سمعنا في دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الازهر الشريف يعرف ما الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات

( عيسى بن هشام ) - ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم إفريقية يتلقونها في بلاد الإفرنج . والفرنك عملة تلك البلاد . ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهي قيمة لا تذكر بالنسبة الى كثرة فوائدها لأن القاعدة في هذا النظام « أن الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ، وصاحب الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب ووظيفة يزيد على الدوام ويرقى

( الباشا ) - الآن كدت أفهم . وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكي الروزناجه » في أيام حكومتنا

( قال عيسى بن هشام ) - وبينما نحن في هذا الحديث اذا بشاين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطران في مشيتهما والطيب ينشر في الجو من أردانها وهما يُصعِرانِ خديهما<sup>(١)</sup> كبراً واختيالاً ، ولا يلتفتان الى

(١) صرخته ، أماله تكبراً

مَنْ حَوْلَهَا تَيْهًا وَعِجَابًا ، أَحَدُهُمَا يَشُقُّ الْهَوَاءَ بِعَصَاهُ ، وَالثَّانِي تَلْبَسُ  
« بِالنَّظَارَةِ » يَدَاهُ . فَشَخَّصَتْ فِيهِمَا الْأَنْظَارَ . وَتَحَوَّلَتْ نَحْوَهُمَا الْأَبْصَارَ .  
وَالحَاجِبُ مِنْ أَمَامِهِمَا يَدْفَعُ النَّاسَ مِنْ طَرِيقِهِمَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَابِ النَّائِبِ ،  
فَقَامَ لَهَا عَنِ مَجْلِسِهِ وَأَمَرَ بِأَرْبَابِ الْقَضَايَا أَنْ يَنْصَرِفُوا مِنْ حَضْرَتِهِ ، وَاشْتَغَلَ  
الْحَاجِبُ بِسُجُودِهِمْ وَجَرَّتْهُمْ وَطَرَدَهُمْ وَنَهَرَهُمْ . وَاشْتَغَلَ النَّائِبُ بِطَلَبِ الْمُحَاضِرِ  
وَرَفَعِ الْمُحَاضِرَ . حَتَّى خَلَا لِصَاحِبِيهِ مِنْ كُلِّ شُغْلٍ وَعَمَلٍ

(الباشا لعيسى بن هشام) - يظهر لي أن هذين الشابين من أكبر  
أولاد الامراء أو أنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم  
(عيسى بن هشام) - ما أظنهما الا زائرين من قرناء النائب في  
المدرسة كما يظهر لي من شمائلهما

(الباشا) - وهذا أعجب وأعجب  
قال عيسى بن هشام - وأردت أن أخبر خبرها وأكشف أمرها  
فاتهمزت فرصة التراحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت عقب  
الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى ، فسمعت هذه المحاوره بينهم:  
(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس - لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث  
من قبل أن ينتهي اللعب

(النائب) - لأنه كان قد مضى من الليل أكثره ، وعندى من  
القضايا ما يضطرني الى التبكير .

(الزائر الثاني) - وهل سمع أحد أن القضايا تعوق إلا نسان . عن

مجالسة الإخوان . ومثل هذا العذر يُعْتذر به لغير الواقفين على أعمال  
النيابة . وقضاياها . أو لم تعلم أن فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق  
منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة . وأخص بالذكر منهم فلاناً  
فانه يُكتفى بأن يمر عليها باحظة منه ويستغنى عن مطالعتها ويرتكن على  
توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للاحاطة بفهمها . وما دام الشقاق  
والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء  
بمحاضر البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها ، ولا محل لتجديد التحقيق  
بعده وتضييع الوقت سُدَى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع  
مرة أخرى

(النائب) - ذلك ما أفعله ولكن لا بد من التمسك « بالظواهر

والأصول » على قدر الأمكان

(الزائر الأول) - أفا عندك الكاتب يقوم في ذلك مقامك ويكفيكهُ

(النائب) - صدقت إن الكاتب ليكفي . والقول الصحيح أن

السبب في مفارقتكم أمس وفي ترك اللعب هو أنني خسرت ما كان معي  
من مرتب الشهر ونحن لا نزال في أوائله

(الزائر الأول) - تلك هي عادتك في ادعاء الخسارة دائماً معها

ربحت ومهما كسبت ، وما سمعتُ منك في عمري الا أنك خسرت .

أفلم تريح مني في « اليد الأخيرة » التي كانت بيننا خمسة جنيهات

(النائب) - وحق شرفي وذمتي ومستقبلي أني قمت من عندكم أمس

بالخسارة

( الزائر الثاني ) - ماعلينا . ولكن قل لي هل أنت لا تزال على  
وعدك معنا في التوجه الى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة  
( النائب ) - أسألك المسامحة فانه لا يمكننى ذلك ، أولاً لأن هذا  
الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبى ، وثانياً لاني دعوت  
« مادموازيل فلانة » المشخصة في « الاوبرا » مع فلان وفلان المشخصين  
لتناول الغداء في الازبكية عند « سانتى » ، وسنذهب بعد ذلك الى  
« خان الخليلي » و« قصبه رضوان » و« مقابر الخلفاء » وبعض الأماكن  
القديمة من البلد للتفكه والتسلى

( الزائر الاول ) - دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر  
شئ ، فكيف لك بما يلزم مثل هذا من النفقات  
( النائب ) - فاتنى أن أذكر لك ان معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبه

العمدة

( الزائر الثاني ) - وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هذا  
المجلس الإفرنجي أو إستريحان له وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات  
والاصطلاحات الاوربية

( النائب ) - ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً  
لأهل القضاء . وأمنية الفلاح أن يتحكك بنا . والرغبة عند أمثالهما  
عظيمة في حضور المجالس الافرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا  
منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضياً - من أين اشتريتَ هذا « الكراقات »  
(رباط الرقبة)

(النائب) - ما اشتريته يا « مونشير » (عزيزى) وإنما جاءنى مع  
ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز

(الزائر الثانى) - هل بلغك زواج فلان بمشوقته

(الزائر الاول) - هل ركبت مع فلان فى « الاوتوموبيل »

(النائب) - قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان الممول

(الزائر الاول) - أنا أعرفه ، فهو الغرام

(النائب) - لا

(الزائر) - المال

(النائب) - لا

(الزائر) - المرض

(النائب) - لا . وإنما هى سُنَّة جديدة فى شبان باريس اقتدى

المسكين بها

(الزائر الاول) - وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من

وظيفته

(النائب) - سيرته

(الزائر) - لا

(النائب) - وطنيته

(الزائر) - لا

(النائب) - فرنسيته

(الزائر) - لا . وإنما هى « انكليزيتها »

## المحامى الراهلى

قال عيسى بن هشام - فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكنتى وعدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره، فوقف عن بُعدٍ أسمع ما يدور بينهما

السمسار - اعلم ان المحامى يدير القضاء في يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرىء من يشاء ، وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع اشارته ورهن كلمته وكانخاتم في إصبعه فلا حكم الا بقوله ولا قضاء الا بأمره ، وأنت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالرؤوة أن أدعك طعمة في أيدي بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ، ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة وله مقام سامٍ بين القضاة والحكام ، فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين النائب ووكيل «البرنس» ، ولو شاهدتهُ ياسيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنىس وأوقات السرور يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكرهم وينظرهم ويقامرهم لأيقنتَ فى الحال ان كل طلب له يجاب وليس لأمره من راد ، فالجرمُ برىء والبرىء جانٍ على حسب المراد . فقل لى حينئذٍ

عن مقدار ما تستطيع دفعه من «مقدم الاتعاب» في تبرئتك من  
تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) - أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرني صاحبي عن  
هذا الحاكم القادر الذي تصفه لي فاذا استفهمتُ عنه ... ..

(السمسار) مقاطعاً - لا لزوم للاستفهام من أحدٍ فها هو ذا حضرة  
المحامى قد أقبل لمقابلة «النائب العمومى» فانا أستوقفه لحظة للنظر في شأنك  
(ويسرع السمسار الى مكلمة المحامى بعد أن يوسع له في الطريق  
ويسلم عليه بسلام الامراء حتى يصل به الى جانب الباشا)

(المحامى) بصوت عال - انا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد في  
هذه الايام لتراكم الأعمال وتزاحم القضايا ، فلم يبق عندي وقت للطعام  
وللشراب فكيف تكلفني أن أقبل التوكيل عن صاحبك في هذه القضية  
الصفيرة وقد رفضت في صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم

(السمسار) - سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وبما جبت  
عليه من الخنو والشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة  
هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو تأثير اسمك  
وصيتك في المحكمة

(المحامى) - لا أرى في ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك .  
(وينصرف المحامى بعد مصاحته للباشا)

(السمسار للباشا) - هلم فادفع عشرين جنياً

(الباشا) - ليس عندي الآن شيء من الدراهم

(السمسار) - أعطني تحويلاً

(الباشا) - أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعاً

(السمسار) - كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة

المحامى أمامي

(الباشا) - أنا لم أتفق مع أحد فاتركني وانصرف

(السمسار) - كيف تنكر اتفاقك مع المحامى بعد ان وضعت يدك

في يده

(الباشا) - عفوك اللحم ولظنك! ومن يصبر على هذه الحال .

أشرت بيدي في حديثي مع صاحبي فوقعتم في حادثة المكارى . وصالحت

المحامى فصرت مديناً بعشرين جنيتها . ففي أى العوالم أنا وبين أى

المخلوقات

(قال عيسى بن هشام) - ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه

الباشا خشيت أن يقع مع السمسار في حادثة أخرى ، فأدركته ووبخت

الرجل على احتياله وتوعدته بالشر ورَفَع الأمر الى النائب العمومى إن

لم ينته عنا . خَلَفْنَا وانصرف . ونادى الحاجبُ أربابَ القضايا فدخلنا

فوجدنا النائبَ لا زال لاهياً في حديثه مع زائريه وأشار لنا بالتقدم الى

الكتاب فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط القضية وبيان ما قاسيناه من

سوء معاملة البوليس وقبيح افتراءه فالتفتَ النائب إلى الكتاب وقال له :

لا تقبل كلاماً في البوليس ولا تسمع فيه طعناً بل خذ بأقواله واستمسك

بتحقيقه . ثم نظر في الساعة فوجد الميعاد قد حلّ فأخذ عناه ولبس

طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي الآن وجب أن  
أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي للمدافعة عنك

(الباشا) - قل لي بالله ما هو المحامي عنكم

(عيسى بن هشام) - هو وكيل الحكيم والمخاصمة يتكلم مكانك بما  
تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك ، وصناعتُهُ  
هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل  
في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة  
للتكسب مثل هذا المحامي وسمساره . وهؤلاء بعينهم هم الذين يعينهم علاه  
الدين الكندي بقوله :

ما وكلاء الحكيم إن خاصموا      الآ شياطينُ أوّلُ باس  
قومٌ غدا شرُّهم فاضلاً      عنهم فباعوهُ على الناسِ

## المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام — ولما حلّ يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة فوجدنا في ساحتها أقواماً ذوي وجوهٍ مُكفَّرةٍ. وألوانٍ مُصْفَرةٍ. وأنفاسٍ مقطوعةٍ. وأكفٍ مرفوعةٍ. وشاهدنا باطلاً يُذكر. وحقاً يُنكر. وشاكياً يتوعد. وجانياً يتودد. وشاهداً يتردد. وجندياً يتهدد. وحاجباً يستبد. ومحامياً يستعد. وأماً تنوح. وطفلاً يصيح. وفتاةً تلهف. وشيخاً يتأفف. وممعناً ألفاظاً متناقضة. وأقوالاً متعارضة. ورأينا المحاميين عن الخصمين. يشخذ كلٌّ منهما لسانه. ويقدم جَنَانَهُ. استعداداً للزوال. في ميادين المقاتل. وتأهباً للدفاع. في مواقف النزاع. ليُخرج كلاهما بنغيمة البراءة في الحكم. ورفع التهمة والجُرم. فانزويت بصاحبي. ومحامينا بجانبني. يذكر لنا «أصولاً مرعية». و«مسائل فرعية» وظروفاً وأحوالاً. وشروحاً وأقوالاً. وموادٍ وفقرات. في الجنج والمخالفات. ثم يتصفح محاضره. ويقلب دفاتره. ويُقسم لنا بوكيد الأيمان. أن الباشا من تهتمته في أمان. وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال. بما تقتضيه الحال. ولما سألتني عن هذه الملحة. قلت له هي المحكمة

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير

ما أرى فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب

(عيسى بن هشام) — هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية

( عيسى بن هشام ) — للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهي محاكم متعددة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية دَع المحكمة المخصوصة

( الباشا ) — ماهذا الخلط . وما هذا الخبط . وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقا وأحزابا . وقبائل وأنفاذا . وأجناسا مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الفراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان

( عيسى بن هشام ) — ليس الأمر على ما توهم وتخيّل فلم يتفرّق المصريون فرقا ولم يتوزعوا شعوبا بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم ، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئا قليلا

أما المحاكم الشرعية فقد جردت من النظر والحكم في عامة الخصامات واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب

( الباشا ) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه ، وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله :

قد نُسِخَ الشَّرْعُ فِي زَمَانِهِمْ فَلِيَتِمَّ مِثْلَ شَرَعِهِمْ نُسِخُوا

(عيسى بن هشام) - لم يُنسخ الشَّرْع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ على الدهر ما بقي في العالم إنصاف وفي الأمم عدل، ولكنه كنز أهمله أهله ودرّة أغفلها تجارها، فلم يلتفتوا إلى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دون الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلفوا في الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض الخفيرة والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة إلى الخيال وتعدوا الممكن إلى المحال، فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والخبر الفهامة منهم أن يُدع في التفنن للإغماض في الحق الأبلج والتعقيد في الحنيفة السمحة. ولم ينتبهوا يوماً إلى ما تجرى به أحكام الزمن في دورته، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشَّرْع على ما تستقيم به المصاحبة بين الناس، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزون ولا يتحللون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف وأن الزمن تمحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيه ولا عمل، فكانوا سبباً في تهمة الشَّرْع الشريف بمخلل الحكم ووهن العقْد وقلة الغنَاء فيه لإنصاف الناس في معاشهم ومرافقهم على حسب ما تتجدد به حالات الزمن وتتخالف عليه أشكال العصور. ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية

(الباشا) - ما أظن إلا أن يكون لأهل الشَّرْع وأصحاب التفقه

في الدين عذرٌ واضح في النزول إلى هذه الحال السيئة من معارضة معارض

ومنازعة منازع أو جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر فصدّم عن  
سواء السبيل، وأرعاهم هذا المرعى الوبيل،

(عيسى بن هشام) — لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق فالإرادات  
مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة، وليس الفساد  
ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحدَثان ولكنه فساد في التربية عمّ  
أمره وانتشر، وانحطاط في الأخلاق عَظُم بلاؤه واشتهر، سكنت إليه  
نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم، وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض  
ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضامن، واستولى على قلوبهم الجبنُ  
والخورُ وعلى عقولهم الضعفُ والخبَلُ وعلى نفوسهم الفتور والكسل  
فوصلوا إلى الحال التي يرون بها السنة بدعة والبدعة سنة، والفضيلة تقيصة  
والتقيصة فضيلة، وأقاموا يتعسفون في الحكم ولا ينصفون. ويتفكّهون  
في الدين ولا يتفقهون. وصرفهم حب المال. عن صالح الأعمال. وألهام  
ما يدخرونه من زخرف الحياة الدنيا. عما يُدخّر لهم في الدار الآخرة.  
فحنّ الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا، منا الإثمُ والوزر. وعلينا الذنب والإصر  
وأما المحاكم الأهلية فهي القضاء الذي يَقْضِي على الرعية اليوم في

جميع الخصومات طبقاً لنص القانون

(الباشا) — « القانون الهمايوني »

(عيسى بن هشام) — القانون « الامبراطوري »

(الباشا) — ما عهدت منك ان تُعجم وتُبهيم

( عيسى بن هشام ) - لإعجام ولا لإيهام ، فهو قانون نابليون  
امبراطور الفرنسيين

( الباشا ) - وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم  
مرة أخرى

( عيسى بن هشام ) - لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في حكمهم  
فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

( الباشا ) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف  
والسنة المطهرة وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله

( عيسى بن هشام ) - المسألة فيها خلاف - فالإجماع تام عند علماء  
الشريعة في السر والنجوى على انه مخالف للشرع وأن كل من يقضى به  
داخل تحت نص الآية الشريفة : وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ . ولكن يظهر أنه مطابق عندم للشرع في حالة الجهر  
والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبارهم عند نشر هذا القانون وهو يومئذ  
مفتى نظارة الحقانية ، فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التي أفتاها بأن  
هذا القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الاسلامي ، وإن كان لاعتقاب  
في هذا القانون على الفسق والواو اط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمره  
الثانية عشرة يوماً واحداً ، ولا اعتقاب فيه على من يزني بأمه اذا هي رضيت  
وكانت غير متزوجة . وهو الذي يعد الأخ مجرمًا جانياً اذا تعرض للحماية  
عرض أخته والمدافعة عنه ، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها . وهو الذي

يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذى لا يعاقب الزوج اذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه وأما المحاكم المختلطة - وقضاها من الأجنب - فهي تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الأهالى والأجنب وبين الأجنب وبعضهم فى الحقوق المدنية أعنى فى قضايا المال . ولما كان الأجنب هم أحق وأولى بالنعى لسعيهم وجدّهم وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانهم كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بد أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهي تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته - وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه - وحدثها فى العقاب الرفق والحرمان من المعاش . وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجع فيه الى المحاكم الأهلية

وأما المجالس الادارية فهي تختص بعقاب من يخالف المواثيق والأوامر والمنشورات . وشرح ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهي تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضاً على الأهالى فى مسائل القرعة وما شاكلها وأما المحاكم القنصلية فهي تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الأجنبي على المصرى ومن الأجنبي على الأجنبي من جنس واحد . فاذا وقعت جناية من أجنبي على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب

ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التى عدتها لك بالنظر فيها بل يرتد الجانى بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه فينظر قضاته هناك فى أمره ، والغالب فى مثل هذه الحال عندم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بلعل معلومة مثل : « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى ، وضياع معالم القضية ، وعدم توفر الشهود »

وأما المحكمة المختصة فى تختص بمعاينة الاهالى عند تعدتهم على الجنود الاجنبية

(الباشا) -- ما زالت تسمى الغريب وتفهمنى خير مفهوم ، ومن أعجب ما سمعت أن المصرى يتعدى على الجندى

قال عيسى بن هشام -- وبيننا نحن فى هذا الحديث إذ ارتج المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى وهو فى عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجهه حسنا . ويشاكل فى القد غصنا . وكأنه طائر فى مشيته . من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن نوبة القضية ثم عدت الى صاحبي ، ومكثنا فى الانتظار زمنا طويلا الى أن جاء وقتنا ونودي الباشا فدخل مع المحامى فى الجلسة وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتي « ١٢٤ » و « ١٢٦ » عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية » فى أثناء تأدية وظيفته ، وبالمادة « ٣٤٦ » مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف

(القاضى للمتهم) -- « هل فعلت هذه التهمة »

(المتهم) -- لم أفعل

قال عيسى بن هشام - وجاؤا بي شاهداً فسألني القاضي عما أعلمه  
في هذه الواقعة فأجبتُهُ :

( عيسى بن هشام ) - إن لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة  
وهي أنه . . . . .

( القاضي ) مقاطعاً - لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية . قل لي  
« معلوماتك » فيها

( عيسى بن هشام ) - « معلوماتي » هي انني كنت أزور المقابر  
ذات ليلة وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار . . .

( القاضي ) مستثقلًا - لا لزوم لكثرة الكلام . أجبني عن النقطة  
التي سألتك عنها فقط

( عيسى بن هشام ) - ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أنني  
رأيت رجلاً خرج من . . .

( القاضي ) متمملاً - قلت لك إني لا أقبل التطويل ولا الشرح  
في الواقعة، ولكن هل ضرب المتهمُ العسكريَّ والحمَّارَ

( عيسى بن هشام ) - ما ضرب المتهمُ الحمَّارَ وإنما دفعه عنه من  
شدة إلحاحه، وما ضرب العسكريَّ وإنما سَقَطَ عليه مما غَشِيَهُ بغير عمد  
ولا قصد، وهو يجهل . . . . .

( القاضي ) - يكفي . يكفي . هلمَّ « النيابة »

( النائب ) - « ان هذا الباشا متهمٌ بتعديده بالضرب على أحد رجال

البوليس في أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهم بالتعمدى بالإيذاء على مرمى الحمار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التي في الاوراق واطلاع المحكمة عليها كافٍ وبناء عليه النيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عدالة المحكمة التشديد في العقوبة لان حالة المتهم تستدعى ذلك فانه يتخيل ان رتبته تجعله خارجاً عن سلطة القانون وتحوّله الحق في اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنًا فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولا شك ان تشديد العقوبة عليه واجب لا اعتبار أمثاله به والمساواة في العدالة وأفوض الامر الى المحكمة »

(القاضي المحامي) - المحاماة . مع الاختصار

(المحامي) - بعد أن يتحنح ويقلب في أوراقه - « اننا نتمجّب

من ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضي في وضع الشرائع والقوانين في هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يُقصد منه . . . . .

(القاضي) مشتملاً - اختصر يا حضرة المحامي وادخل في الموضوع

(المحامي) - . . . ومن المعلوم ان نظام الترتيب يا حضرة القاضي في

طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى . . . . .

(القاضي) متضجراً - اختصر . يابك .

(المحامي) - الموضوع يقتضى ذلك

(القاضي) متأففاً - لا لزوم له

(المحامى) متحيراً - قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أقوالها)

ونحن نقول اننا لو سمحنا جدلاً . . .

(القاضي) مفضباً - يكفي يابك . الموضوع

(المحامى) متلعثماً مضطرباً - ان هذا المتهم يحاضرة المحكمة الواقف

الآن بين يدي القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم

وله حديث منشور في الجرائد - وهذه أعداد جريدة «مصباح الشرق»

تطلعون عليها - وقد اعترضه في طريقه أحد المكارين فدفعه عن نفسه

والناس يعامون إلحاح الحمارة وسوء أدبهم ومثل هذه الطبقات التي ليس

فيها تربية . . .

(القاضي) نافداً صبره - قلنا اختصر . يابك

(المحامى) وهو يتصبب عرقاً - . . . ولما توجه المتهم الى القسم

أنغمى عليه فسقط بدون تعمد على عسكري كان يكندس أرض القسم بغير

ملابسه الرسمية. وعدالة المحكمة تقضى بدمم الالتفات الى دعوى البوليس

ولا عقاب على المتهم ألبتة لانه كان في عصر غير عصرنا وفي نظام خلاف

نظامنا ولم تبلغه دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضي الفاضل

أدرى بالاحوال . وان . . . .

(القاضي) منفعلاً ضارباً بيده على المكتبة - المحكمة تنورت يابك

ولا لزوم للكلام مطلقاً فيلم طلباتك

(المحامي) ساخطاً في نفسه - طلباتنا هي « اننا نطلب من باب أصلي الحكم ببراءة المتهم وإن رأت المحكمة غير ذلك فترجو استعمال الرأفة بالمادة ٥٣٢ عقوبات »

قال عيسى بن هشام - وبعد ذلك نطق القاضي بالحكم فخكم على الباشا بالجلس سنةً ونصفاً بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات اوبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات. فضاعت الارض بي وأظلمت الدنيا في عيني وكنت اشترك مع صاحبي في الذهول والإغماء لولا أن المحامي أكد لي كل التأكيد أنه لا بد من البراءة في محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولـكن يجب مع ذلك ان نرفع عريضة شكوى الى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير في القضية عند نظرها في الاستئناف ، ثم قال لي اعلم ان السبب في كل ما صدر عن هذا القاضي من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنه مدعو في وليمة بعض رفاقه عند الظهر تماماً وأمامه في جدول القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتي عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد

وأطعنا إشارة المحامي فقدمنا عريضة الى لجنة « المراقبة » ، ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم في أمرها تنحى عن استصحابنا وقال إنه كان يود مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعه أن يعلم القاضي بسعيه في التنظيم منه فيتمعد في المستقبل أذاهُ وينصرف همهُ الى نكايته بسبب شكايته ، والمحامي في حاجة دائمة الى اجتلاب رضاء القاضي واجتناب غضبه ، فقبلتُ

عذره ، ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبني وهو يشتد في الإباء ويلجُّ في الامتناع بقوله :

(الباشا) - يكفيني ماقد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من تزول القَدَر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى أن يجتمع عليها ذلّان في سلك واحد ، ذلّ المتحمل للظلم المستكنّ للجور وذلّ المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع . فإليك عنى لا تكن عوناً للخطوب . ومفتاحاً للكروب . وصدقَ ابنُ يعقوب : « ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه » . ويعلم الله لولا عذاب النار . لفرجت عن همة بالانتحار . وبودى لو يبدل حكم الجبس بالاعدام . لأخلص من هذه الأوصاب والآلام . وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجرى عندنا في عقاب الفوغاء من الناس والسفلة من العامة ، وللأمراء الامتياز على كل حال ، فان كان ثمّ لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظامة السجن

(عيسى بن هشام) - ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفرع ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع . وأنت البطل الجريء والشجاع المقدم ، وما الشجاعة الا في التصبر على المكروه والتجلد للخطوب تتلقاها بوجه طلق وصدري رجب وترقب الفرغ منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحلّ العقال

وأنت عندي الحازم الأرشد . والعاقل المُسَدِّد . وما العقل الآ نفاذ  
الرأى فى كشف الملمة . وتسديد الحيلة فى إزاحة النعمة . وأماننا اليوم  
طرق مسنونة ووسائلُ مشروعة لا غضاضة علينا فى وُوجهها ولا مضاضة  
فى سلوكها . واعلم أن تبدل الأزمان وتقلب الحدَثان يغير من مبانى الأمور  
ويكيف فى اعتبار الأشياء فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر فى الغد  
رذيلة وما كان يعدّه الناس فى الزمن الماضى تقيصة يعدونه فى الحاضر كجلاً .  
وان كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنّعة ويقوم ركُنُه  
على البأس والبطش فان الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام  
والخضوع للقانون . فهلم نسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهى  
بالخلوص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل  
الانسان نظام الاحكام فى البلد الذى اتخذهُ داراً واختاره مُقاماً

(الباشا) - لَطَمُ الموت الزؤام .<sup>(١)</sup> أهونُ من هذا الكلام . وللشرب  
من حميم أن<sup>(٢)</sup> . آتُرُ من احتمال هذا الهوان

(قال عيسى بن هشام) - فاعتأت على وجوه الآراء . فى صرف  
صاحبى عن الامتناع والإباء . وكدت أياس من بلوغ الغاية . فى باب  
النصيحة والهداية . لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى فى طريقنا  
بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

(١) الموت الزؤام ، الكربة أو المجهز (٢) الحميم ، ناء الحار ، وآن ، شديد الحرارة

المؤيد والمقطم !! الاهرام ومصر !!

الاربعة بقرش

(الباشا) - ماذا أسمع من الاعاجيب ! الأصبحت المساجد والجبال  
والآثار والبلاد تباع في الاسواق بالمزاد

قد اختلّ الانامُ بغير شكِّ فجدُّوا في الزمان أو العبوة

( عيسى بن هشام ) - ما هي بالآثار ولا بالبلاد ولكنها اسماء  
انتُحت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) - لعلك « تعنى جرائد الصيارفة ويومياتهم » أو « جرائد  
الالتزام » ولكن ما وجه هذه التسمية في التسمية

( عيسى بن هشام ) - ليس الامر كما ذهبت اليه ، ولكن الجرائد  
هي أوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع وتُسرد فيها  
الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس ، وهي أثر من  
آثار المدنية الغربية انتقل اليها منها فيما انتقل . والأصل في وضعها انتشار  
الحمد للفضيلة والذم للردية ، والنقد على ما قبح من الاعمال ، والحث على ما  
حسن من الأفعال ، والتنبيه على مواضع الخلل ، والتحضيض على إصلاح  
الزلل ، وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النائية عنها حتى لا تجرى بها الى  
غير المصلحة ، وتعريف الحكومة بمحاجات الأمة لتسعى في قضائها .

وبالجملة فإن أصحابها هم في مقام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم

(الباشا) - قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القبيل يقال له «غازيته» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «رُوزنامِه وقائع» وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تُدَوَّن فيهما المدائح والتهاني ويُذكر فيهما انتقال الركاب العالی . ولكن إن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما تزعم فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتمَّ بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام ، ولِنِعْمَتِ الوسيلة وحَسُنَتِ الطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في معاشهم وينفعهم في معادهم . فعلى بوأحدة منها

( عيسى بن هشام ) - علماؤنا ومشايخنا - يفتقر الله لهم - هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونها فضولاَ تنهى عنه الشريعة وتداخلها فيما لا يعنى فلا يأبهون بها وربما اختلفوا في كراهة الاطلاع عليها أو بإباحته . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بها والتكفف على أية حالة كانت فلا تجرد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الاسواق فرقاً في الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر والاحتيال للاستلاب والاعتيال

عمروا موضع التصنع فيهم ومكان الإخلاص منهم خرابُ  
فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سفل

قدرها عند الخاصة وأصبح ما كان يُرجى فيها من النفع دون ما تجلبه من الضرر. ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يوماً بتهديب هذه الحال ورفع هذه الصناعة الى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر. والحكم كله للقارئين في الإقبال على ما ينفع والانصراف عما يضر « فأما الزبدُ فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكثُ في الأرض » ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعمائة ، وفتحت واحدة أقرأ على صاحبي تُثَقُّ من أخبارها فوق نظري فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين ، فأسمته ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش في سجنه واستدرار الدموع لما يلاقه هذا الغلام من ضيق السجن وهو من سلالة الولاة والأمراء . ثم قلت له بعد أن انتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو :

( عيسى بن هشام ) - أنظر: أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال في المساواة وقد علمت ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليه ، فكيف ترفع نفسك بعد ذلك وتأبى الخضوع للقانون والامثال لأحكامه والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيه ( الباشا ) - ما « البرنس » ومن أحمد سيف الدين

( عيسى بن هشام ) - أما « البرنس » فهو لقب أجنبي قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترئوا على الأمة بانتحال لقب « امبراطور » ، ثم صار يُطلق بدمهم في أوروبا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويُطلقه اليوم على أنفسهم أعضاء

« العائلة الخديوية » ذكوراً وإناثاً وإن كان لا ذِكرُ لهُ بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية. وأما أحمد سيف الدين هذا فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد ابن إبراهيم بن محمد على جد الاسرة الخديوية وعميدها، وقد ارتكب جناية فسجوهُ الى المحاكم واستحق العقاب الذي يقضى به القانون فحكمت عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين فاستأنف يلتمس الشفقة والرافة من قضاة الاستئناف فأنتصوا المدة الى خمس ثم استغاث بمحكمة النقض والابرام فلم تُفثهُ. وقد انصرفت المساعي لاتفاق أعضاء الاسرة الخديوية على التماس العفو عنه وذهبت أمه يمينا وشمالاً فلم تُبق وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها، ولكن لا وسيلة مع القانون فان سيفه ماض في كل الرقاب وسلطانهُ نافذ في كل الرؤوس. فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وترفع عن التوسل والتظلم وتأنف بنفسك من السعى وراء «لجنة المراقبة» و«محكمة الاستئناف» وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت (الباشا) - نعم كيف لا تحمُرُ الجبال الشم. اذا استنزلوا منها الاراوى العُصم<sup>(١)</sup>. وكيف لا تنشق القبور. ويُنفخ في الصور. وقد انحطّ المقام وسفل القدر. وحققت كلمة ربك على مصر: «جعلنا عاليها سافلها».

وما دام حفيد محمد على في السجن على ما تروى يخضع لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمهُ بتلك الشفاعات فما على من عار فيما تدعونى اليه، فاذهبُ بي الى حيث تريد. وليتهم كانوا يقبلون منى أن أكون فداءً لابن سادتي وأولياء نعمتي فتضاف عقوبته الى عقوبتي

(١) الاراوى، جمع أروية وهو الوعل، والاعصم ما في ذراعيه يابض وسائرُه أسود

## لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام - فسررتي من الباشا مطاوعته إيتاي وقبوله  
لنصيحتي ورضيَ بالتوجه إلى نظارة الحفائية فسار معي وهو محتقق  
بدمعه متعثر بقدمه . ولما وصلنا إليها قصدنا مكان «لجنة المراقبة» وهمنا  
بالدخول في حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلب منا «الكارت»  
(الباشا) مستفهما - مامعنى هذا اللفظ الأعجبي

(عيسى بن هشام) - «الكارت» بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم  
والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المزور  
بالتحيار في قبول الزيارة أو التماس منها

(الباشا) - لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة في أيامنا لكل من  
يطلبها . وكيف ينطبق هذا التضيق على ماتصفه لي من المساواة في الحقوق  
والإنصاف في الأحكام

(عيسى بن هشام) - لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من  
لجاجة صاحب حاجة ، فوضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم  
(الباشا) - ألم تكن هيئة الحكام وعزتهم بكافية لصد من ذكرت  
عن الدون منهم والتجرؤ عليهم

قال عيسى بن هشام - وبادرت الى القلم فككتبتُ ورقيقة باسم  
الباشا وسلمتها للحاجب ، فجاءنا بمد الانتظار بالاذن فدخلنا فوجدنا

أمامنا فتى من أجمل الفتيان . قد أرسل لحيته قبل الأوان . يتموج تحتها ماء الشباب . كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب . رأيت في يده جريدة حساب . يجمع في أرقامها ويضرب في أعدادها . ثم يضع يده على جيبته . كمن يتذكر رقاسقط من حسبته . وعن يمينه كتاب أعجمي . وعن شماله كتاب عربي . فكتاب اليمين « لفلوثير » الفرنسي الملحد . وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا ، فذكرت له العريضة التي قدمناها وقصصت عليه القصة وشرحت له ماعاملنا به القاضى من سوء المقاطعة في الشهادة والمرافعة . وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله :

( الباشا ) - وأدهى ما في القضية وأمر ما في الامر أن الذى تسمونه « النائب » اعتبر رتبتي سبباً لأهانتي ، وما كنت أتخيل في الاحلام ان الرتبة التى نلتها باقتحام الاخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغفر وبرهاناً قاطعاً لديه في تشييد دعواه يُطلب به تشديد العقوبة . فقولوا لى بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام . ومن أى صنف أتم بين صنوف الأنام

قال عيسى بن هشام - ودخل أحد الزائرين في هذه الأثناء فخدمت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله ، والآ فقد كان الباشا اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث من الأخبار . في وجه النهار . فنالوه المفضش خطبة يتفكك بقراءتها . بعد أن بالغ له في

بلاغتها. وما كاد يلتفت اليها ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الأجانب فأطلعه على رسم في ورقة زعم أنه نقشه في أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتد الجدال ، فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ، ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا ، فخطب الباشا بكلام لطيف عذب ينيء عن كرم نسه وحسن أدبه وختم كلامه بقوله :

( المفتش للباشا ) - قد اطلعتُ على ظروف القضية كلها في «مصباح الشرق» ، فأما القاضى فقد يكون له العذر في مقاطعة المحامى لأن منهم من اعتاد أن يأتى في مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة وتكوين الجمعية البشرية وما يجرى هذا الجرى مما يطول شرحه ويمتل سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية ، وهم يستعملون ذلك في أيسر القضايا وأدناها ليقنع صاحب القضية أن المحامى لم يدخر لديه كلاماً يقال في الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية أو خسرتها . فترى أرباب القضايا يعتقدون أن المحامى لا يستحق أجره من المال . الا بكثرة ما يقال . كالسلة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجمالة للمحامى بمد أن ربح له القضية بدعوى أنه لم يسمع منه كلاماً مطوّلاً في المرافعة يستحق عليه الأجر سواء أكان مفيداً أم مضراً بها ، وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين فلا يسهل الا المقاطعة على المحامى المكثّر في كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه الى وقائع الحادثة لتلايفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر أن القاضى لم يخالف القانون بشيء فيما أتاه معكم

(الباشا) - ليت شعري إذا اعتذرت عن القاضي في مقاطعته فما العذر في وضعه لي في « قفص المتهمين » وتقييده لي بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل شيخ معمر وقد قضيت عمري في المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمي في خدمة الأسرة الخديوية فهلا كان وقرني لسني واحترمني لقدرى ، وأى قانون في الدنيا يمنع من ذلك ، وتوقيع السن طبعي واحترام المقامات أمر أصلي ، والله تعالى يقول : «ورَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ»

(المفتش) - ذلك ما يقضى به القانون أيضاً فإنه قائم على المساواة بين الناس ولا فرق عنده في المقامات والأعمار ، وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف وعين ما يجري على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة الحكام اذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذهُ القانون عليه . ولا معرفة عليك ولا غضاضة في وقوفك أمام القاضي فانما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهي أكبر الدرجات

(الباشا) - ان كان هذا حكمكم في القاضي فما الحكم في عضوا النيابة الذي عيرني بشرف رتبتي

(المفتش) - أنا لم أطلع بعد على أوراق القضية وتفصيل المرافعة ولكن ما انتشر في « مصباح الشرق » من كلام « النائب » لا يؤخذ منه معنى التعيير بالرتبة بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة مهما عظم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام

القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجعل له سبيلاً على محروم منها .  
ولا بأس عليكم من كلام النائب في هذا الباب فانه جرى بيننا مجرى  
العادة في هذا العصر

(الباشا) - إذا كان للقاضي العذر وللنائب الحق فما فائدة تظلمى  
لكم وحضورى أمامكم ، أفما كان من اللائق أن تخرجوا القاضي وتؤنبوا  
النائب وتفحصوا القضية وتثبتوا من بطلان التهمة وتنقضوا ذلك  
الحكم أمامهما

(المفتش) - ليس ذلك من اختصاصنا . واذا وقع من أحد رجال  
المحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر في أمره موكول الى « مجلس  
التأديب » ولا سبيل لرئيس على مرءوس الا بحكم من المحكمة . وأنا  
أسف غاية الأسف لمجزنا عن التصرف في قضيتك . والحكم فيها  
راجع الى محكمة الاستئناف وحدها

قال عيسى بن هشام - وكنت أشاهد في أثناء هذه المحاورة شاباً  
آخر بجانبنا من المفتشين يسطع « طربوشه » احمرارا . ويقاب طرفه  
ازورار . تلوح على وجهه مخايل الإمارة . ولا تنفك يده في رفع وخفض  
« للنظارة » . وتشهد عليه سباه بالفتن في التديير . وتدل على قوة الدهاء  
والتفكير . فلما وصلنا الى حيث وقف بنا الكلام رأيناه ينادى الحاجب  
ويقول له :

(المفتش الثانى) - على « بدالوز » و « جارو »

(الباشا لعيسى بن هشام) - هل هذان الاسمان يُطلقان على القاضى والنائب ، وهل ترى هذا الشاب هباً للانتصاف لى منهما  
(عيسى بن هشام) - هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل  
« ابن عابدين » و « الهداية » فى فقه الشرع

وحضر خازن الكتب بالكتابين فردّ المفتش له أحدهما وقال له :  
ما طلبت « بودرى » بل طلبت « جارو » . ولما جاءه به أخذ يبحث فى  
الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليأس وقال : ائتنى « بفوستن  
هيلى » فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع  
زميله باللغة الفرنسية وانتهى الامر بينهما أن قالوا للباشا معاً : لعل لك  
عذراً فى القانون يمكنك ان تدلى به الى الاستئناف فى قضيتك ، وأما  
ما يختص بالقاضى والنائب فسنضع له « نوته » (مذكرة) ونقدمها الى  
اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أقل خلل فى تصرفها أصدرت منشوراً  
الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل

تم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول :  
(الباشا) - قد كُتب علىّ ان لا أخرج من همّ الآلى همّ ولا أتهدى  
من كدر الآلى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم  
علىّ من الهموم والاحزان :

فانى رأيتُ الحزنَ للحزنَ ماحياً كما خُطّ فى القرطاس رسمٌ على رديم  
ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة انى ما وضعت  
قدمى فى دائرة من دوائرها الآرايت أسمى غلماناً وفتياناً يتولون أمورها

ويتصرفون في أعمالها ، فهل خلق المصريون خلقاً جديداً أم صاروا في  
الجنة استوت فيها الأعمار

( عيسى بن هشام ) - لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة  
فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك ، وهم يزعمون أنه ليس في استطاعة  
الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب خلّوهم عن علومها الجديدة  
وجهلهم بفنونها الحديثة

( الباشا ) - كيف يدعون ان العلم ينحصر في الشبان دون الشيب  
وما عهدناه الا في من أحت السنون ظهورهم ويبيضت التجارب مفارقتهم  
فابتسم فيها بياض الرأى والادب

( عيسى بن هشام ) - هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن  
دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهماً في حلبة العلوم  
وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك ، فاذا  
أنصرف بهمته الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول  
والشيوخ وأغناء ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها ذوو  
الأسنان والأعمار :

ليس الحدائث عن علم بمانة قد يوجد العلم في الشبان والشيب  
( الباشا ) - ولترجع الى شأننا فقد اتبعت آراءك وامثلت نصائحك

وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا بعد  
هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ، ولم يبق لك بعد اليوم وجه في أى  
احتجاج وجيه توجهني به وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام

( عيسى بن هشام ) - لا تيأس ولا تقنط فان أمامنا محكمة الاستئناف  
ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام. ولو خاب فيها الأمل على الفرض  
والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتئمسه بوساطة ناظر الحقانية  
(الباشا) لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً فقد سئمت من  
وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهما بالنت لى فى الوصف واستشهدت  
فيهم بالشعر

( عيسى بن هشام ) - ليس ناظر الحقانية الذى اذكره لك من صف  
هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكبٌ على  
الأوراد منصرف الى الأذكار . يمسى ليله قائماً . ويصبح نهاره صائماً .  
فبين السبحة وأصابه عهد وميثاق . وبين السجادة وجهته ارتباط  
والتصاق . وبالجملة فهو يُذكرنا فى هذا العهد الجديد بعهديكم القديم . وأبوه  
رجل من أكابر رجالكم اسمه حسن باشا المناسترلى

(الباشا) - حسن المناسترلى !! ذاك خليلى وقرينى ، وصاحبى  
وخدينى ، ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ، ولما ذالم تخبرنى عن  
ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حققت ماء وجهى وأتقتنى  
من كل هذه الإهانة وذلك التحقير

( عيسى بن هشام ) - ما غاب عنى أن أذكرك به فإنه لم يكن له  
أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب ، وانما نفعه يكون فى آخر  
الدرجات ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف  
والسمى فى التماس العفو من ولى الأمر

## حكمة الاستئناف

وَأَنْ أَوْ أَوَّانُ الْجُلُوسَةِ فِي الْإِسْتِنْفَانِ . فَسَرْنَا فِي طَلْبِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ،  
وَكُلِّ وَاحِدٍ مِّنَّا مَشغُولٌ بِمَاجَتِهِ . لِأَيِّ بِنَازِلَتِهِ . فَالْبَاشَا يَفكُرُ فِي مَصِيبَتِهِ .  
وَيَتَأَلَّمُ مِنْ بَلِيَّتِهِ . وَالْمَحَامِي يَدبِرُ فِي أَمْرِهِ . وَيَتَطَّلَعُ لِأَجْرِهِ . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ  
لِنَا النِّجَاةَ . مِنْ مَكَايِدِ الْحَيَاةِ . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى حَيِّ « الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ » وَرَأَى  
الْبَاشَا دُورَهَا وَمَبَانِيَهَا . وَشَاهَدَ قُصُورَهَا وَمَغَانِيَهَا . وَاسْتَطَابَ رِيَاضَهَا  
وَحَدَائِقَهَا . وَاسْتَنشَقَ رِيَاحِيْنَهَا وَشَقَائِقَهَا . اسْتَوْقَفْنَا سَائِلًا مَبْهُوتًا .  
وَاسْتَنْطَقْنَا بَعْدَ أَنْ كُنَّا سَكُوتًا . فَقَالَ الْآتَمْبِرَانِي عَنِ مَوْضِعِ هَذِهِ الْجَنَّةِ  
الزَّاهِرَةِ . مِنْ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ . فَقُلْتُ لَهُ هَذِهِ « الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ » اخْتَطَبَهَا  
إِسْمَاعِيلُ . فِيمَا اخْتَطَبَهُ لُزَيْنَةُ وَادِي النِّيلِ : يَسْكُنُهَا الْيَوْمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعِظْمَاءِ .  
ذَوِي الْغِنَى وَالْإِثْرَاءِ . وَقَدْ كَانَتْ فِي أَيَّامِكُمْ خَرَابًا قَفْرًا . لَا تَحْمَلُ بَيْتًا وَلَا  
تَرْفَعُ قَصْرًا . وَلَا تَرَى فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ غَيْرَ الطَّلْحِ وَالضَّالِّ (١) . وَلَا مِنَ الْبُومِ  
الْأَزْهَارِ غَيْرَ شَوْكِ الْقِتَادِ أَوْ شَوْكِ السِّيَالِ (٢) . وَلَا مِنَ الطَّيْرِ غَيْرَ الْبُومِ  
وَالغُرْبَانِ . أَوْ الرِّخَمِ وَالْعِقْبَانِ . وَلَا تَجِدُ فِيهَا مِنَ الْإِنْسِ إِلَّا لَصًّا سَالِبًا .  
أَوْ مَغْتَلًّا نَاهِبًا . أَوْ فَانِكًا مَتَأَهَبًا . أَوْ كَامِنًا مَتَرَقِبًا

(الباشا) — لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبدلهم من  
الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك الأطلال البالية .

(١) الطلح ، شجر عظام يرعاها الابل ، والضال الدر البري

(٢) القتاد ، شجر صلب له شوك كالابر ، والسيال ، جمع سيالة نبات له شوك أيضا

(الحامى) - أيها الأمير لا تنبسط المصرى على نعمته. وتعال فأبك  
معنا من نعمته. فليس له في هذه الجنة من دار. يقر له فيها من قرار.  
وكل ما تراه من هذا الجانب. فهو ملك للجانب

(الباشا) - لله أبوك كيف يختص الأجنبي دون الوطنى بهذه  
الجنان الناضرة. ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة. ولملك تلذز في  
قولك وتُحاجى. وتُعمى في تعبيرك وتُداجى

(الحامى) - لا تحجية ولا تعمية، بل هكذا قدر المصرى لنفسه.  
وتبدل سعده بنحسه. واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف. ورضى بالقسم  
الخبس الضعيف. فبات محروماً تحت ظل إهماله وخوله. وغدا بالئسا  
في سباته وذهوله. وما زال الأجنبي يسعى ويكد. ويعمل ويجد.  
وينال ثم يطمع. ويسلب ثم يجمع. والمصرى يبذر بجانبه ويسرف.  
ويبدد ويتلف. ويتحسر ثم يلهو. ويعجز ثم يزهو. ويفتقر. ثم يفتخر.  
فتساوى السيد والسود. وتشابه الحاسد والمحسود. وتبادل الرفيع والمنيع.  
بالحقير والوضع. واشتركا كلنا على السواء. في منازل الشدة والبلاء.  
وأصبح نصيب القوى المكين. مثل نصيب الضعيف المستكين.  
وكذلك تكون عاقبة من يلقى للأجنبي يديه. ومن أعان ظالماً سلط عليه:  
ومن يحمل الصرغام بأزاً لصيده تصيده الصرغام فيما تصيداً  
قال عيسى بن هشام - وما كاد ينتهى رفيقاي من خطابهما. ويفرغان

من سؤالهما وجوابهما. حتى مر بنا راكب دراجة تنساب به كالصلال<sup>(١)</sup>

(١) الصلال، جمع صل وهو الحية

في بطون الرمال . ويتمايل بها تمايل النشوان . مالت به نشوة الحر . وينثى  
إثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلاً الباشا . تعجباً واندهاشاً .  
وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا «البهلوان» . فقلت هذه عجلة حادثة  
يختارها بعض الناس . على المركبات والأفراس . ومما يرغبهم فيها انها  
لا تأكل ولا تشرب . ولا تهزل ولا تتعب . وهذا الراكب رجل من  
أهل القضاء . يركبها لرياضة الأعضاء . فأبعمه الباشا نظرة فوجده قد  
سقط نجاة من فوق دراجته ، فانفرط عقده الهيئة على سطح الارض الى  
ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فلم  
شعته وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها يده يجرها  
ويماشيا . وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها :

(الباشا) يا حيداً لو عدنا من حيث أتينا . وكنا مُطلقين لا لنا ولا  
علينا . وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم اذا كان هذا منظره وذاك  
مركبه أمام أعين العامة . وهل حُكيم الناس يوماً بغير أهبة الحجاب  
وعظمة المناظر ونغامة المواكب ، وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب في  
عصرنا الا في موكب تحف به الحشم والأعوان . وتقدمه الجنود  
والفرسان . فترتجف منه القلوب رعباً . وتخرله الأعناق رهبا . وقل من  
يجترئ من الناس على ارتكاب ما يقفه أمامه يوماً موقف التهمة والارتياب  
(عيسى بن هشام) - ذلك عصر مضى . وحكم انقضى . ولقد تفنن  
أهل العصور الماضية في وصف ما تذكره من منظر الأهبة والجلال

وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء في مخالصهم البديعة كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلاً :

جَمَحَ الزمانُ فالذيدُ خالِصٌ      مما يَشوبُ ولا سرورٌ كاملُ  
حتى أبو الفضل ابنُ عبد الله رُوِّ      يتهُ المنيُّ وهي المقامُ الهائلُ

(المحامى) - قد أن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة

(عيسى بن هشام) - ولعلنا نمجدها بإذن الله في مكانها، فقد تعودت

التنقل من مكان الى مكان حتى أشبهت خيام العرب :

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبأ      مذيبي يوماً ويوماً بالخليصاء

ثم اقتربنا فوجدناها، وأقمنا في ساحتها ننتظر نوبتنا بين أرباب القضايا

حتى نودى علينا، فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة، فأخذ الاجنبيُّ

منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم تستوف مخارجها

فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكري بالضرب في

أثناء تأدية وظيفته في يوم كذا من شهر كذا والمتهم أنكر، وشهد المجنبيُّ

عليه ودل الكشف الطبِّيُّ على وجود علامات فيه للضرب والمحكمة

الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتي ١٢٤

١٢٦، عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لي هكذا تجرى

العادة هنا يأخذ مثل هذا القاضي الأجنبيّ عبارة الديباجة المذكورة في

الحكم الابتدائي فيجعلها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بعريتها بحروف  
أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته  
ومحل إقامته، وأشار إلى النيابة بالكلام فشرح النائب في شرح القضية على  
ما يوافق هواه. ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له في كلامه كما يكون في  
المحاكم الابتدائية (والسر في ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا  
أطلعوا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة إلى العلم بها من  
أقوال النائب فيتركوه وشأنه في التطويل والإسهاب) ثم أذن الرئيس  
بالكلام للمحامى مع الإيجاز، فابتدأ المحامى يسرد أقواله في أوجه الدفاع  
عن المتهم، وكما وصل إلى النقطة المهمة في دفاعه قال له الرئيس: «الموضوع»  
«طلباتك». ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس  
إلى أن كلام المحامى في عين «الموضوع» (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على  
تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك  
بقوله: «سمعت القضية والحكم بعد المداولة» فانتقلت الجلسة إلى حجرة  
المداولة، وخرجنا ننتظر، وسألت المحامى عن المدة التي تنقضى في المداولة  
فأجابني:

(المحامى) - لا تزيد مدة المداولة في الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) - وما هو متوسط عدد القضايا في الجلسة

(المحامى) - متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) - وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ماتحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوراق

(المحامى) - نعم تكفى عندهم وطالما اطلعنا على القضايا التي تعود من عند القاضى «الملخص» الى قلم الكتاب لاطلاع المحامين فنجد عليها رمزا بأحد هذه الأحرف : «ب» «ع» «ت» . فالبراءة إشارة الى البراءة والعين إشارة الى العقوبة والتاء إشارة الى تأييد الحكم الابتدائى . وانما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه فى القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة ، فاذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة ولكن لما كان القاضى الجنائى له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة وللتهمة حتى اذا استقامت لديه الأدلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى غيره ولا أن يكون الحكم مبتوتا فى القضية بأحد هذه الأحرف الثلاثة التي عنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده بيته مرّ السحاب

قال عيسى بن هشام - وبيننا نحن فى هذا الكلام اذ عادت الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لان التهمة وان كانت ثابتة عليه الا أنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة ، وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) - لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء ، لا يتحمل أعباء بطئه البريء . وكان الأولى في هذه المحاكمات أن تكون النهاية في البداية ، فلا يلحق من كان مثلي هذا الهوان والصغار ، ويقع به ما وقع من الحبس والعار ، بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام ، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام

(المحامى) - انى أهنتك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ، ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده . وقد مضى منى الدفاع وبقى عليك الدفع

قال عيسى بن هشام - وما زال المحامى عاكفا علينا يطالبنا بالأجر . والباشا يمدُّه لآخر الشهر . حتى يأتيه بعضُ خدمه وأتباعه . بمال من عقاره وضياعه . والمحامى يأبى التسوية والامهال . وإلا الدفع في الحال (المحامى للباشا) - أظن أن هذه الوعود . تقوم لدينا مقام النقود .

في بلد كثر فيه الإئفاق وزادت الضرورات . وقلَّ فيه الربح كما قلت المروءات . وصار الدرهم أعزَّ عند الأب من بنيه . وعند الابن من أبيه . ولقد تعبتُ في القضية تعبتين باللسان وبالجان . ولا أستريح منها الا بنقد الأصفر الرنان . وإنك لا تصرفنى - وإن كنت محمود الخاق - بالوعد . ولكنك تصرفنى - وأنا أحمد - بالنقد . وإنى لا أريد أن أسكن في بيت المتنبى :

أنا الغنى وأموالى الراعي

فلا نجعل الخلاص من قضية بقضية . والفكاك من باية بيلية . فذلك مالا يأتيه العقلاء . ولا يرتضيه الأمراء

قال عيسى بن هشام — ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلفظ . من  
شدة الحنق والتغيظ . وقتت بينهما وقفه الأريب . وتوسطت توسط اللييب .  
فنت بلطف الالتماس والرجاء . رضاء المحامى بالمهلة والإرجاء . إلى أن ينتقل  
الباشا من العوز والمسر . إلى الغنى واليسر . وقلت له ما يقال له في باب  
المروءة والهمة . من وجوب الحنو على من يقع في مصيبة أو مُلمة . وأنَّ  
مَنْ تَذَكَّرَ الدَّهْرَ وَغَيْرَهُ . وَالزَّمَانَ وَعِبْرَهُ . لَأَنْتَ عَرِيكْتَهُ . وَطَاوَعْتَ  
شَكِيمَتَهُ . وَبِئْسَ بَيْنَ صَعُودِ الْمَرْءِ وَنُزُولِهِ . وَإِشْرَاقِ سَعْدِهِ وَأَفْوَلِهِ . وَبَيْنَ  
غِنَاهُ وَقَفْرِهِ . وَصَفْوِهِ وَكُدْرِهِ . الْآمِسَافَةَ انْقِضَاضِ الْقَضَاءِ . مِنْ رَبِّ  
السَّمَاءِ . فَنظَرَ إِلَى الْبَاشَا نَظْرَةَ الْاِحْتِقَارِ وَالْاِزْدِرَاءِ . وَخَاطَبَنِي بِالْأَنْفَةِ  
وَالكِبْرِيَاءِ :

(الباشا) — لَبِئْسَ الْخَلْدَيْنُ أَنْتَ وَالْقَرَيْنُ . كَيْفَ تَسْمُنِي بِسِمَةِ  
الْفُقَرَاءِ . وَتَسْتَعْطِفُ عَلَى قُلُوبِ الضَّعْفَاءِ . وَأَنَا الْأَمِيرُ السَّرِيُّ . وَالغَنِيُّ  
الْمَثْرِيُّ . وَأَيْنَ مَا ادْخَرْتَهُ فِي عَمْرِي . وَكُنْتُمْ فِي عَمْرِي . مِنْ مَالٍ  
وَعَقَارٍ . وَفِضَّةٍ وَنُضَارٍ . وَقُصُورٍ وَضِيَاعٍ . وَزُخْرُفٍ وَمَتَاعٍ . وَلَقَدْ كَانَ  
يَضْرِبُ بِعَنَائِي الْمَثَلَ ، فَانْ كُنْتَ جَاهِلًا بِي فَسَلِّ . اذْهَبْ فَأَتِنِي بِخَبْرٍ مَا  
خَلَّفْتَ وَأَبْقَيْتَ . وَأَثْرٍ مَا جَمَعْتَ وَاقْتَنَيْتَ . وَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْكَ وَعَلَى الْمُحَامِي  
مَالِي مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَقَارِ . وَمَا قَضَيْتَ فِيهِ الْعَمْرَ مِنَ الْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ . فَانِّي  
يَشْهَدُ اللَّهُ مَا تَرَكْتُ حِيلَةَ . وَلَا أَغْفَلْتُ وَسِيلَةَ . فِي الْحُصُولِ عَلَى الْإِثْرَاءِ  
وَالغَنِيِّ . حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ كَثِيرًا مِمَّا تَفَرَّقَ عَلَى الْوَرَى . فَجَعَلْتَهُ عُدَّةً لَشِدَّةِ

أزرى . وأمانا لي من مصائب دهري . وتركته ذخيرة لأبنائي وحفدي .  
وميرانا لأعقابي وذريتي . ليكونوا من ذل الحاجة في جنة .<sup>(١)</sup> ومن نعيم  
العيش في جنة . وتركتم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد . رفيع  
الذكرى رفيع العماد

(المحامي) — إنا لنعلم ، يا معشر الأمراء والحكام ، أنكم قضيتم  
الاعمار في جمع الحطام ، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات  
وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة ، ولم تكونوا تعلمون  
للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم  
من دماء الأراامل والأيامى ، وانتراع الأوقات من أفواه الاطفال واليتامى ،  
وكنتم سواء عليكم أحرزتم المال من حله أم غير حله لم تبالوا بالضعيف المسكين  
ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البرى . وبرأتم الظالم فجمعتم لديكم من أثر  
ذلك مالا يقدر من الأموال ، ورضيتم بالوزر وطوقم أعناقكم بالإصر ، ثم  
حرمتهم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه وحرمتوها من كل ما حزتموه  
ولم تكونوا من الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولم  
تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق ، ولم تطهروها بركاة ، ولم  
تزكوها بإحسان ، وأطربكم رنين الدرهم فوق الدرهم وصمت الدينار مع  
الدينار ، وأبدعتم ما شئتم في وسائل وطرائق يأبأها الله لعباده وعمقتها ،  
ويستبشعها الألسان ويستفظعها ، لسلب ما سلبتموه وكنز ما كنزتموه  
بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، واجترأتم على الله في أوامره ونواهيه

(١) الجنة ، السرة وكل ما وقى من السلاح

وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم فأولوها لكم لانحصار الارزاق في  
أيديكم واحتياجهم الى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم ، فالوزر عليكم  
وعليهم ، ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل . حتى اذا انقضى العمر وحل  
الأجل تركتم ما خلقتموه لغلّة من أولادكم وصبايا من جواريتكم  
نشأوا بينكم على الحرمان ولم تُثقفوهم بالتعليم ولم تتركوهم للزمن يؤدّبهم  
وللأيام والليالي تهذبهم ، فكنتم في أعينهم كالرّصد الذي يكون على  
باب الكنز - كما يقال في الأفاصيص - يَحْتالون لنقله بقتله . فاذا  
استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم وفرقوا  
شملها في أدنى من لمحة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع ، فاهو  
الا أن يتسابق الدودُ والورثةُ في أحشائكم المدفونة . وأحشائكم المخزونة .  
فيسبق الورثةُ الدود . في الصدور والورود . فتذهب البذرة وراء البدره  
والضيعة بعد الضيعة والدارُ عقب الدار ، حتى اذا لم يبق الا بيت السكن  
أتوا على ما فيه من الأثاث يبعاً وما في أعناق الجوارى من الجواهر  
والقلائد رهنًا ، ولا يزالون يُخلون من البيت حجرة إثر حجرة والدائنون  
يدخلون فيه خطوة إثر خطوة الى أن يندكّ بناؤه ويمفوا أثره ويزول  
اسم بانيه الذي ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشيده ودوام بقائه  
وهو يُشيع منهم بالعتين في الحالتين حالة الخلاص منه بالتشييع الى القبر  
وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تشيف العلم بما كان ينفعهم في خشونة الفقر  
هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت اليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم  
ويا ليت أولادكم وأحفادكم خفقوا عليكم من الإثم في جمعها من دماء

المصريين بإنفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك منهم كدّ بعض الحق الى أهله ، ولكن البلاء كل البلاء انها ذهبت جميعها الى أيدي الأجانب والغرباء . وكان الدهر سلط الممالك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون أقاتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعه ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين ، والمصريون أو لى بالقليل منه . وما دَفَعَ بأعقابكم الى هذا اللين والتسليم الا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبي والاحتقار لجانب المصري وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً للمصريين حتى شاركتهم معكم الأجنبي في تلك الربوية فقلّبكم عليها وأشرككم مع المصريين في العبودية وتشابهت الموالي بالعبيد . وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار في أيامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وأبصارُ أعقابهم شاخصة اليها ، فان أردت أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحث عنها تحت نِقال (١) تلك الرحى ، وقلْ معي ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتي ثَمَرْتُ مَالِي وَإِنَّمَا لِيَوَارِثِهِ مَا تَمَرَّ الْمَالُ كَاسِيَهُ  
يُحَاسِبُ فِيهِ نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَرَكَ نَهْبًا لِمَنْ لَا يَحَاسِبُهُ

فِيَا عِبْتَ الْمَدْخَرَ الْجَامِعَ . وَيَا عَيْنَ الْمَكْتَنَزِ الطَّامِعَ . مَا كَانَ أَغْنَاكُمْ

عن الجمع والادّخار . وعن الحرمان في الدنيا والخلود في النار

(الباشا) - أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك في اللوم

والتعنيف وخرجت عن طورك في العذل والتعزير ، وكان بودى أن

(١) النقال ، جلد يبسط تحت الرحى والحجر الاسفل من الرحى

أعطيك أجرِك مضاعفاً ولا أشاهد منك هذه الجِرة علينا بسوء التفرِيع والتوييخ . وربما قلتَ حقاً في بعض ما تقول ، والرجاء في غفران الله عظيمٌ وفي رحمته متسعٌ ، ولعل ما تخلل أعمالنا في أيامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترناه من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة والاحتيايُ للتماس الرزق بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما تروى وتحكى . وما أرى لضيق من الفرج إلا أن أورد نفسي حتفها وأعيد لها حمامها فما أروح ما كنت فيه من ظلام الرمس <sup>(١)</sup> . وما أقبح ضياء هذه الشمس

(عيسى بن هشام) - ليس لمثل حالتكم غير الاسف منا والتوجع لكم فقد تمكن الاعتقاد في رؤوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم أحياناً من ولاية الأحكام هو قياس مطرد وصرط مستقيم لا مبلغاً لكم سواء في وجوه المساعي وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني أهلها منها شر الارتزاق والتكسب ، فاذا خلت أيديكم منها واعتزلتم الأحكام تقطعت بكم الأسباب وضاعت بكم السبل في وجوه المعاش كما تصاب يد الصانع بالشلل ، فيتعطل عن العمل ، ويصبح كلاً على كاهل الجميع يرجو الموت كما رجوت ويتمنى راحة العدم كما تمنيت . وكأنكم أيها الحكام صنف فوق أصناف الخلق لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون الآ فوق ذهب العرش

(١) الرمس . القبر

أوفوق خشب النعش . وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه  
وهو في ضيق الحبس . وضيق النفس :

ونحن أناسٌ لا توسطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

ومعلوم لك ما في هذه الصناعة صناعةِ الولاية والحكيم من قلة ما  
يرفعه الصدر وكثرة ما يضمه القبر . وكان الأولى بهم ان تكونوا كالناس  
في معاشهم لكل إنسان آلة يبتغى من صناعة أو حرفة أو مهنة يُحسن بها  
التعيش والارتزاق حتى اذا أتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم في بقية  
الأحياء من أفراد الجمعية تنفون وتنفعون

(الباشا) - تالله ان ما قاسيته من الآلام أمام البوليس والنيابة  
والمحكمتين واللجنة كان أقلّهما وأدنى شجناً من مرارة هذا النصح والوعظ.  
وما الرأي عندكم وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم يبق وقت  
للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن يجيء لا لمن يعجز  
قال عيسى بن هشام - فأحزنتني حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت  
أتدبر له وأتفكر في طريقة يتعيش بها ، وكلما خطر لي في ذلك خاطر  
خاب رجائي فيه حتى كدت أياس من الحيلة ، والباشا ينظر اليّ وأنا في  
تفكري تارة ويُطرق للتفكير في نفسه تارة أخرى . ثم رأيتُه قد انتفض  
من مكانه وأخذ ييدي يقول لي :

(الباشا) - قد وجدت والحمد لله باباً لسدّ العوز وكفاف العيش

(عيسى بن هشام) - ماذا وجدت

(الباشا) — كان من عادة الحكام أمثالنا في الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التي تقرّ بهم من الله وتمتق رقابهم من النار بعملٍ صالح اتفقوا عليه كافةً وهو إقامة بناء لجامع أو كتاب أو « سبيل » وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفاً عليه للإتفاق من ريعها على طول الزمان، وقد سلكتُ مسلكهم واتبعت سنتهم وخلفت لذلك وقفاً عظيماً لا تناله أيدي الأعداء بالإتلاف والتبذير، فهل معي نبحت على ما شيدته ووقفته

## الوقف

قال عيسى بن هشام - وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف  
للووقوف على تلك الاوقاف . ونسائل العابر وابن السبيل . عن المسجد  
و « السبيل » . ولا سؤال المجدب عن الروض . والظمان عن الحوض .  
فلم نجد من يرشد . إلى ما ننشد . وأخذ الباشا يتذكر الطرُق وأما كتبها .  
والأزقة ومسالكها . ويقول كان هنا وكان هنا . وجل ما يقضى به  
لهنا . وما زال يقاصر في خطواته . ويطاول من آهاته . ويكي لسوم  
الأطلال والديار . بكاء صاحب عزة<sup>(١)</sup> أو صاحب نوار<sup>(٢)</sup>

فأسألنّها واجمل بكاء جواباً تجمد الدمع سائلاً ومُجيباً

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب . وتردادِ الحىء والذهاب .  
الى منمطف مضيق . فى منتهى الطريق . فوق الباشا هناك قبالة دور  
مهدمة . وجدران محطمة . ومسجد فى ناصية منه حانوت خمار . وفى  
زواية منه دكان عطار . وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف . مختلفة  
الأصناف . فطفق الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه . ويخطىء حدسه  
تارة ويصوبه . فهده طول النظر والتدقيق . وشدة الإمعان والتحقيق .  
أن رأى شيخاً فانياً متربماً فى دكانه . متحيزاً بمكانه . عليه علامات الانحلال  
والسقوط . وشارات الخذلان والقنوط . وسيا الرضاء بالمقسوم . والتسليم

(١) عزة ، هى التى كان ينتسب بها كثير الشاعر

(٢) نوار ، هى امرأة الفرزدق التى كان ينتسب بها

للقضاء المحتوم . له جبهة كأنها من ورق البردي العتيق . تلو فيها مادونه  
الدهر من آيات الشدة والضيق . نخرج الباشا في الحال من حال المتحير  
المتردد . الى حال الواثق المتأكد . فنأدى صاحب الدكان عن بعد . نداء  
السيد للعبد . فاتفض الرجل انتفاضاً عجيباً ، وقصده ملبياً ومجيباً . فاشككت  
من هيبة النداء وأدب التلبية . إلا أن ملكا ينادى أحد الحاشية . ووقف  
الرجل أمامنا وقفة الممثل الخاضع . والمطيع الخاشع . فقال له الباشا بعد أن  
حدّد فيه نظره . واستجمع فكره :

(الباشا) — ألسنت أنت أحمد أعما الركبدار الممدود من أهل  
حاشيتي ، ألا تعرفني من أنا

(صاحب الخانوت) — لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع  
بين ظهر الأرض وبطنها لقلت إنك سيدى وأميرى ، ويشهد الله اننى  
كلما أمعنتُ فى وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى ويندهش لى  
لاستحكام الشبه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) — انى أنا سيدك وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى  
من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من أيام السباق والرهان  
(وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة ، فوقع الرجل منكباً على  
الأرض من شدة الدهشة يُقبّل قدم الباشا ويفسها بمنحدر الدموع ويقول  
فى بكائه وشيخه ) :

(صاحب الخانوت) — كيف بالحياة بعد المات ، لحق أنت احدى

المعجزات . وليس ما أراهُ بغريب فقد شاهدت في هذا العمر الطويل ما لا تحيط بوصفه الأقلام ولا تنسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب ، فلا يبعد بعد ذلك ان تُشرق الشمس من مغربها وتُخرج الارضُ أمواتها من مقابرها

قال عيسى بن هشام — فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والحيرة ولا تغرب في الاستغراب والتعجب :

على أنها الأيامُ قد صرْنَ كأنها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ  
واعلم أن القدرة لا تعجز عن شيء في الوجود ولا تحيط بها العقول ،  
ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية ، فصاح الرجل يبكي ويتضرع  
ويقول ليت أُمي لم تلدني ولت القدرة التي بعثت الأمير من بعد موته  
نشرت معه زمنه وأعدت عصره ، وإلا فكيف له بالعيش في هذا  
الزمن ، وما أولاهُ بالعودة الى أدراج الكفن .

ثم التفت الى الباشا وشرع يقص عليه ما مرَّ به من الحوادث  
والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقتة من النوازل والخطوب :  
(صاحب الخانوت) - ولم يبقَ لك أيها المولى من أثرٍ يُذكر في  
ثروتك ومتاعك ، وأملاكك وضياعك ، وقد عشتُ دهرًا وأنا متمتع  
بربع ما وقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا المسجد  
والسبيل والكتاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك ، فما لبث الوقف أن  
تهدم وتخرَّب بطول الترك والإهمال فوقعنا كلُّنا في الفاقة والاحتياج

وانقلب الكتاب مخزناً والسبيلُ خماراً والمسجدُ مصبغةً كما نشاهد  
وترى ، وأصبحت أنا ييطاراً بعد أن كنت « ركيداراً » وأخذتُ هذه  
الخانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها ، وسبحان مقلب  
الأحوال ، ومبدل الأشكال

(الباشا) - ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره  
(البيطار) - آخر العهد عندي كان بواحدٍ منهم ذهبْتُ إليه لأجل  
هذه الخانوت وأعلمتهُ بمكاني من أهل الحاشية فاتهرنى وطرذنى ، وأبعدنى  
وزجرنى ، ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح فترددت عليه مراراً فتخلص  
من ثقل إلحاحى بإحالتى على رجل افرنجى عندهُ يدبر له ما بقى لديه من  
ثروة نصبتُ عينها ، ونزحتُ بثرها ، فأحالتى الافرنجى على صاحب الخماره  
لأنهُ أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس  
يجسر أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير إرادته خوفاً من الخصومة فى المحاكم ،  
فقصدت الخماره وافقت معه على أجره معيَّنة ، وأقت فى هذه الخانوت  
أصرع الدهر ويصرعنى ، وأطلب القوت ويعوزنى ، وأتعجل الأجل ويمهئنى  
وتعالى الله المنفرد بعزته ، المبدع فى حكمته

(الباشا) - وأين هذا الولد العاق المخالف لإرادتى ، وهو يعلم أن  
شرط الواقف كنص الشارع

(البيطار) - هو مقيم الآن فى « الاوتيل »

(الباشا) - وما الأوتيل

(البيطار) - « اللوكاندة »

(الباشا) - وما « اللوكاندة »

(عيسى بن هشام) - « الأوتيل » هو بيت معروف بمدونه

لتزول مَنْ لا بيت له من الغريباء على أجر معين ، وهو في المعنى كالتخان الذي تعرفونه في زمانكم

(الباشا) - هل وصل التدن بهذا الخائن إلى سُكْنَى الخان، وسبحان

مصرف الأحوال ومغير الأزمان . وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعى الى الحياة على مالا أرغبه ولا أرضاه . تعذيباً لى على ما فرطت فى جنب الله . أو لم يكن عنده سبحانه فى الآخرة من عذاب النار . ما يغنى عن التعذيب بالعار . فى هذه الدار . ربّ إن الجحيم لأهونُ علىّ فى العذاب والنكال . مما ألقىه من الرزية فى المال والعيال :

فليت وليدأ مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

(عيسى بن هشام) - ليست السكنى فى « الأوتيل » اليوم عن ذل

وفقر . بل هى عن عز ويسر . فان النفقة فيه عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر . على أكبر قصر . بجواريه وخدمه . وأتباعه وحشمه . وقد دعا أولادكم الى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للاجانب وإتقان الاقتداء بهم ، والسعيد المنعم من أولاد الامراء اليوم من يبيع عقاره ويرهن ضياعه لتيسر له الإقامة فى هذا الخان ، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله

فِيؤْتِي لَهُ بِالطَّعَامِ مِنْ « الْأُوتِيلِ » إِلَى الْبَيْتِ ، وَعِنْدَهُ الطَّبَاخُ فِي أَسْفَلِهِ  
وَالْجَوَارِي الطَّاهِيَاتُ فِي أَعْلَاهُ

(الباشا للبيطار) - أرجوك أن تصف لصاحبي مكان « الأوتيل »

الذي يسكنه ذلك الغلام فإنّ بي حاجة الى لقائه

(البيطار) - كيف تخاطبني أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر

في خدمتك أن تأمرني بما تشاء وهل تظن أنّي أفارق ركابك أو أزيّل

معيتك مهما تقلبت الأحوال وتبدلت الأزمان ، فهلمّ منك الامر والاشارة

وعلى السمع والطاعة

## ابناء الكبراء

قال عيسى بن هشام - ودعاني الباشا للسير معه . وهو يكفكف  
أدمعه . وتبعنا البيطار من خلفنا بحُطاه الثقيلة . وعصاه الصقيلة . فقد  
صقلها طول التوكأ والاستعمال . وتَمَزَّى بها في السير والانتقال . عن  
ظهور الخيل ومتون البغال . إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة .  
من الفنادق الشهيرة . فهاه الباشا ما رآه من ضخامة البناء . ونخامة المنظر  
والرؤاء . وما لقيه من أدب الخدم والأعوان . ورشاقة الوُصفاء والغلمان .  
فتخيل أننا أخطأنا الابواب والمداخل . فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء  
أو القناصل . وتقدمتُ للسؤال والاستخبار . وقد خَافْنَا البيطار في  
الانتظار . فدلنا أحد الخدم على رقم المكان الذي يسكنه الأمير . بعد  
طول التردد والتفكير . فما وصلناه حتى دَفَعَ الباشا بيديه دَفَّتِي الباب .  
لم يلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب . فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد  
الأمراء . وأعقاب الكبراء . مختلفين في الجلوس . حاسرين عن  
الرؤوس . فقريق منهم عاكفون على لعب القمار . وفريق ينظرون  
في صور خيل المضمار . ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نَصَفِ  
لا عجوز شوهاء <sup>(١)</sup> . ولا فتاة حسناء . تجتلب الحسن بإفراط التائق  
والتفنن . في وجوه التصنع والتزين . فيكاد يضيء وجهها بسنن العقود  
والقلائد . ويتلأأ جبينها بلألأ الجواهر والفرائد . وفي وسط

(١) النصف ، المرأة الوسط بين الحديثة والمنة

المكان مائدة عليها صنوف الراح . في الأباريق والأقداح . وبجانبها  
مِنْضَدَةٌ (١) . عليها آنية مِنْضَدَةٌ . وفوقها الدواة والقرطاس . وبراءة  
مرصعة بالماس . وكتبٌ أعجمية موشاة بالذهب . لأدرى إن كانت  
في اللهو أم في الأدب . وعلى الأرض أوراقٌ أحكامٍ منشورة . وجرائدُ  
تحت الأقدام منشورة . لم يُفضض عنها «ظرف» . ولم يُقرأ منها حرف .  
وسمناهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون اللغة التركية أو العربية .  
الآ ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد أن يبدلوا القاف . بالكاف .  
وينطقوا بالحاء . كالهاء . ولما رأونا ظهرَ منهم العبوسُ والقطوب . وبدا  
عليهم اقتباضُ الصدور والقلوب . وانبرى من جانب المرأة شابٌ فأسرع  
نحو الباب . فخاطبنا بعبارة فرنسية . ولثمة باريسية :

(الشاب) — كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) — دعا الى ذلك شوقُ الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) — لست أفهم لك كلاماً فصَّرَحَ لى وبيَّئُ

(عيسى بن هشام) — فلان يسأل عن فلان

(الشاب) — إني أنا فلان ولكن من فلان الذى يسأل عنى

(عيسى بن هشام) — هو جدك الأكبر أحياء الله بعد مماته

وبمته من رقادته وكان من أمره انى كنت أزور المقابر ذات يوم من

الأيام . . . . .

(الشاب) (مقاطعاً مستهزئاً) — اذهب عنى فليست أسمع لهذا الكذب

(١) المنضدة ، شئ له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت

وَالْخَرَفَ وَلَيْسَ لِي الْيَوْمَ مِنْ جَدِّ وَلَا وَالِدٍ وَلَا أَنَا مَنْ يَصْدُقُ بِحَدِيثِ  
الْبَعْثِ فِي الْآخِرَةِ فَكَيْفَ يَرْجِعُ الْمَوْتِيُّ إِلَى الدُّنْيَا . تَعَالَوْا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ  
فَاعْجِبُوا مِنِّي وَاصْحَكُوا مِمَّا أَسْمَعُهُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَخَاطِبُنِي وَانظُرُوا  
إِلَى هَذَا « الْبَاشْبُوزِقِ » الْغَلِيظِ الَّذِي يَجَانِبُهُ فَهُوَ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ آبَائِي  
وَأَجْدَادِي بَعَثَهُ اللَّهُ لِيَطَالِبُنِي فِيمَا أَظُنُّ بِمَا وَرِثْتُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَيَنَازِعُنِي  
فِي نَظَارَةِ الْأَوْقَافِ . فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِأَعْجَبٍ مِمَّا أَصْبَحْنَا فِيهِ الْيَوْمَ لَمْ يَكْتَفِ  
الْدهْرُ بِتَكْدِيرِ عَيْشِنَا وَتَعْكِيرِ حَيَاتِنَا بِمَطَالِبَةِ أَرْبَابِ الدُّيُونِ حَتَّى بَعَثَ  
الْأَمْوَاتِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِيَطَالِبُونَا بِمَوَارِيثِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، أَلَا تَرَوْنَهَا أَيُّهَا  
الْخَلْلَانُ إِنَّمَا أَبْدَعَ نَكْتَةً فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ

قال عيسى بن هشام - فاستغرق الجميع عند ذلك في الضحك  
وامتلقوا من القهقهة وكلمنا سألني الباشا عن مكان حفيده واستفهم مني عما  
يجري مني من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيء مما  
يقال ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم  
نادوا بالخاصم ليأمره بطردنا وإخراجنا . وحانت في هذه الاثناء إلتفاتة  
من الحفيد بين دورانه وحركاته فلمح أحدا قرنائه واخوانه قد انزوى  
بتلك الخلية . التي هي عندهم كالخليلة . يلاعبها وتلاعبه . وينازلها وتداعبه .  
فانقضَّ عليهما كالصقر الأجدل فاستقرَّ بينهما الجدال واشتد الخصام  
والتفَّ حولهم الجمع ، وسمعت الحفيد يعتب ، والصاحب يعتذر ، والمرأة  
تبكت وتوثب وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة في

العتاب والملام، ولا يأتي ما نأثيه من الحدة والتهور في الغيرة إلا من كان قائماً بحاجتي محبباً لرغبتى، وقد طلبت منك بالأمس أن تشتري لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من أوروبا فى البريد الأخير فسوّفت وماطلت بعد ان أجبته ووعدت، واعتذرت بالإعسار والضيق، ثم بلغنى اليوم انك اشتريت فرساً جواداً بمقدار عظيم من المال، فكيف تقصّر فى حاجتى مثل هذا التقصير وتبغى منى الاقتصار عليك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من أصحابك وإخوانك»

ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع أنفاسه: «تالله ما اشتريت شيئاً ولكن بعتُ أشياء لأشترى لك العقد بثمنها، ولا يفرّك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنيء الخائن وعن قلة أموالى ورهنِ أطياني فانتِ تعامين بمقدار الأموال التى ستأتىنى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين»

وما سمع ذلك الصاحبُ سبّهُ بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب. وثارت به سورة الغضب. فتقدم فلعنه وشتمه. ودفعه ولطمه. فوعده الملعون الملطوم. بالمبارزة فى يوم معلوم

ثم علا هناك صياحٌ أيضاً فى مجلس القمار بين صديق وصديق. أحدهما فى يسر والآخر فى ضيق. وأخيراً يبنى الاقتراض من أخيه:

ومفلسٍ يطالب مُيسراً بدَيْنٍ لا يؤدّيه . وانكشفَ الجدل كذلك  
عن الضرب والسك . وانهى النزاع بالصنع والطم  
واشتبك خصام آخر في ركن المكان . بين أهل السبق والرهان .  
هذا يقول فرسى سابق . وفرسك لاحق . وذلك يقول « ركبدارى »  
حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادى شاهق . وأنت الآن مقرّ  
معترف . بأن الوزن بينهما مختلف . واشتدت المنافسة والمنازعة . وجرى  
بينهم حديث للمبارزة . كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة الى أخرى .  
تسحب الحية والأفعى . فتطفىء نار الجدل مرة على حسب بنيتها .  
وتشعلها طوراً تلجث بنتها .

ورأيت الأجدد بنا أن تتركهم على هذه الحال ، فغذبت بضبع  
الباشا وخرجنا من ذلك المكان ، وأسرعت به منحدرًا الى الطريق .  
فسألنى عن تفصيل ما كان وجرى ، فترجعت له شرح الحال والمآل ،  
فاحتدم غيظه واضطرم جنته فلم يطفئه إلا ما قلته له في آخر الحديث من  
عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح . فقال وهو يتابع زفراته : لعل  
القدرة تكشف عنى هذا المصاب . وتريحنى المبارزة من الأبناء والأعقاب ،  
فقلت فى نفسى إن أبناءكم لم يرثوا منكم اخلاقكم ، كما ورثوا عنكم أموالكم  
وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والأحساب .  
ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب . ولا يابهون لكشف  
العار . وأخذ الثار . والمبارزة عندهم كلة تقال بالليل وتُحجى بالنهار

وتذكّر الباشا في طريقه شدة حاجته الى وفاء ما عليه من الاجر  
للحامي فالتفت الى البيطار يسأله :

(الباشا) - هل بقي أحد ممن كانوا حولي من الخُلطاء والأقرانِ

أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروّة

(البيطار) - لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) - إبدأ بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم

قال عيسى بن هشام - فسرنا الى حيثُ أشار والهمومُ تفرسناً .

والنعمومُ تُخرسناً . والاكدارُ لا تفارقنا . والاقدار لا توافقنا

---

## كبراء العصر الماضي

قال عيسى بن هشام - ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه . وبقية أخلائه وأصدقائه . فاتتهى بنا طول السير . الى بيت ذلك الأمير . وكأنه ميدان فى اتساعه . وحصن فى ارتفاعه . ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلم على الخدم وحيّام . ثم سأهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتعجب والعبوس . أنه فى قاعة الجلوس . نخطونا فى بجبوحة الميدان . فرأينا فى وسطه شجرة كثيفة الأغصان . حتى قوامها تقام الأزمان . كأنها الثكلى حلت شعورها فى مآثم الأحزان . وفى ظلها فرس يجن من النشاط والمراح . ويجانبه كبش ضان للنطاح . وحوالهما ديك نزال وضراب . ظناً يدها مسنونة كالخراب :

فَحَمْرٌ وَسُودٌ حَالِكَاتُ كَأَنَّهَا

سَوَامُ بَنِي السَّيِّدِ اَزْدَهْتُهُ الْقَوَائِمُ<sup>(١)</sup>

يُرَانُ لَدَيْهَا الطَّمَنُ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى

إِذَا زُرَيْتَ لِلْعَاجِزِينَ الْهَزَامُ

وَفِيهَا إِذَا مَا ضَيَّعَ النِّكْسُ غَيْرَةً

نُصَانُ بِهَا الْمُسْتَصْحَبَاتُ الْكِرَامُ<sup>(٢)</sup>

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان . فسيحة الأركان . فى أحد

(١) السوام ، الابل الراعية ، وبنو السيد ، قبيلة تكثر فيها الابل السود والحمر

(٢) النكس ، الرجل الضعيف الدنى

جوانبها سلسبيل . يسيل مأؤه من أفواه التماثيل . والارض مفروشة  
بالبسط الفارسية . وبجلود الضواري الوحشية . والحيطان مستورة  
بأنواع السلاح . من خناجر وسيوف ورماح . وفوقها عدة صفوف .  
من الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأواني الصينية القديمة .  
مع عيدان للتدخين : من أغصان الياسمين : نخلنا نعالنا . وتقدمنا أمامنا .  
فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين . مُنصتين مستمعين . يُضِيء  
في وجوههم نور الشيب والوقار . وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار .  
فانقطع الحديث عند دخولنا . برد سلامنا . ولكن ما لبث أن اتصل  
ما انقطع من الكلام . بعد رجوع التحية ورد السلام

ولما استقر بنا المكان همست في أذن البيطار أن ينبئني بأسماء  
الحاضرين ، فقال لي : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو  
رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم الخديوي ، وقد اعتزل الأعمال  
واعتكف في آخر عمره يتعبد وتهجد ويسلك طريق النسك والزهد  
ويتقرب الى الله بدوام القيام والعود ، وطول القنوت والسجود ، وله  
أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ وقوام أهل  
الطريقة وطواف الآفاق من سكان الأماكن المقدسة رجاء أن يغفر  
الله له ما تقدم من الذنوب وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه . وأما الذي  
عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء الكرام ، في « مجلس  
الأحكام » . والذي عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام والمشايخ العظام .

وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادي المشهور في الوقائع والفتوح. والذي بعده هو فلان من كبار المديرين السابقين. وأما الذي تراه في أخريات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلي

قال عيسى بن هشام - ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرفته نظرت إلى الباشا فأدركت أنه لا يعني المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم، فانصت مع المنصتين فإذا الفريق الجهادي يقول في اتصال حكايته وروايته :

( الفريق ) - وكان « جتمكان » محمد علي باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره في الدهاء وعلو الهمة وبُعدِ النظر وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والأمانة لخدمته ، فكان له من الكفاة من خدموه بالصدق وافتدوه بالأرواح ، وأذكر منهم المرحوم « محمد بك لاظ أوغلي » فهو الذي دبر له قطع دابر المماليك في ساعة واحدة . وقد حكى لي المرحوم أخي وكان حاضراً في تلك الواقعة الهائلة أن المماليك لما رأوا أن المكيدة في استئصالهم قد استحکم عقدها واشتد رباطها وأنهم أحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد علي في كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص منه فلم يقفوا له على أثر وأعيام البحث والتنقيب لأن « لاظ أوغلي » أخفاه عنهم شديداً الإخفاء وقام له في ذلك الوقت - إن جاز التشبيه - والتمثيل - قيام علي بن أبي طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة.

(عضو الأحكام) - نعم وكان المرحوم محمد علي فوق ما يقال وما يُتصور في دقة سياسته لتربية الرجال في خدمته فكانوا كلهم طرازاً واحداً في حسن الولاء وجميل الإخلاص وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمته طول حياته . ومن ذلك ما حكاه لي صديقنا المرحوم راعب باشا قال : « كنت أقرأ بين يدي المغفور له أوراكا وأنا يومئذ كاتبٌ من كتبة معيته فدخل علينا سامي باشا في أثناء القراءة ووقف معنا ، فسأله محمد علي عما يريد ، فقلتم تلعم المتطلع لخروجي حتى ينفرد به فيعرض عليه ما عنده ، فقال له : قل ما عندك في الحال فاني لا أخفي عن « راعب » سراً من أسراري ، ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلي وذريتي وبين كتبة معيتي »

فهل تعلمون يا قوم انه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس وجذب القلوب الى النصح والولاء في الخدمة إنعام بضياع أو إحسان بأموال أو تقليد لرتبة أو نشان . وانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله . وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو له الملك ويطيّب له الحكم

(الشيخ العالم) - أصبتَ وصدقتَ وقد اطلعتُ في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للمنصور العباسي تدل على براعته ودقته في صناعة الملك وهي أنه كان يأكل ذات يوم ويمجانبه ابنه مع شيخ من

قواد جيشه ذهبت أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فمه بعض الفتات وهو يأكل والأميران يتغامزان عليه ، فالتفت اليهما الخليفة فرأى ما بينهما ، فمدّ يده فجمع ما سقط من ذلك الفتات فأكله ، فقام القائد يقول له : لم يبق إلا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين فأمرني بما تريد »

(المدير السابق) — وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمعفور له

محمد علي تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الأهالي وشفقته على الرعية وهي أن أحد المديرين أراد أن يفوق اخوانه في الخدمة لينال مكانة عالية من أميره فجدّ في تحصيل الأموال وتعالى في طريقته فأخذ ما عند الأهالي من المال جملة واحدة ، فضجّ ضجيجهم واشتدّ صياحهم حتى بلغ مسامع وليّ النعم ، فأمر بإحضار المدير فلما وقف في حضرته قال له : اذنُ مني . فلما دنا منه أخذ بعنقه في قبضة يده وصار ينتزع من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة حتى جمع في قبضته خصلة من الشعر والمدير لا يجد لذلك من الألم الا أثرًا خفيفًا ، ثم ان الأمير انتقل الى حية الرجل فانزع منها خصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصلة المتفرقة فنبع من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم ، فقال له محمد علي « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية في جباية الأموال ، اذا أنت أخذت من هبنا درهماً ومن هبنا درهماً آنا بمدّ أن خفّ الوقع على الاهالي ولم يدركوا الألم وحصلت منهم على مثل المقدار الذي تأخذه جملة واحدة في وقت واحد مع شدة الألم

كما رأيت الفرق بين انتراع الشمرات متفرقات وبين انتراعها مجتمعات  
والكمية واحدة والألمُ بينهما مختلف ، فأياك أن تعامل الناس بعد اليوم  
بما يلجئهم الى الشكوى وبعينهم الى الاستغاثة  
( الشيخ العالم ) منشداً - :

. فلا تُكثروا ذكرَ الزمان الذي مضى

فذلك عصرٌ قد تَقَضَّى وذا عصرٌ

ورحم الله الماضي وأعادنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل واني  
لأراكم أيها الأمراء مهما أسهبت في محاسن المنفور له وأفضاله . وأظنبتم  
في حميد أخلاقه وخصاله . فليستم بيالني حق الشكر . ولا موفين يجميل  
الذكر . ويكفيه من الحسنات التي يُعني ذكرُها عن الإجمال والتفصيل .  
وتحکم له بالسبق في باب التمييز والتفضيل . أنه كان يقرب العلماء  
ويعظمهم . ودينهم منه ويكرمهم . ثم يَقضي حاجاتهم . ويتبرك  
بدعواتهم . ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحکم له في أخراه . بأن له جانباً  
مع الله . وأنه نال جزاء الاحسان . بسكنى فراديس الجنان

قال عيسى بن هشام - وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من أهل  
مكة المعروفين بالمطوفين أو الزورين فتقدم الى رب الدار فقبل يده والى  
الشيخ العالم فلم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير  
الأخضر وجزءاً من التمر ومشطاً ومكحلة وسُبحة وشيثاً من الحناء ، ثم  
قرأ الفاتحة وخاطبَ الأمير بقوله :

(المكّي) - قد جئتكم أيها الأمير بالقطعة التي أمرتني بإحضارها  
من الكسوة الشريفة وأتيتكم بجزء من تمر النخلة المباركة التي غرستها  
الزهراء البتول بيدها الكريمة

(الشيخ العالم) - بعد أن ذاق التمر واستطابه - إيه إيه صدقت  
أيها الرجل ومن كان صاعماً فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة

قال عيسى بن هشام - فرأيت الباشا يتأفف بجاني ويزجر .  
ويتلمل ويترضج . ويهم بأن يتكلم ، فالتفت صاحب الدار عند ذلك  
الى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر . فتقدمت له بشرح  
القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه الى الدنيا  
فمنهم من صدق ومنهم من كذب فتنحج الشيخ العالم وأشار فيهم  
باشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) - اعلّموا أنه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق  
حصر ، ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن  
اليقين . أن ننكر بعث الدفين . والرجوع الى الدنيا بعد الفناء . أمر  
معلوم بلا امتراء . تخص القدرة به من تشاء . ببركة الأصفياء والأولياء .  
وأقرب ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب « مناقب تاج الأولياء  
وبرهان الأصفياء للقطب الرباني والغوث الصمداني السيد عبد القادر  
الكيلاني » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر في « رسالة حقيقة الحقائق » ان امرأة غرق ولدها في

اليَمَّ وجاءت الى العوث الأَظْم وقالَت : ان ولدى غرق في البحر واعتقادي جازمٌ بأنك تقدر على رد ولدى الى حيا . فقال لها رضى الله عنه : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى بيتك ، فراحت ولم تجده . فجاءت ثانيةً وتضرعت فقال لها العوث أيضاً ، ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى بيتك ، فراحت ولم تجده فجاءت نالثة بالبكاء والتضرع ، فراقب العوثُ وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى البيت . فراحت ووجدت ولدها فى البيت ، فقال العوث الأَظْم بطريق المحبوبة : يارب ليمَ أخرجتني مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : ان كلامك حين قلت لها كان صدقاً ، فى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاء المتفرقة وفى المرة الثانية أحييته وفى الثالثة أخرجته من اليمِّ وأوصلته إلى دارها ، فقال العوث : يارب خلقت الأكوان بأمر « كُنْ » ولم يسبق زمان ولا آن وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لانهاية لها وتحشرهم فى طرفة عين ، وجمع أجزاء جسد واحد وإحيائه وبعثه الى دارها شىء جزئى فما الحكمة فى هذا التأخير ، فجاء الخطاب من الرب القدير . اطلب ما تطلب فقد أعطيناك عوضاً من انكسار قلبك ، فتضرع العوث ووضع وجهه على التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يلىق بى الطلب وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقتك يلىق بك العطاء ، فجاءه الخطاب . كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً ، وإذا نظرت الى التراب يكون ذهباً . فقال . يارب

ليس لى نفع من هذين أعطى شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلتُ أسماءك مثل اسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ إسمًا من أسماءك فهو كمن قرأ اسمًا من اسمائى »

وروى فيه أيضا عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : «توفى أحد خدام النفوس الأعظم وجاءت زوجته الى النفوس فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه النفوس الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم ، فقال يا ملك الموت قف وأعطى روح خادمى ( وسماه باسمه ) فقال ملك الموت : انى أقبض الأرواح بأمرى إلهى وأؤديها الى باب عظمته كيف يمكنى ان أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى ، فكرر النفوس عليه إعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم . فبقوة المحبوبة جرّ الزنبيل وأخذه من يده فتفرقت الأرواح ورجعت الى أبدانها ، فنادى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليّك عبد القادر فى قوة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الأرواح فى هذا اليوم . فخاطبه الحق جل جلاله : يا ملك الموت إن النفوس الأعظم محبوبى ومطلوبى لم أعطيتهم روح خادمه وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد ، فتندم هذا الوقت »

قال عيسى بن هشام - وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت  
الباشا قد انتفض قائماً يقول لهم والغضبُ بادٍ على وجهه والغيظُ يتقد  
في صدره :

(الباشا) - اعلّموا أيها الاخوان أن مغفرة الرحمن وسكنى الجنان  
لا تُنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن بالأوراد  
وما تُكتسب الدرجة الرفيعة عند الله الا بالعدل والاحسان وفعل الخير  
 واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله . وقد غرني  
 في دنياي ما يفرمك الآن فكنت أسمع قبل مماتي من مثل هذا الشيخ العالم  
 ما يهون على ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكباناً  
 على نهارٍ أصومه . وليلٍ أقومه . وحرزٍ أحمله . وأثرٍ أقبه . فنت عن  
 عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف ، فلما توفاني القدير العليم وسكنتُ  
 في حفرة القبر علمت ما لم أكن أعلم فلم يفنى ذلك وحده من الله شيئاً  
 وما خفف على أهوال القبر وهوّن على سؤال الملك الاحسنة واحدة  
 كنت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرته وهو في يد الجلاد بين  
 السيف والنطع<sup>(١)</sup> . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى الله في عباده  
 وإفشاء البر والمعروف في خلقه ، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء  
 فتركنوا الى الاغترار بالأمل . وتطلبوا المغفرة بلا عمل . بل استكثروا  
 من الخير قبل حلول الأجل . وتذكروا قول الله الأجل : « ومنّ

(١) النطع بالفتح والكر ، بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس

يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » واعتبروا بقول علي رضي الله عنه :  
« كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظماء وكم من قائم ليس له  
من قيامه الا السهر والعناء » . واسمعوا لقول حكيم الشعراء :

ما الخيرُ صومٌ يذُوبُ الصائمون له

ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدِ

وانما هو تركُ الشرِّ مُطَرَّحًا

ونَفْضُكَ الصِّدْرَ من غِلٍّ ومن حَسَدِ

ولا يستقيم امر المسلم الا اذا جمع بين فرائض العبادات وحسن

المعاملات

( الشيخ العالم ) - إني لا أخالك أيها الرجل شيطاناً في زيّ انسان

وزنديقاً يتستر بدعوى النشور من القبور . تمسك لهذا الزمن ما أكثر

أضاليله، وبؤسا له ما أعظم أباطيله ، ولم يبق علينا من مُدْخَرَاتِ عجايبه الا

أن يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى وبما سمع

( صاحب الدار للبasha ) - سألتك بالله أن تخبرني بأية لفة كان سؤال

الملكين لك ، أبالربية أم التركية أم السريانية فان هناك اختلافاً وأقوالاً

بين العلماء

( الشيخ العالم ) - ناشدتكم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا

تخاطبوه فانه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال عيسى بن هشام - فلم يسع البasha إلا الخروج من هذا المجلس

وهو يهدر وَيَغْلِي وَيَسْتَعِيد وَيَسْتَعْدِي ، فأنخرطُ وراءه وأنا أذكر  
قول عمر رضى الله عنه في مثل هذا الشيخ الغليظ البدن : « ان الله يكره  
الحَبْرَ السمين » وأردد قول أبي تراب كرم الله وجهه : « أشكو الى  
الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً ليس فيهم سلعة نُورَ  
من كتاب الله اذا تلى حق تلاوته ولا سلعة أنفقَ بيعاً وثمناً من  
الكتاب اذ حُرِّفَ عن مواضعه ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا  
أعرف من المنكر »

ولحِقَ بنا البيطارُ في خروجنا ومعه التاجر الندى كان مقبياً في  
المجلس يناديانا ، فوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على يده يقبلها  
ويقول له :

( التاجر ) - أشهد الله أيها المولى أننى مصدق بأمرك وليس بعد  
العيان من برهان وما أخطى ، نظرى فيك فأنت سيدى الباشا بعينه  
وأنت صاحب اليد التى أتذكرها طول عمري . وما بي من نعمة فنك ، وما  
أصبحت فيه من ثروة فيمينك وفضلك ، ولست أنسى أن أصل شهرتى  
واتساع تجارتي هو أنك جلست فى دكاني مرة عند ما عثرت بك رجلك  
وأنت تقصد زيارة الحسين فارتفع بتلك الجلسة قدرى واشتهر ذكرى  
وأقبل على الناس من دون التجار لتوهمهم فى أن لى برحابتك صلة  
وبجانبك نسبة فأصبحتُ ولله الحمد فى غنى ومال كثير ، وقد بلغنى  
من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة الى الدراهم لأجرة المحامى التى

جاءت بك الى هذا المجلس ولسكنك أنفت من ذكرها عند ما غضبت  
لله. وأنا أنضرع بحالق الخلق أن تتنازل فتقبل منى ما تسد به حاجتك  
وتتخلص به من مطالبة المحامين

(وأخرج التاجر كيساً مملوياً فقدمه الى الباشا وهو يرتعد من خيفة  
الرد، فأخذ الباشا وقال له) :

(الباشا) - إني أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله  
لك حسن الجزاء فلم أكتب لك صكاً بالمال لأردّه اليك عند استرداد  
أوقاتي

(التاجر) - حاشا لله ان أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا  
لا يثق بعضهم ببعض ، فلا يأمن الأَخُ أخاه ولا الوالدُ ولده ولا  
الصاحبُ صاحبه ولا الجارُ جاره على درهم واحد الآ بعقود وصكوك ،  
بل أنا لا أزال من أهل ذلك الزمن الذي لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم  
بغير الثقة والاطمان دون احتياج الى تحرير الأوراق وتسطير الصكوك .  
وما يكون الاستيثاق الا عند توهم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام - فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال  
لى : انصرف بنا الى المحامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب الى المحكمة  
الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا  
بحقنا . فما نخرج من قبضة محام . الآ الى قبضة محام . ونأل الله السلامة  
فى الختام

## المحامى الشرعى

قال عيسى بن هشام - وأخذتُ طريقى . مع رفيقى . أنشدُ صاحباً  
أسترشده . فى محام شرعى أقصده . وبيننا نحن نسير . ونسأل الله التيسير .  
إذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ما خطبُك ، قلت قضية . فى  
المحكمة الشرعية . فاطرقَ الخبرُ سمعه . حتى أجرى دمه . وهولَ  
الامرَ وهولت . وحوقلَ وحوقلت . ثم قال لقد وقعتُ قبلك فى هذا  
البلاء . ولمأتمَّ لى النقاهاةُ من الداء . وأنا أنصح لك إن كنتَ مدعياً  
أن تترك دعواك . وتصبرَ على بلواك . أما إن كانت الدعوى عليك .  
فليس الخيار اليك . ولا مردَّ لحكم القضاء . بتدبير الآراء . فقلت  
للضرورة أحكام . فأرشدنى لانتخاب محام . يكون مشهوداً بعدالته .  
مشهوراً بطهارته . بعيداً عن خلف الوعد . بريئاً من خلق الوغد <sup>(١)</sup> .  
لا يتفق مع الخصم . ولا يسرق من « الرسم » . قال اطلب من أنواع  
المحال . أن يحمل الذرُّ الجبال . ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط .  
فينتهى بك الأمر الى اليأس والقنوط . ولمحاولة الارتقاء . فوق متن  
العناء <sup>(٢)</sup> . أيسرُ من ذلك مطلباً . وأوسع مذهباً . وأقسم لك بخالص  
الود . أنى لا أثق منهم بأحد . وكيف تكلفنى أن أتقى لك ذنباً من  
الذئاب . وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب . فأعفى من هذا الاختيار  
والانتقاء . عافك الله من جميع الأسواء . ثم ما لبث أن خلفنى ومضى .

(١) الوغد ، الرذل الدنى (٢) العناء ، طائر مجهول الجسم لم يوجد

وتركني على مثل جهر الغصى . فسرت كثيراً حزينا . أبغى سواه مرشداً  
ومُعِيناً . ولما لم أجد من أصحابي مَنْ يتكفل على عهده . باختيار محام  
يُوثق بدمته . قصدت أحد المعلمين عندي بكثرة الخصومات . وطول  
المحاكمات . فكاشفتهُ بطلبَتنا . ليكشف من مصيبتنا . فقال اءلم ان  
الحامين الشرعيين أجناس وصنوف . فمنهم المبصر ومنهم المكفوف .  
وفيهم - كتب الله لك السلامة - صاحب « الطربوش » وصاحب العمامة .  
وأنا أدلك على أهونهم شرا . وأقلهم ضرا . وأخفهم رزيةً وبليّة .  
وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية . فعليك بفلان وبيته معلوم . في منتهى  
« حارة الروم » . فقصدنا البيت نشق طرُقاً معوجةً . ونحترق ثنِيَّات  
مزدوجة . الى أن اتهمنا الى باب دار . كأنها مطلية بالقار<sup>(١)</sup> . تسوّرت  
باكوام من الاقدار . وتلفعت بتلالٍ من الأوضار . ورأينا عند مدخل  
الباب . صبيّةً يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تجمّع على وجهها من  
الذباب . مثل البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب . ولما نخطيناهم غشيتنا  
رائحةً المرحاض . فاستندنا هناك على هضبة أنقاض . بجانبها مذبذباتان .  
يزاحما عليه إوزتان وبطتان . ثم اهتدينا الى حجرة في جهة اليمين . فرأينا  
أمامها فرأنا ينادى : « العجين » « والأجرة » . فسألناه عن رب الدار  
فأشار الى الحجرة . فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطى بالغبار والحصباء .  
ومتكثراً تعرى من الفراش والغطاء . وفي زاوية من زوايا المكان .  
سراجٌ لا ينفذ نوره من تكاثف الدخان . وفي أعلى رفوف الرواق .

أحمالُ كتبٍ وأوراق . قام لها نسيجُ العناكب مقام الوفاية والتجليد .  
وأصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد . وفوق الأرض  
زجاجات مطروحة من المداد . وفي يياض الحائط تسويد وتخطيط من  
لعب الأولاد . وبصُرنا برجل :

تُعِيرُ حِناؤُهُ شَبِيهَهُ فَمَلَّ غَيْرَ الظَّهْرَ لَمَّا انْحَنَى

ووجدناه جالسا على سجادة الصلاة . وعن يساره امرأة كأنها  
السَّعلاة<sup>(١)</sup> . فسمعناه يقول لها في تسبيحه : « أَتَسْتَكْرِيْنِ - أَدْرَأَ اللهُ  
عَلَيْكَ خَيْرَهُ . وَأَبْدَلْكَ زَوْجًا غَيْرَهُ . مَا أَخَذْتَهُ مِنْكَ لاسْتِنْبَاطِ الحَيْلَةِ  
فِي التَّفْرِيقِ . وَاسْتِخْرَاجِ الحُكْمِ بِالتَّطْلِيْتِ . فَأَبْءَدْتُ عَنْكَ زَوْجًا  
تَكْرهِيْتَهُ . لِتَبْدُلِي مِنْهُ زَوْجًا تَحْمِيْنُهُ » . ثم إنه أحسن بدخولنا من  
ورائه . فارتدَّ الى اتصال تسبيحه ودعائه . وانتفضت المرأة فتنقبت  
بجَمَارِها . وتلفعت بإزارها . وخرجت وتركتنا مع رجلٍ يَخْدَعُ الانام  
بطول صلواته . ويتلو سورة الأنعام في ركعاته :

اِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمًا فَتَارَكُهَا عَمْدًا إِلَى اللهِ أَقْرَبُ

وجلسنا مدة ننظر خلاصه من هذا الرياء . وخلص المَلَكَيْنِ  
من صحيفته السوداء . وخلصنا من هذا الكرب والعناء . وكنا نشاهد  
منه في خلال ذلك نظراتٍ مُتَحَلِّسَاتٍ نحو الباب . كأنه هو أيضا في  
انتظار وارتقاب . الى أن دخل علينا غلامٌ يصيح به : الى متى هذه العبادة .  
فقد بليت السجادة . وحاجات الناس موكولة اليك . وقضاء مصالحهم

موقوف عليك . وهذا دولة « البرنس » ينتظر ك في القصر . منذ العصر .  
دَعُ مَدِيرَ الْأَوْقَافِ . وَتَقِيبَ الْأَشْرَافِ » . فَلَمَّ بَعْبَا الْمَصْلَى بِهَذَا الْكَلَامِ .  
بَلْ جَهْرَ بِالْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : « قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ  
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِأَشْرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »  
بَجَلَسَ غَلَامَ الشَّيْخِ وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ . وَاشْتَدَّ بِنَا الضَّجْرَ وَالْقَلْقَ . فَقَلْنَا  
مَنْ يَضْمَنُ لِهَذِهِ الصَّلَاةِ اتِّهَاءَ . وَلِهَذَا التَّسْبِيحَ انْتِضَاءَ . وَهَمَمْنَا بِالْقِيَامِ .  
فَالْتَفَتَ الشَّيْخُ لِلْغَلَامِ . وَأَشْبَعَهُ مِنَ التَّأْنِيبِ وَالْمَلَامِ . ثُمَّ حَيَّانَا بِاللِّطْفِ  
سَلَامًا . وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ وَعَلَيْكُمْ . وَأَنَا فِي الْخِدْمَةِ بَيْنَ يَدَيْكُمْ . فَقَلْنَا  
عَلِمْنَا أَنَّكَ رَجُلٌ عَدْلٌ عَفٌّ . بِخُفْيَاكَ لِقَضِيَّةٍ فِي وَقْفٍ . فَقَالَ الْغَلَامُ  
أَنْظِرُونِي رَيْعَةً . أَمْ تَرِيدُونَ رَيْعَةً . فَقَلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلْ تُبَاعُ الْأَوْقَافُ .  
قَالَ نَعَمْ وَبِإِبَاعِ جَبَلِ قَافٍ . ثُمَّ تَنَحَّضَ الشَّيْخُ وَسَمَّلَ . وَبَصَّقَ وَتَفَلَّ .  
وَتَسَعَّطَ . ثُمَّ تَمَخَّطَ . وَاقْتَرَبَ مِنَّا وَدَنَا . ثُمَّ قَالَ لَنَا :

(المحامي) - دَعُونَا مِنْ هَذَا الْغَلَامِ وَقُولَا لِي مَا حَقَّقَ فِي الْوَقْفِ ،  
وَمَا شَرَطَ الْوَاقِفُ ، وَكَمْ يُقَدَّرُ عَنِ الْعَيْنِ لِتَقْدَرُ « قِيَمَةُ الْأَتْعَابِ » بِحَسْبِهِ  
(عَبْسِيُّ بْنُ هِشَامٍ) - إِنْ لَصَاحِبِي هَذَا وَقَفَاعَتَهُ عَنْهُ الْعَوَاقِقُ  
فَوَضِعَ سِوَاهُ عَلَيْهِ يَدَهُ وَزَيْدٌ رَفَعَ الدَّعْوَى لِرَفْعِ تِلْكَ الْيَدِ

(المحامي) - سَأَلْتُكَ مَا قِيَمَةُ الْعَيْنِ

(عَبْسِيُّ بْنُ هِشَامٍ) - لَسْتُ أَدْرِي عَلَى التَّحْقِيقِ وَلَكِنَّمَا تَبْلُغُ الْأَلُوفَ

(المحامي) - لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ مَقْدَمَ الْإِتْعَابِ حَيْثُ ذَكَرَ عَنِ الْمَثَلِ

(عيسى بن هشام) - لا تَشْطُطْ أَيْهَا الشَّيْخُ فِي قِيَمَةِ الْإِنْعَابِ  
وَارْفُقْ بِنَافَتِنَا الْآنَ فِي حَالَةِ عَسْرِ وَضِيقِ

(الغلام) - وهل ينفع في رفع الدعاوى اعتذار بإعسار . ألم تعلم  
ان هذا شغل له « اشتراكات » وللكتبة والمحضرين « تطلعات » وأن  
لكما يمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى وكسب القضية بما يهون  
معه دفع كل ما يطلبه في قيمة أنعابه . وهل يوجد مثله أبداً في سعة العلم  
بالحيل الشرعية ولطف الحيلة في استمالة محامي الخصم واستجلاب عناية  
القضاة

(عيسى بن هشام) - دونك هذه الدراهم التي معنا نخذها الآن  
ونكتب لك صكاً بما يبقى لحين كسب القضية وليس يفوتك شيء من  
ذلك ما دام ربحها مضموناً لديك على كل حال  
(المحامى) - بعد أن استلمت الدراهم يعدّها - أنا أقبل منك هذا العدد  
القليل الآن ابتغاء ما أدخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة  
المسامين . وعليك بشاهدين للتوكيل

(عيسى بن هشام) - وبأية طريقة يكون التوكيل  
(المحامى) - يجب عليك أن تستحضر شاهدين يشهدان أمام  
المحكمة بأن فلان بن فلان بن فلان وگل فلان بن فلان بن فلان « في  
المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والامتلاك والتسليم  
وفي المطالبة والدفع والاقرار وفي كل ما يصح فيه التوكيل شرعاً وفي أن

يوكل عنه في الدعوى غيره وأن يعزله وإن يفعل ذلك مراراً وتكراراً  
كلما بداله فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة ، وأنا أنتظر  
حضوركما غداً مع الشاهدين ومستند الوقف  
( عيسى بن هشام ) - ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل  
الباشا ونسبه

( غلام المحامى ) - هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها  
ولمك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا  
ونسبه ويشهد به بين يدي الحق

( عيسى بن هشام ) - وليس في يدنا أيضاً مستند للوقف  
( المحامى ) - أما من جهة المستند فينبغي استخراج صورة من  
السجل « المصان » ( كذا ) وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية  
قال عيسى بن هشام - وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا  
واستقبل القبلة بوجهه يتنفل ويتبتل ، فقمنا للانصراف وسرت مع صاحبي  
وأنا غريق في الافكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون  
الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد أن كان شديد الحدة سريع  
الغضب ، يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب ، فأصبح بفضل  
وقوعه في هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتابعة لئى العريكة واسع  
الصدر مؤطاً الكنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من  
كل ما رأيناه في يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم

الذي يجعل دأبه البحث والتأمل في أخلاق الناس أثناء التعامل معهم، وازدادت يقينا بأنه لا شيء أسرع في تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالاخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوايب وأن أسوأ الناس أخلاقا وأنكدهم عيشا هم هؤلاء الأغمار<sup>(١)</sup> المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدّثان ولم تهذبهم صروف الأزمان، ولم يزدني الباشا في كلامه أثناء الطريق على أن قال :

(الباشا) - قلت لي أن المحامين الشرعيين فيهم صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة فهل تراهم جميعا على هذا النمط الذي شاهدناه أم بين الفريقين فرق

(عيسى بن هشام) - اعلم أن الخيرة في الواقع، والحمد لله على كل حال فإن فيهم تحت «الطربوش» من هو أشد فتكا من ضواري الوحوش. وأعرف طربوشا منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثا من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها في حياته على إنكار كلام نطق به في مجلس كنت حاضره إرضاء لأحد أرباب القضايا، وإغضابا لخالق البرايا، واستهانة بحكم الشارع، واعتمادا على قول الشاعر :

وإن أحلفوني بالطلاق أتيتها

على خير ما كنا ولم نتفرق

وإن أحلفوني بالعتاق فقد درى

عبيد غلامي أنه غير معتق

قال عيسى بن هشام - ومضت علينا الأيام ونحن نقصد الشيخ

(١) الاغمار، جمع غمر وهو الجاهل الأبله

المحامى فى كل يوم فلا تتمكن من لقائه ، فان ذهبنا اليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحكمة ، وإن ذهبنا الى المحكمة قيل لنا إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الامراء والكبراء حتى حفيت الأقدام ، ومللنا الاضطراب ، فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخير من الليل فنصطاده عند خروجه ، وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانهُ ، فتقدمت اليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنبُ فيه لكثرة مشا كل الأمراء ودعاويهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة ، فذهب بنا الى « كاتب الإشارات » فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه : من سُحرة الحذاء فى رجله وزرقة الجبة على كتفه وصُفرة الحزام فى خصره وبياض العمامة فوق رأسه :

تعددت ألوانهُ كأنهُ قوسٌ قزحٌ

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا ، فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة المتوقف وقال إنه شاب صغير السن وإنه وإنه . . . قال عليه غلام المحامى وألتى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره الى قاضى الجلسة لسماع الإِشهاد بعد أن قال لنا الغلام : وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الإِشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف يجب بعد هذا أن تقدم عريضة لحضرة القاضى بطاب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمره الوقفية وتاريخها ومن « عملية » منْ هى ( يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها ) فخرجنا نبحث عن

أحمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا الى مطلوبنا ، فعثرنا عليه وأعلمناه  
بفرضنا ، فقال إن عندي ورقة فيها نمرة الوقفية كنت تحصلت عليها  
بطرقٍ مختلفة بعد الجهد الشديد والزمن المديد لإثبات حق في ربيع  
الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد الينا بالورقة فوجدناها قاصرة على ذكر  
النمرة والتاريخ ولم يُذكر فيها اسم الكاتب الذي عمل « العملية » ، فقصدنا  
غلام المحامي وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا المريضة وقدمناها لحضرة  
القاضي فوضع عليها اشارة حضرة الباشكاتب ليتحرى عن مسألة  
« الشأن » وطلبوا منا شهوداً يُشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا  
ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف وأن سواه وضعَ يده عليه ،  
فأدركتنا الحيرة في الأمر فتكفل لنا الغلام باستحضار أو تلك الشهود  
أيضاً بعد أن قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة في تكاليف القضية . ولما  
نظر الباشكاتب في المريضة ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب  
« العملية » قال لنا إنه لا يمكن الاهتداء في الدفترخانة بدون ذلك ، وإنه  
لا بد لنا من انتظار السنين والاعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية  
في السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام : لا  
تجزنا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز وأتوجه معكم الى الدفترخانة ان شاء  
الله . وهذه هي الخطوة الخامسة في تكاليف القضية . وما زال الخبيث  
يعدُّ لنا الخطوات . ونعدُّ له في كل خطوة دريهمات . ونحن نسأل الله أن ينقذنا  
مما أصابنا من حُكم الدهر . وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر

## الدفترخانة الشرعية

قال عيسى بن هشام - وعكفنا زمنا نشد في الطلب . والمحامي  
يشد منا في الهرب . فلما طال علينا الأمد في ارياده . وئسنا من  
لحاقه واصطياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه .  
فأينا الخبيث يصعب في الأمور والأحوال . لنسترضيه بالعطاء والنوال .  
وقال لنا أقول لكما الحق والحق أقول . إنه ليس من المتصور المعقول .  
أن نهتدي في هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم  
صاحبها . دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يجوز في الخواطر  
والأوهام . أن يثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير  
وحي أو إلهام . إلا بعد كرات السنين ومرر الاعوام . وان اعترأ كما بعض  
الشك أو الريب . ولم تُصدقا بظهر الغيب . فهلما معي أطلق كما على  
ما يزول معه اللبس . وتقتنع به النفس . فقيدها به قيود الترغيب والتأويل  
وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليل . فانطلق أماننا يثب ويحجل .  
حتى دخلنا بيت السجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتاب .  
ألينا خشباً مسندة . على خشب مؤطدة . وهياكل تفرش الفراء .  
فوق الأقدار والأقذاء . لامتيز منهم وجه إنسان من إنسان . لعمشة  
البصر من ظلمة المكان . فتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرمس . وكر  
راجماً ينتظرنا في ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى أذن أحدكم يكلمه .

بما لا أعيه ولا أفهمه . فبادر الرجل بالنهوض والقيام . وسار بالغلام وأنا  
 في عقب الغلام . فما خطونا بضع خطوات حتى حيلَ بيننا وبين ضوء  
 النهار . وتجللنا من حندس الليل بحجبٍ وأستار<sup>(١)</sup> . فوقفت لا أبصر  
 ولا أهتدي . فأخذ الغلام يدي . وقد عميت على وجوه المسالك .  
 في هذه المخاوف والمهالك . وسرتُ فوق أرضٍ تهش تحت القدم وتلين .  
 كأنها مفروشة بالهشيم تلبد في الطين . ومازلنا نمشي في أنحاء تلك  
 المظمورة<sup>(٢)</sup> . على هذه الصورة . حتى تخيلتُ أنني في قبور قدماء  
 المصريين . أو في هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين . أو في طريق  
 الامتحان عند أحرار البنائين . فوجِبَ القلب<sup>(٣)</sup> . من شدة الرعب .  
 خشيةً أجبولة نُصبت . أو مكيدة رُبِّت . ووَجَّت . ثم أحجمت .  
 وقلت للغلام ليس بيننا ما يوجب الاحتيال . أو يدعو للاغتيال . وماذا  
 تريد مني في هذا الغيب<sup>(٤)</sup> . وليس معي من فضة ولا ذهب . ولا من  
 شيء يُستلب أو يُنتهب . ففقهه الفاجر ثم أقسم بالله وثني بالطلاق . أنا  
 نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولقائف الأوراق<sup>(٥)</sup> . وقال كُنْ آمناً  
 مطمئناً على نفسك . وسترى الحقيقة بعيني رأسك . وما كاد الشقي  
 يتم لي هذه العبارة . حتى عثرتُ قدمي في لفافة فوقعتُ على غرارة .  
 وإذا بصائحٍ يصيح من تحتها متبرماً متأفقاً . ويقول لي متعظراً متعجباً:

(٢) المظمورة ، المفيرة تحت الارض

(٤) الغيب ، الظلمة

(١) الحندس ، الليل الشديد الظلمة

(٣) وجب القلب ، وجباً ، رجف وصفق

(٥) الغرائر ، جمع غرارة ، وهي الجوالق

ما هذه العشاوة يا عديم الإبصار . ونحن لانزال في أديم النهار . فقلت  
متشاقلاً متسانداً . وقلت في نفسى منشداً :

دُجِيَتْ تَشَابَهُ الْأَشْيَاءِ فِيهِ

فَيُجْهَلُ جَنْسُهَا حَتَّى يَصِيحَا

ثم تأملت فإذا أنا بخيال ينفذ الغبار عن رأسه ولحيته . بذيل مئزره  
أوجبته . فتولّان الخوف والوجل . وقلت من الرجل . فقال الغلام :  
كاتب من كتبة «السجلات» . ينش عن أوراق في «سجل الأيلولات» .  
فقلت وكيف يهتدى لذلك . وسط الظلام الحالك . فقال أولئك قوم  
اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كالحفّاش يبصرون في سواد  
الظلماء :

ولو سار كلُّ الورى هكذا

لما حسدَ العنى من يبصرون

ثم انمطفتنا من ذات اليمين الى شبه قاعة . يلوح فيها من الضوء  
مثل جناح يراعة<sup>(١)</sup> . واذا هو لعاب الشمس يسيل من ثقب<sup>(٢)</sup> . في  
سقف ذلك الجب . وهو يتموج بأنواع الجرائم . تموج الماء بالهشيم<sup>(٣)</sup> .  
نخلت أن عجوز الفلك الدوار . — أريد بها شمس النهار . — خشيت  
أن تضلّ في ظلمة هذه المفازة . فاتخذت لها من لعابها عكازة . تتوكأ

(١) اليراعة الذبابة

(٢) لعاب الشمس شيء كانه ينحدر من السماء اذا قام ذم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت

(٣) الهشم نبت يابس متكر

عليها للاهتداء . وتدبّ بها في هذا الماء . فسحّتْ على بصري .  
وأحدقتْ بنظري . فأبصرتُ وماذا أبصرت . ونظرتُ وماذا نظرت :

ما إن سمعتُ ولا أراني سامعاً

أبدأً بصحراءِ عليها بابُ

نعم رأيت فضاءً متسعاً ترأّكُم فيه من الأوراق الريثية والدفاتر  
البالية . مثل الرُبي الشاهقة والأكمات العالية . غير أن هذه تُثمر  
وتُجنّي . وتلك تمثُ وتبلى . هذه تكون مخضرةً مخضبة . إن جادها  
الحياً أينمتْ بالنعس من النبات . وتلك سوداء مجدبة . إن بللتها الرطوبة  
اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرض تُبسطُ في خد الترى ورقاً كما تُنثرُ في حافاتها البُسطُ  
والريحُ تبعثُ أنفاساً معطرةً مثل العبير بماء الوردِ مُختلطُ  
وهذه بسطتْ فوق الترى ورقاً لكنه للبيّ والعتُّ مُبسطُ  
وريجها تورثُ الاسقام ناشقها كأنه من ترابِ القبرِ يستعطُ (١)

وما لبث أن استبان لي شخص الكاتب المرافق لنا . في لمحة ذلك  
السّنا . فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقنّعٍ بالاصفرار .  
وعينٍ مكتحلةٍ بالاحمرار . وقد طوى من خلفه الجبّة . ورفعها على ظهره .  
كالجعبة . وفي حزامه دواة من نحاسٍ أصفر . وبين طيات العمامة أوراق .

(١) استعط الدواء ، أدخله في أنفه

بالتواريخ « و النمر » . فاستعنتُ بالله من الشيطان الرجيم . وقلت لذلك  
الغلام اللثيم :

(عيسى بن هشام) - هلم بنا أيها المراءغ الى الباب لنعود الى  
ضياء الحياة فقد يئستُ من أمرنا . وأنى لهذا الكاتب أن يهتدى  
تلبحت في هذا اللبج القامس<sup>(١)</sup> . والليل الدامس<sup>(٢)</sup>

(غلام المحامى) - لا تنكرن على مثله الاهتداء في دياجى الظلماء  
ولا يهولنك تشتت الدفاتر وتراكم الاوراق فهى مرتبة في حافظته ترتيباً  
انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جدّه فلا تخفى عايه مواقعها  
كما يتوارث رؤساء « البوقاز » فى الاسكندرية هداية السفن عند دخولها  
بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض فى قاع البحر . ولو كان معنا اسم  
الكاتب لسهل البحث ولو صلنا الى الغرض

(الشيخ الكاتب) - نعم لا تنكر علينا بارك الله فيك اهتداءنا  
تلبحت فى هذه الأوراق . والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة فى  
ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب ، فهى مقسمة الى عدة  
سجلات منها « سجل الباب العالى » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة غير  
الموروثة . ومنها « سجل القسمة العسكرية » ، تسجل فيه الاعيان المبيعة  
الموروثة . « ومنها سجل الأيلولات » ، تسجل فيه الأعيان المحصورة  
من تركة مُنحصص أو تباع بالزاد . ومنها « سجل الاعلامات » ، تسجل  
فيه المواد التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان

ومنها « سجل التقارير » ، تسجل فيه تقارير النظار وفقاً وغيره ، ومنها « سجل الوقفيات » ، وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق

( عيسى بن هشام ) - سبحان الفاتح الوهاب . ومن يهديني الى طريق الباب ! !

( الشيخ الكاتب ) - . . ومنها « سجل الديوان العالى » ، تسجل فيه القرارات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم . والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب ، ومنها « سجل القسمة العرية » ، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين . .

( عيسى بن هشام ) - اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلم فقد ضاق بنا الوقت

( الشيخ الكاتب ) مسترسلاً . . ومنها « سجل إسقاط القرى » ، يسجل فيه ما يأخذه الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى . وليس يخفى أنه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبلى السلطان ، وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الأنواع ( وقد حُفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة ) وكانت مراكزها فى جهات « باب الشرعية » و « قناطر السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » . .

(عيسى بن هشام) - يكنى أياً الشيخ فقد وجب الرحيل . ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) مُعَدِّداً - وفي جهات « درب سعادة » و«باب الخلق» و«الصالحية» و« النجمية » و« أحمد الزاهد » و« البرشمية » و«مصر القديمة» و« بولاق » و« جامع الصالح » و« جامع الحاكم »...  
(عيسى بن هشام) - تبارك مَنْ له الاسماء الحسنى . وَمَنْ يُعِدْنِي  
الى الحياة الدنيا

(الشيخ الكاتب) -... ثم « محكمة الباب العالى »، وهى المحكمة الكبرى وقاضيا هو المسيطر على الجميع المُوَلَّى من القسطنطينية . و« محكمة القسمة المسكرية » ، وقاضيا يعيّن كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى ويسمى «القسّام» وشغله المواريث بأنواعها فقط، و...  
(عيسى بن هشام) للغلام - لقد ملّ سمعى . وضاق ذرعى . فالخرج

بنا وأتقذى من شر هذه الدار . ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار  
(الغلام) - لا تضجر ولا تنظ وأنظرنى قليلاً حتى أستنير برأى  
الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للمقعدة، وفرجاً للكربة، (ثم مال على الشيخ منفرداً به فسمته يقول له) :

(الغلام) - مثلك لا يمجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف  
على اسم كاتبها ، وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً ، وأصحابُ  
القضية من كبراء الناس أهل الساحة والكرم

( الشيخ الكاتب ) - مهلاً فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل فان لكتابها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخلع التي خلعت على كاتبها بقايا الى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان ، فدونك وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ ، وجثني بها نافعة تشفع لنا أجمعين ، والله ينفعنا بنفع المسلمين

( الغلام لعيسى بن هشام ) - قد تبسرت الحلال بإذن الله ووصلنا الى معرفة اسم الكاتب الذي تُستخرج به الصورة . والرأى لك في هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام - ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجَهِرَت<sup>(١)</sup> عيني وسكِرَت<sup>(٢)</sup> فلم أبصر في الشمس عند الباب إلا بعد التردد مراراً بينها وبين الظلام . ولما التقيت بالبasha في الموضع الذي كان ينتظرني به سألتني عن طول هذا الغياب فلم أُرد أن أضيف الى مصائبه مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه بل كتمته لياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على أن يباشر وضع اسم الكاتب في الورقة ويعود في اليوم الثاني الى الشيخ الكاتب لياتينا بصورة الوقفية ، بعد أن نقدناه ما نقدناه ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور ونحن نتردد على

(١) جهرت العين ، لم تبصر في الشمس (٢) سدرت ، تحيرت

الدفترخانة تارة في صحبة الغلام وتارة بدونه الى أن حل الأجل وآن الأوان  
بجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية قفرحنا فرح النواص  
بِدُرَّة التاج . تحت تلاطم الأمواج . ونهضنا معه الى الدفترخانة  
فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع  
قِصَر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجَدِّ فخمدناه على همته  
العالية وصنعه الجليل ، فأخرج من تحت إبطه أوراقاً بالية متخرقة  
متأكلة لا تستوى منها ورقة مع أخيها فيها سطور متقطعة وخطوط  
متوزعة لا يستطيع أن يحلها إلا مَنْ كان عريقاً في كشف الرموز وفك  
الطلاسم . فقلت له ان الاهتداء الى نقل صورة مفهومة من هذه الاوراق  
لأعظم مشقة وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء  
المظلمة ، فقال لي إن كثرة التعود تيسر المسير وتهون الصعب وقد ورثتُ  
عن المرحوم والدي أيضاً قراءة هذه الخطوط وتلفيق مارت من أواخر  
السطور . والعبارة واحدة لا تتغير تقريباً في كل باب من أبواب  
السجلات . ورأيتهُ يستعد ليسترسل في أبواب الشرح والوصف  
وخفتُ أن تشتد به نوبة الهذر والإكثار فودعناه وانصرفنا ، وكلفنا  
غلام المحامى أن يأتي لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها ، فطلب منا ان  
ندفع « رسمها » وأن نأتي بشاهدين يشهدان علينا باستلامها ووعدنا  
بأنه ينوب عنا في اجتلابهما بعد أن طالبنا بالكفاة الواسعة . على  
هذه الخطوة السابعة

## المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام - ولما صارت في يدنا الصورة . بعد تلك  
المواقف المذكورة . خطأ غلامنا الثامنة من خطواته . في بعض رَوَحَاتِهِ  
الى المحكمة وغدواته . فذهب الى كاتب « الطلبات » . لتحديد إحدى  
الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس . على أن تكون  
الجلسة في يوم الخميس . وأنه حرر « طلباً » لحضور الخصوم . في  
الوقت المعلوم . فأقننا أياماً نعلل النفس بالأمل . حتى حل هذا الأجل .  
وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ الحامى ولقائه . بعد طول احتجابه عنا  
واختفائه . ورَضِيَ أن يتوجه معنا الى المحكمة . ليكشف عنا بيمينه كل  
مظلمة . فسرنا جميعاً تقصد بيت القضاء الشرعى . والحكم المرضى .  
والعدل المقضى . بوحى الآله وسنة النبي . حيث تقام منابر الهدى .  
وتشاد منائر التقى . وينبليج نور الحقيقة والعدالة . وتنكشف ظلمة  
البدعة والضلالة . ويؤخذ من الظالم للظالم . وينتصف من الحاكم  
للمحكوم . ويسار على الصراط السوى . في الحكم بين الضعيف  
والقوى . - حيث تتحد المواقف والأقدام . وتستقيم الأوامر والأحكام .  
وتغدو فيه الشكلى ربة الأيتام . أعز من الفارس ربّ الرمح والحسام .  
ويصبح الأعزل الشاكي . أقوى من المدجج الشاكي <sup>(١)</sup> . ويتساوى

(١) المدجج ، اللابس للاحه وكأنه تغطى به . والشاكي ، التام اللاح

لديه ربُّ الشَّوْبِيَّةِ والبَعِيرِ (١) . ربُّ التاج والسرير . - نعم حيث  
يكون المقعد الموروث . عن النبي المبعوث . وحيث يُعمل بالسنة وآي  
الكتاب . فيُنْتَصَرُ للدليل على العزيز . ويُقْتَدَى فيه تارة بسيرة عمر  
ابن الخطاب . وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقرُّ  
المهابة والجلال . ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والأمانة .  
ومنبع العفة والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع  
ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات . تجرُّها  
الجياد الصاهلات . وبجانبها الراقصات من البغال والحمير . عليها سُرُجُ  
الفضة والحريير . فحسبناها مراكباً للعطاء والأمراء . في بعض مواكب  
الزينة والبهاء . وسألنا إِمْنَ هذِي الركب . فقيل لنا لأنها لجماعة الكتاب .  
فقلنا سبحان الملك الوهاب . وَمَنْ يرزق بغير حساب . ونحوه نأخو الباب .  
في تلك الرحاب . فوجدنا عليه شيخاً حنَّ ظهْرَه السنون . فتخطَّته  
رُسُلُ المُنُون . قد اجتمع عليه العَمَشُ والصَّمَم . ولجَّ به الخَرْفُ والسَّقَم .  
وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من نوازل القضاء . ثم صعدنا في السُّلْمِ  
فوجدناه مزدحماً بأناس . مختلفي الأشكال والأجناس . يتساقطون  
ويتشائمون . ويتلاكمون ويتلاطمون . ويُبْرَقون ويُرْعَدون . ويتهددون  
ويتوعدون . وأكثرهم آخذٌ بعضهم بتلايبِ بعض . يتصادمون بالحيطان  
ويتساقطون على الارض . ومازلنا نزاحم على الصعود في الدَّرَج . والعمائمُ  
تتساقط فوقنا وتندرج . حتى مَنَّ اللهُ علينا بالفرج . ويَسَّرَ لنا المخرج .

(١) الشويبة ، تصغير الشاة وهي الواحدة من الغنم

في وسط هذا الجمع المتلاصق . والمأزق المتضايق . ووصلنا الى القاعة السُّفلى . فوجدنا عندها امرأة حُبلى . تنقلب على الأرض كالثعبان . وتستشهد بالأهل والجيران . أن بعلها . أنكر حملها . وحاولنا أن نخطو خطوة الى الأمام . فلم نستطع من شدة الزحام . وكيف بالتقدم في عُبَاب موج ملتطم . ومنحدر نسيل مرتطم . من نساء صائحاتٍ مَوْلولات . ونائحاتٍ مَوْلولات . ونادباتٍ باكيات . وصارخاتٍ شاكيات . كأنهن قائمات في مآثم على مدافن الأموات . تفرحت فيه العيونُ وُبُحَّت الأصوات . وفيهن المُسفرة والمتقنعة . والمضطجعة والتربمة . والحاسرة عن الذراع والرأس . وأختها تُقلِّبها في وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن ثدييها . تُرضع طفلاً على يديها . وغيرها ترضع طفلين في حذاء . وزوجها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى آخذةً بضميرة ضرتها . ورضيعها يتلف على ضرتها . ومن يبنهن من يتقدمها طليقها . ويتبعها عشيقها . تُشيع الأول باللعن والسباب . وتمز الثاني بكفٍ مزدانةٍ بالخضاب . ورأينا العقيلة المخدرة مع « الأغا » . لا يستطيع أن يحميها في حومة هذا الوعى . وشاهدنا في الجمع جماعةً من فجَّار الخلاء . وتبَّاع النساء . يغازلون كل غانية هيفاء . ويفامزون كل غادة غيذاء .<sup>(١)</sup> ويتعرضون لفيض النزاع . بين ذوات القناع . وفصل العناد والشقاق . بين الطاعنات بالأحداق . فتختلط غمزات الطرف . بهمزات الكف . فيزول ما هنا لك من

(١) النيداء . المرأة الثنية لنا

الجدال والخصام . ويصرون جميعاً الى الحسنى والرفيق من الكلام .  
ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة . ومعجائب الشناعة . رجلاً وأمرأة  
يتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر .<sup>(١)</sup> ويتباذران في أقوال البذاءة  
والنكر . وهما يتجاذبان في أيديهما غلاما . كأنما يحاولان له اقتساما .  
ليأخذ كل منهما من أعضائه نصيب . والغلام يبكي من شدة الألم  
والتعذيب . فاستعدنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم .  
وسمنا من أفظع ما سمعناه امرأة تنتحب وتقول . وتقاها بقاء العين  
مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء . لما وصلنا الى هذه الحالة  
النعاء . فان الرجال يميلون لجنس الرجال . ويتناصرون لبعضهم على  
ذوات الرجال » . فاستعنا برب المثاني .<sup>(٢)</sup> وصعدنا في السلم الثاني .  
فاذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل . أو خلايا النحل . واتهمنا  
منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة . هذا يصيح « الخبز والخبز » .  
وذاك ينادى « الدخان والبن » . وآخر يقول « الزبدة والعسل » .  
وبعضهم يردد « الفول والبصل » . وبائع الضأن يفتت بسكينه جماجم  
الرؤوس . والثلاج يُصَفَّقُ باكواز « العرقسوس » . وهناك « قهوة » يدب  
فيها الشهود بالعشرات . كديب الحشرات . فيعرضون أنفسهم على الخصوم .  
للسهادة أو التزكية بأجر معلوم . وغلمان المحامين يروحون بين الجموع  
ويغدون . فيمكرون بهم ويكيدون . ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون .

فيخدعون ويمتالون . ودخلنا حجرة صغيرة من حُجرات الكتّاب .  
فثار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب . فرجعنا على  
الأعقاب . ونجونا من الأوصاب . ثم انحدرنا مع غلام المحامي الى حجرة  
كبيرة الساحة . فقال اجلسوا هنا للاستراحة . فأجلسنا في صدر المكان .  
بين الكتبة والفلان . ولا بد لكل كاتب هناك من غلام . يقوم  
مقامه في تدوين الاحكام . فسمعتُ الكاتب الجالس عن اليمين . يُقسِمُ  
على أقواله بكل يمين . بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيقُ  
الميدان . لما تأخر حماره عن حمار فلان . وسمعت صاحبه يجانبه . يحلف  
بجده وأعزّ أقاربه . أنه لولا حبسه للenan . لسبق كل الحمير في يوم  
الرهان . ويقول له وهو يتلفف في العباء: « قد بلغنا عن الاجداد والآباء .  
أنه اذا صحّت الشعرة الخضراء . لم يتعلق بذيل الحمار الهواء . » ثم التفتُ  
ذات الشمال فوجدت كاتباً منهم غصّ الشباب . عظيم التألق في لبس  
الثياب . فهو يتلأأ ويتألق . في سندس وإستبرق . كأنما خاطوا له  
قباء من أزهار بستان . مختلفة الأشكال والألوان . يُفعم الانوف بعطره .  
ويُبعق الجو بنشره . وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها .  
فياخذها « السيد » منه ويرميها . ويقول له في حدّته . وشدة سؤرته :  
( السيد ) — هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبها . وبئس المفصلُ  
مُفصلها

( الخياط ) — كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن

المجيد . أنها أوسع من ثياب السيدين عبد العزيز وعبد الحميد

(السيد) - كذبت ورب الكعبة فان استدارة الكم ضيقة  
والرقبة لا تنطبق على الزى الحاضر

(الخطاط) - وماذا أصنع وذلك كل ما في عرض الحرير، ولو كنا  
عل الزى القديم لدخل مع السيد في طي ثيابه . إثنان أو ثلاثة من أصحابه  
(أحد أصحاب القضايا) - صبَّح الله السيد بالخير والإنعام  
(أحد الكتبة الظرفاء) مُنكَّتاً - لا بل بالخيل والأنعام  
(صاحب القضية) - أرجو سيدي أن يعطيني «الإعلام»  
(السيد) - اذهب حتى يأتي الغلام

(الكاتب الظريف) مُورِّباً - عليك به في شارع أم الغلام . تجده  
جالساً نصّاً تحت الأعلام

قال عيسى بن هشام - وعافت نفسى هذه النكت الباردة . والمعاني  
الساقطة . فأعرضت عن الإصغاء . وسرحت طرفي في بقية الأنحاء . فرأيت  
الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون . هذا يَلْتُ في يده أفيونه . وذلك  
يكور بين أصابعه معجونه . والعلمان يشتغلون تارة بأوراقهم . وطوراً  
يتباحثون في أذواقهم . وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد .  
ومطل الوعد . وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية . بألفاظٍ بذية .  
ويقول له : « كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد . أتظنه كان لك من  
العميد . أتريد أن يكتب لك ويتمب . ( وهو لا أجره له في المحكمة  
ولا مرتب) بغير ربح ولا مكسب . إن هذا لمن أعجب العجب » وجاء

رسول القاضى يطالب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده راقداً كالنفساء .  
فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته . وقال بعضهم لا بل أتركوه فى رقدته .  
أنسىتم حكم عاداته . بأنه لا يفتيق من غفوته . قبل أن يسيل الأفيون مع  
الدم فى دورته . ثم اتفق معهم الرسول . على أن يرجع فيقول : « اننى لم أجد  
الشيخ مكانه . وعلمت أنه نزل الى الدفترخانه » . ثم استيقظ الراقد بعد  
مدة فتأهب وتمطى . ثم تدر وتغطى . ثم عاد الى ما كان فيه من السبات .  
وهو ينشد للمعرى من أبيات :

وفضيلة النوم الخروج باهله  
عن عالم هو بالأذى مجبول  
ثم جاءه بالبع كتب وأوراق . فصاح به حتى أفاق . وقام بعون الله  
وحوله . يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب) - هل أحضرت ما طلبتُه من الكتب

(البائع) - نعم جئتك بكتب قديمة . لا تقدر لها قيمة . منها  
كتاب «حل الرموز . لفتح الكنوز» . ومنها «أصول المراسم . فى فك  
الطلاسم» . ومنها «حسن إرشاد الناس . فى استخراج الذهب من  
النحاس» . ومنها «القول المأثور . فى تأثير البخور» ومنها . . . . .

(الكاتب) - ألم تعثر لى على كتاب فى (الاستحضار)

(البائع) - نعم معى كتابان أحدهما «قلائد اللؤلؤ والمرجان . فى

استحضار الجان» . والآخر «خير المواقيت . لرؤية العفارىت»

(الكاتب) - بارك الله فىك وجزاك خيراً فان عندى نسخة محرّفة

من هذا الكتاب الأخير فاصحبنى الى البيت لنقابلها ونصحها

قال عيسى بن هشام — وقام هذا الكاتب مع البائع . وأقت  
أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبيننا أنا كذلك اذ  
أشار علينا غلام المحامى بالقيام ، فقد آن نظر قضيتنا ، فخرجنا فوقنا عند  
باب الحجرة التى تنعقد فيها الجلسة ، فرأينا الزحام خارجها وداخلها على  
أشد حالاته ، وسمعنا الحاجب ينادى تارة بصوت عال وتارة بصوت  
منخفض ، فسألتُ الغلام عن ذلك فقال إنه يخفض الصوت حتى لا  
يسمع أربابُ الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو  
بالمدعى عليه ، وفوق ذلك فان للحجَّاب ان يُدخلوا الجلسة من أرادوا ،  
ويجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين  
استحضرهم الغلام لنا ، فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء برئيسهم  
وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر . وقد تمسر على ان أفهم  
كلام الباشا وهو بجانبي يخاطبني لشدة الضوضاء وعلو الأصوات . ثم  
دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته . وكأنه الطاووس فى هيئته .  
فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره ، فوجدته قد تناول القلم  
بأطراف بنانه يضعه فى الدواة تارة ويضعه فى أذنه أخرى ، ثم يلهو بتفقد  
ثيابه ويشغل بلمس الأبر التي تشبك بها العمامة ، ثم ابتدأوا فى سماع  
القضية ، وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم  
لكثرة الجلبة والصياح وانما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط —  
وكانما يكتب من عنده — ما أنقله بحرفه وهو :

« استحضر أمام الجلسة المدعى والحامى والشهود فتقدم المدعى وعرف انه فلان بن فلان بن فلان وسمى شاهدى معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان ، وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان. وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور. ثم قال المدعى المذكور إنلى قبيل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة »

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند، فوقفنا ناحية من الحجره ننتظر مع من ينتظر ، ثم نودى علينا بعد مدة فقالوا لنا ان المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى - على ما أخبرنا به الحامى - بالإعذار الى المدعى عليه ، وقال لا بد ان نطلب ذلك من المحكمة لانه لا يسوغ لها ان تعذر الآ بناء على طلب الحامى ، فقدمنا الطلب ، فقرر إصدار الإعذار . والله يكفيك شرًا ما فى هذه الدار . من الأفضية والأقدار . وكثرة المهموم والأكدار

## قصر مفيد البائنا

قال عيسى بن هشام - ودخلنا - لا أدخل الله عليك طوارق النعم .  
ولا أخرجك من طرائق النعم . - في دَوْر الإِنذار يتبعه الإِنذار . والإِعذار  
يتلوه الإِعذار . ومندوبُ المحكمةُ يعودُ إلينا بالخبية . في كل أُوْبَة . زاعماً  
ان خدم الخُصم لا يقابلونه الا بالآزدراء . كغيرهم من خَوَلِ أبناء الأُمراء .  
حتى وصلنا الى حد الإِعذار الأَخير . ورَمِينا المندوبَ بالإِهمال والتقصير .  
فراينا ان نَحْبِرُ خبره . وتقتنى أثره . ونتحقق بأُتسنا كيف يتسع الذرع .  
للاستخفاف برسول الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان .  
يشهدانِ بأنه أعذر فلان بن فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم  
بكتف الآخر . على هيئة تستفز كل هازيء وساخر . وكلُّ منهم يخذ  
الأرض بمحذائه . ثم يُعقِي الأثر بفضل ردائه . وهم ينتقلون في المشي من  
الذمِيل الى الرسيم الى الوخيد .<sup>(١)</sup> كأنهم مسرعون الى جفنة ثريد . ونحن  
من خلفهم نحبّ ونهزول . ونُحْسِبُ ونُحَوِّقُ ، الى ان كادوا يغيبون عن  
البصر . وكدنا نققد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات  
الكهرباء . فطاحت العمامةُ وانفلت الحذاء . فاقتل يلتمسها ويلتمسه .  
فلم يرَعَهُ الا السائق وجرسُهُ . فماتحرك ولا انتقل . حتى أدركته  
العَجَل . وكاد يداس ويُقضى عليه . لولا أن جذبه رفيقه اليه . فحِيل

(١) الذمِيل والرسيم والوخيد ، ضروب من البير

بين الرجل وبين عمامته ونعله . ووقف مخبولا لا برأسه ولا برجله .  
 وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث . حتى مرت عليهما المركبات  
 الثلاث . فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل . فبشرناه  
 بسلامتهما فاعتمَّ بهما واتعل . وحمد الله على هذا اللطف في القضاء .  
 وحمدناه على ما أتيج من التعويق والابطاء . اذ تمكنا من اللحاق بهم .  
 وقد رنا على استئناف السير في عقبهم

وقد انتهى السير بنا الى قصر في سُرّة بستان . يُزرى في الحسن  
 بقصور بغداد وغمدان . وقد ترصع البستان بأنواع الأزاهر . كأنه مُحلى  
 بصنوف اليواقيت والجواهر : والقصر في وسطها كأنه الدرة البيضاء .  
 أو البدر بين نجوم السماء :

كأنه جيدٌ وبستانهٌ من حوله عقْدٌ بديع النظم  
 وما عساي أقول في وصف روض . قد نسجت يد الارض . لتزدان  
 به يوم عيدها ويوم زينتها . ونعمته رداء لها تحتال به في حسن رونقها  
 وبهجتها :

مُوَزَّرَةٌ من صَنَعَةِ الوَبْلِ والنَّدَى  
 بِيَوْشِيٍّ ولا وِشِيٍّ وَعَصْبٍ ولا عَصَبٍ<sup>(١)</sup>  
 قد أغنى الغواني نسيمة العليل . عن المسك الأذفر . وكفاها  
 ريحة البليل . تَطْرَهُهَا بالطيب والعنبر :

(١) العصب ، ضرب من البرود

بغرس كأكبار الجوارى وتربية كأن ترأها ماء ورد على مسك  
ومنى العرائس أن لو اتخذت من نوار الازهار . فصوصاً للخواتم .  
ومن اكمام الاشجار . معاقد للتمايم . وودها أن لو تازرت من سندس  
أرضه بأبهي إزارٍ ومِرط<sup>(١)</sup> . وتحلت من جوهر نباته بأزهي شنفٍ  
وقرط :

إذا مالندى وافاهُ صبغاً تمايلت أعاليه من درّ نيرٍ وجوهرٍ  
إذا قابلته الشمسُ ردّ ضياءها عليها صقالُ الأقحوانِ المنورِ  
وقامت فيه مشراتُ الأغصانِ قيام الكواعب الأتراب . ساقياتٍ  
بالأباريق والأكواب . ساكباتٍ سورَ الطل من تلك الاقداح .  
مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح :

شقائقُ يحملن الندى فكانه دموع التصابي في حدود الخرائد  
فما تخيلنا في هذا الروض مذرأياه الا أننا في حفلة عرس . جمعت  
أسباب اللهور وأطراف الأنس . قد نصّب النعيم عليها سُراده . ومدّ  
مُلتف النبات فيها تمارقه<sup>(٢)</sup> . وأشرقت في الأغصان الأنوان .  
إشراق المصاييح بالأنوان . وقامت الأطيوار على الأعواد . تتسابق في  
الترنم والإنشاد . فهي تغرّد بألحانٍ يقطع السامع لها جبل النفس .  
ويأنس اليها مستنفرُ الوحش المفترس :

رأت زهراً غصّاً فهاجت بمزهر<sup>(٣)</sup>

مثنائه أحشاه لطفن وأوصال

(١) المرط ، كساء من خز يؤتر به (٢) الفمق ، الورد ، الورد (٣) المزهر ، العود

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والخفيف . من ثقیلٍ فی  
الضرب أو خفيف . تصفق لها أكفُّ الأوراق . وتقوم الأفنان  
للرقص على ساق . مترنحة الأعطاف من خمر الندى . مهتزة القدود  
بنغم الصبا . تبسم عن أفاجٍ نضيد . يزرى بثنايا العيد . ثم تميل برشيق  
القوام . فتلتقط ما ينقطعها به النعام . والجدولُ يجري تحت أذيالها ويتعثر .  
وينساب الماء في ظلالها ويتكسر . كأن حصاءه اللؤلؤ والمرجان . في  
نحور الحسان . أو قلائد العقيان . في أجياد القيان :

تَرُوعُ حِصَاةُ حَالِيَةِ الْمَذَارِي قَتْلَيْسِ جَانِبِ الْعِقْدِ النَّظِيمِ  
ولمَّا مُلْتَنَا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ طَرَبَا . وَقَضَيْنَا عَجْبًا . قَلْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ لَا  
قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . مَا أَعْجَزَ الْخَلْقَ عَنْ شُكْرِ نِعْمَاهُ . وَإِذَا بَقِيْمٌ عِنْدَ بَابِ  
الْقَصْرِ . كَأَنَّهُمْ أَفْرَاحٌ فِي مِخْلَبِ صَقْرٍ . تَعْلُو وَجُوهُهُمْ قَتْرَةً . تَرَهَقُهَا  
غَبْرَةٌ . وَهَمَّ بَيْنَ بَاكِ وَمُنْتَجِبٍ . وَصَارِخٍ وَمُصْطَخِبٍ . فَتَفْرَسَتْ فِي هَيْثَاتِهِمْ .  
وَهُمْ يَذْكُرُونَ حَاجَاتِهِمْ . فَذَاهُمْ جَمِيْعًا فِي يَأْسٍ وَقَنُوطٍ . وَخَيْبَةٍ وَجَبُوطٍ .  
وَإِذَا الصِّرْفِيُّ يَقُولُ . بِصَوْتِ الْمُقْهَرِّ الْمَخْذُولِ :

(الصيرفي) - تمسألى لقد ضاع مالى . وذهبت آمالى  
(التاجر) - وبؤسألى لو كنت أعلم بهذه المآل . لم أقم فى تلك  
الجبال  
(البائع) - يا ويح نفسى اغتررتُ بالمقام العالى . نفسرت  
رزق عيالى  
(الجوهري) - ويل لمن خدعته الظواهر . فضاعت عليه الجواهر .

(الصيدلاني) — أقسمتُ لا يضيع عنده ثمن الدواء . ولو تعلق  
بأطراف السماء

(الحمّار) — تَبَّأَ لَهُ مِنْ مَحْتَالٍ مَالٌ عَلَى دَنِي . ثم اختفى عن عيني

(القصاب) — أنا لا يضيع عنده حتى . ولو وضعوا السكين على حلقى

(الخطاط) — وأنا لا أترك هذا الباب . حتى أمزق ما عليه من الثياب

(الاسكاف) — ورأس أبيه وجدّه . لا آخذن ثمن الأحذية

من جلده

(الحلاق) — أنا ابن جَلَّاءٍ وطلّاع الثنايا . وكم لصنعتي من منافع

ومزايا . وليتني كنت شوّهت خلقته . ومسخت سحنته . ففتفتُ شاربه .

وحلقت حاجبه . تالله لا آخذن بناصيتي هذا الثقل البارد . ولا أسدنّ

عليه المصادر والموارد . ولا لزمته صباح مساء . ولو حلق في الهواء

كل هذا والخدْمُ يكتمون وجودَ صاحب الدار . ويُسمون انه

لم يبق لديه درهمٌ ولا دينار . واذا همَّ أحدُ الغرّماء بالدخول منعه . أو

دافعهم أحدُهم دفعوه . وبينما نحن نتأمل وتتعجب . ونقلّي على الجمر

ونقلب . ونقابل بين سعد المكان . ونحس السكان . اذا برجلٍ لافرنجى

قد خرج من بيت الحرم . وهو يلتهب غيظاً ويضطرم . ويقول للبواب

برطاته . وسوء عبارته : لقد طالبتُهُ فأباز الافلاس والعجز . فلم يبق

الا توقيع الحجز . واليك قائمة البيان . وحذار من التاف والنقصان . وما

كاد «مُحضّر المختلطة» ينتهي ويذهب . حتى حضر «مُحضّر الاهلية»

يلهث من التعب . فسلم البواب ورقة إنذار . فاخذها وهو يدعو بالشبور  
والدمار . وبمقرب ذلك انصرف المحضر . وتبعه جميع من حضر .  
لاشتداد حر الظهيرة وأوارها<sup>(١)</sup> . ولفج الشمس للوجوه بنارها . فانهزنا  
هذه الفرصة فتحرك مندوبنا وتقدم . وخاطب البواب وهو يتلعم .  
فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه  
البلية . ثم دفعه في صدره . فردّه لنا بظهره . بعد أن أخرجنا من الجنان .  
وأغلق باب البستان . فأخذ المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر .  
ووقف بينهما ينادى في الهواء بالنداء المقرر :

« يا فلان بن فلان بن فلان إن مولانا تاضى مصريا بأمرك بأن تحضر  
الى المحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة  
عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وان لم تحضر فى اليوم المذكور  
ينصب عنك وكيلًا ويسمع الدعوى فى وجهه ويحكم عليك غيايباً »  
ثم ودّعنا المندوب والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت أنا  
والباشا فى دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا . ثم استند الباشا  
الى سور البستان ، وشرع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره :

(الباشا) - مازالت بواطن الأمور وحقائق الاشياء تتجلى لى على  
وجهها منذ عمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحققت اليوم  
بأن أمور هذه الدنيا انما تجرى كلها على التضليل والبهتان ، وتدور على  
التمويه والبطلان ، وتنطوى على النش والتدليس . فبالله عليك من ذا

الذي يرى هذا القصر بزينة وبهجة وخدمه وحشمه ولا يتولاه الحسد  
لسا كنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع الى نفسه  
فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوء قسمته في  
العالم !!

(عيسى بن هشام) - لا زلت ترى الحق وتقول الضد بما يتسع  
لك من سبيل الهداية والحكمة . نعم ان جلّ من نراه من المنعمين المترفين  
والأغنياء الموسرين لو كشفت عن باطن أمرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا  
معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف ،  
ويدعو الى الرحمة والشفقة لا ما يدفع الى الحسد والغبطة . ولأيقنت ان  
ان الرجل الأجير الذي يستخرج قوت يومه منمسا بعرق جبينه هو  
أسعد منهم حالاً وأنعم بالأ . والغالب انه كلما كان مظهر العيش زاهياً  
زاهراً كان باطنه مقتماً مظلماً . وأشد ما يكون من البلاء على أهل هذه  
الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم في الظهور بين الناس على أغرب حالات  
التصنع ، فيكون الواحد منهم غريقاً في بحور الهوموم والاكدار وتراه يقسر  
نفسه بين الملاء على التظاهر بالسرور والانشراح . وأكثر ما يكون في  
الضيق والافلاس تراه يتعرض للتبذير والإففاق ، فهو على الدوام يتقلب  
بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس وان كان عظيم الثروة كثير الغنى ،  
فانه لا غنى مع ازدياد الحاجات ، ولا مال يكفي مع تجدد الرغبات  
(الباشا) - قد كانت الحال في أيامنا على العكس . إن كان لايسرك

من الرجل ظاهر حاله فإنه يرضيك باطن أمره ، وربما كان يجتهد في التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد الغنى ويؤدى الشكوى اذا أسر الرضى قال عيسى بن هشام - وقضينا مدة في مثل هذا الحديث وأنا مهمل مستبشر بما أراه ينمو ويشرف في نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية والتعمق في معرفة الأخلاق النفسانية حتى صار من ديدنه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به الى عالم الفضيلة والحكمة وازددت يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غرّاً بالأمر غافلاً عن حقائق الأشياء فاذا وقع في أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت قريحته وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل اليه

ثم حانت منا التفاتة الى ما وراء السور فرأينا خدام البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب يتدىء فيقول :

(البواب) - ليت أُمى لم تلدنى وليت أبى لم يملئنى رسم الخط، فقد كَلَّتْ يَدٌ وَحَفِيَّ قَلْبِي مِنْ طَوْلِ التَّوْقِيعِ بِالاسْتِلامِ عَلَى الْإِنْذَارَاتِ وَالْمَحَاضِرِ فَقَلَّمَا يَمْضَى يَوْمَ الْأَوَّلِيِّ فِيهِ مِنَ التَّوْقِيعَاتِ مَا لَيْسَ لِرَيْسِ قَلَمٍ فِي دِيْوَانٍ، فَبَيْسَتْ الْمَبِيشَةَ مَعِيشَتِي وَبَيْسَ الْحِظَّ حِظِّي، وَلَيْتَنِي كُنْتُ قَادِرًا عَلَى الْإِنْضِمَامِ إِلَى صَفِّ هَؤُلَاءِ الْمُطَالِبِينَ وَالنُّرَمَاءِ فَأَخْلَصَ بَجِزءٍ مِنْ أُجْرَةِ الشُّهُورِ الْمَتْرَاكَةِ، وَمَنْ لِي بِالتَّبَاعِدِ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي انْتَشَرَ فِيهِ جِرَادُ الْحِجْزِ وَأَزْعَجَتْ مَنْ فِيهِ أَصْوَاتُ النُّرَمَاءِ وَأَزْعَجَنِي تَرْدُدُ الْمُحْضَرِينَ عَلَى صَنْدُوقِ ثِيَابِي

(الكاتب) - لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت وماذا تحتال لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل . وإن صدق ظنى كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب ، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الايام أنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختم أمره بأقبح الخواتم . ويعلم الله أنه لولا ما ألتقطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تسرلى القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور . وقد دعاني هذا الامير أمس وأعطاني خاتماً من الياقوت لا يبعه فذهبت به الى الجوهري الذي كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه فلم يدفع لي فيه الا خمسة وعشرين ، فبعته إياه وعدت للامير بالدراهم فكاننا فككت الأسير من القيد وأتقذت الغريق من الأبح

(الوصيف) - الآن انحل ما كان مشكلاً وانكشف لي ما كان غامضاً فاني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهتد الى مورده أعطاني منه عشرة جنيهات وأمرني أن ابتاع من أخيه هذا الكلب الذي ترونه مؤلماً بعلاعبته منذ الصباح

(الفرّاش) - وأنا اشتريت له من صهره تلك البيغاء بخمسة جنيهات ، وأخذت له غرفة في « تيارو الاوبرا » بثلاثة ، وزجاجة عطرٍ يائنين

(الكاتب) - فعلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهات ولا بد أن

أبادر في الحال لمطالبته بإبجاز الوعد الذي وعدته لصاحب الجريدة المألومة حتى يسكت عنه ويكف عن التعرض له

(السائق) — وأنا أذهب إليه أيضا لأخذ منه بمن الريش والإسفنج

الذي وعدني به ما دام معه من الدراهم بقية

(الخصي) — انكم لفي نعمة وغبطة بما تتألون من وراء هذا البيع

وهذا الشراء من الريح، ولكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الأكل والشرب من غير أجر، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت . وباليات هذه النعمة تدوم فقد سمعتم اليوم وعيد حضرة البك الجزار، كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز

(السقاء) — ما أظن أن لنا حيلة نلجأ إليها في آخر الأمر إلا أن

نطلب منه إحالة أرزاقنا على ريع الوقف الذي سلم وحده من الحجز

(البواب) — لقد خاب ظنك وضاع أملك، فإن هذا الوقف الذي

كنا نرتكن عليه قد دخل في دور القضايا والدعاوى، وجاء اليوم مندوب

المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير، ومن يعلم ماذا يكون من أمره

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشنت الجمع نحو المطبخ لحلول

وقت الغداء، فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا

قال عيسى بن هشام — وحلّ اليوم الموعود جلستنا في المحكمة

الشرعية فتوجهنا إليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته، ولما فتحت الجلسة

تقدمنا إليها وشهد أمامها شهود المعرفة ثم أطلع الأعضاء على الإعذارات

الثلاثة ، فوجدوها جامعة للشروط المقررة ، فأمروا بأن يُنصَب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقاً بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين ، فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ، ثم أخذ محامينا ينظر في صورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانة ليمدّد الأعيان، فلم يجد فيها جميع ما عددناه له بل وجد منها جزءاً قليلاً لا يقوم بالتعب في إقامة القضية وخشي أن المحكمة لا تحكم لنا بغير الميّن في « الصورة » من المقار فتضيع علينا بقية الحقوق ، فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة ، فواقعه الوكيل المنصوب للغائب ، فتأجلت القضية الى ما بعد الفسحة القضائية من العام

وخرجنا من الجلسة مع المحامي وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد . ولما سألناه عن المظان التي تُنبئنا عن بقية أعيان الوقف تلكا في الجواب ، ثم أحالنا على الغلام وتركنا معه وانصرف . فقال لنا الغلام لامظنة عندنا غير ديوان الأوقاف ، لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان ، وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسمي وراء هذا الغرض . فوافقنا على هذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد

## الطب والاطباء

قال عيسى بن هشام - ولما حال أمرنا من المحكمة الى الأوقاف .  
وعلم الباشا بما هنالك من قلة الأوصاف . وأنه لا بد لنا من أن نطيل  
الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغدو والرواح .  
في كل مساء وصباح . فنبتلي في هذا الديوان جِدَّة الزمن . ونقف عليه  
وقوف العاشق على الدَّمَن . لما هو مستفيض من اختلال أعماله . واعتلال  
عماله . وفساد إدارته . وسوء نظارته . نزلَ به من الهم والنم . ما أورثه  
الضَّيِّ والسَّقَم . وحلَّ به من الحزن والكمد . ما أخلَّ بنظام الجسد .  
فقدنا هزيباً نحيلاً . ووقع مريضاً عليلاً . فأشرتُ عليه بالطبيب . قال  
بخطيء ولا يصيب . وماذا يُجدي العلاج وما يفيد . وللآجال توقيت  
وتحديد . فأقنعتُهُ بأن الاعتقاد بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العلل .  
وسبحان من أرشدنا الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء .  
فقبل إشارتي بعد طول الإباء . فجت له بأحد الأطباء . من ذوى الشهرة  
بالبراعة . في ممارسة الصناعة . فجلس بجانبه يحس نبضه ويقرع صدره .  
ثم استلم قلمه وولاه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيدِ داعية  
الاختلاج . ثم قال دونكم هذا الدواء . جرعة في الصباح وأخرى في  
المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن . لا يفتش  
في التركيب ولا يغلي في الثمن . ثم وقف عند المرأة يسوي مفرق شعره .

ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب . بنظر مستراب . كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجاب . من آنسة في الخدر أو كعاب . ولما أعوزته ما تفقده . طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى بعيادته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . ويتلطف من حدته

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجة الحرارة لا تفتأ في صعود . والمريض يهذى في شدة حمّاه . وأنا أنزع وارثمّاه . حتى كدت أياس من الشفاء . وأسلمّ لحكم القضاء . ولكن زارنى أحد الأصدقاء . ممن يولعون بالطب والأطباء . فقال لى وهو يبصر حالته : من الطبيب الذى يعالج علتة . فقلت هو الشهير فلان . قال لى علمتُ السبب الآن . وأنا أنصحك أن لا تعتمد فى الطب . الا على أطباء الغرب . أولئك قوم قد برعوا فى معرفة الامراض . وتشخيص الأعراض . وأحاطوا بكل جليل وحقير . من البسائط والعقاقير . فالأ دواء لا تستعصى فى أيديهم . وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يداينهم . وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلما . وأشهر صيتاً وإسماً . وقام فعاد بأجنبي يهذ الأرض بخطواته . ويكثر من إشاراته ولفقاته . فتقدم نحو المريض نجسّ ولمس . ثم قطّب وعبّس . ووضع طرف منديله على أنفه . وقال لنا فى صلّفه وعُنْفه . إن هواء الغرفة فاسدٌ قتال . وداء المريض داء عضال . ولا رجاء الا باتباع إشارته . فى تواتر زيارته . ثم هزّأ بما رآه من دواء الطبيب الأول . بعد أن

كتب علاجه بوصفٍ مطوّل . وقال لا يُحسن تركيب هذه الأجزاء .  
الاصحاب «صيدلية الشفاء» . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب  
ويحضّر . والعلاجُ يتجدد ويتكرر . والمريضُ يتألم ويتضجر . والمرضُ  
باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر . حتى جاء في خاطري أن أجمع منهم جماعة  
للاستشارة والمداولة . فنخلص من هذه المراوغة والمطاوله . فلما اجتمعوا  
وقعوا في الحجاج واللجاج . ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير  
العلاج . وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه . لا يهتدى إلا بهديه .  
وسمعتَ بينهم مَنْ يقول لرفيقه . لا ينبغي أن نوافق فلاناً في تحقيقه . كما  
أنه لم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية . وأنكر علينا جميع أدويتنا  
الشافية

ثم خلفوني ونزلوا على الخلاف . وإن كانوا اتفقوا في تناول الاجرة  
عند الانصراف . وكنت شاهدت بينهم طبيباً يُظهر نفوره من طريقتهم .  
ويجرى معهم على غير حالتهم . فأرسلتُ في أثره من دعاه . وكاشفته بأنني  
اخترته على سواه . فقال لي إن علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها  
هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية . من  
هومٍ بخافية . فقلت له نعم أصبت في النظر . ثم أخبرتهُ بجملة الخبر . فقال  
الآن تبيّن ان معالجة الأطباء . كانت بغير اهتداء . ولا يلزم لعلاجه الا  
الامتناع عن هذه المركبات . والاكتفاء بيمض البسائط من النبات . مع  
جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقننا حينئذٍ بهارته . وسأمتنا لإشارته . فلم

يعض الا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَور السقم والاعتلال الى دَور النقاهة والإبلال . وجلس الباشا ذات يوم الى الطيب يشكره على حذقه وبراعته . ومحاورنا في الحديث على حسب عادته :

(الباشا) - كيف اهتديتَ أيها الطيب الى ما لم يهتد اليه سواك من الأطباء فأدركتَ سبب علتي وأحسنْتَ تشخيص مرضي وأصبحت في اختيار العلاج فكان الشفاء . لاشك عندي أنك نادرة عصرك ونايئة زمنك

(الطيب) - لافضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء ، والسبب في خطأ الأطباء أن العدد الأعظم منهم يسرون في ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم فهم لا يتخطونها ولا يتعدونها ، فترى كل واحد منهم يحرص في ذهنه على عدة أمراض معلومة وعلى معرفة فيطبق عليها كل ما يراه من الأعراض التي تظهر له في جماعة المرضى - والأعراض تختلف وتشتبه - فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المبعين لذلك المرض المبعين بقطع النظر عن الفحص والتأمل في حال المريض أو البحث والتدقيق في معرفة الأسباب المادية والأديية التي يرجع منشأ المرض اليها ، ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال ، فيعيش في أسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحث في اختلاف الأمزجة وتباين الغرائز وتفاوت المعاش وتغاير القوى في البني فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب

( عيسى بن هشام ) - كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل  
الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى المادة محلّ أعمال الفكرة فتنتقل  
أيديهم على وجه واحد وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن في  
وجوه شتى

( الطيب ) - نعم لقد أصبت في التشبيه . وغير ذلك فان بين  
هؤلاء الأطباء من لا يرى في صناعته الا آلة لاجتلاب الرزق واصطياد  
الربح واستدرار الدرهم والدينار حتى يصلوا الى اكتناز الأموال ويصبحوا  
في مصاف أهل الغنى والثراء لا يبالي أحدهم أى باب طرّق ولا أى  
سبيل قصد للتوصل الى هذا الغرض المطلوب فكل الوسائط لديه مقبولة  
وكل الطرق عنده مسلوكة ، فهو يدخل على المريض طامعاً في ماله لا  
طامعاً في شفائه ، فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته في المرض فيتسع  
نصيبه في الأجرة ، فيعطيه من أصناف الادوية مالا ينفع ولا يضر ،  
أستغفر الله بل ما يضر ولا ينفع . ليقب المريض في حاجة دائمة الى تجديد  
العيادة والزيارة ، وفي كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفاً جديداً من  
المركبات التي يعظم ثمنها بمقدار ما يقلّ نفعها ، وينفسح له بذلك طريق  
للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده له الصيدلى في دقترشركتهما  
ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الادوية المتكررة . فيضرب  
الطبيب في صناعته بقدر حين . ويصيب في الكسب بسهمين . بمد  
أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار . ويُنخلى كيسه من كل فضة  
ونضار

ومن أولئك الأطباء مَنْ يجعل همه منصرفاً الى الإبداع والتفنن .  
في وجوه التزني والتزين . ويسلك سبيل التصنع والتكلف . في أبواب  
التظرف والتلطف . ثم يتفنن ما استطاع في حسن المحاضرة . ويتعمد رقّة  
الحديث والمسامرة . ويتقلب في أساليب المؤانسة والمجاملة . وأفانين  
المغامزة والمغازلة . ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة . وسوقاً رابحة . فيحل  
من أهل الحرم محل الجليس المحبوب . والأُنيس المطلوب . وينزل من  
ربات الخدور . بمنزلة المُحَبِّ المَكْرَم . ويكون بين مقصورات القصور .  
أكرم زائر في أرحب منزل . والنساء لا يعدمن العلات . على العلات .  
ولا تُعوزهنّ العلل . في اختراع العلل . لاسيما إن كانت دعوى المرض .  
تُدني من نيل الغرض . فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات .  
وروحات وغدوات . والطبيب كما يعلم الناس مؤتمن الجانب . يؤتمن فوق  
الأهل والأقارب . تُفتح أمامه الأبواب . ويُكشف من دونه الحجاب .  
فترى له زيارات بين كل صباح ومساء . تُكتب له بوافر الأجر وسوء  
الجزاء . بوافر الأجر في دفتر حسابه . وبسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه .  
ومنهم من يتطلع الى ما فوق ذلك فيطعم في ثروة البيت باكملها وفي  
حيازة الأموال بأجمعها فيديم التردد ويؤالي العشرة ويحكم الصلة ويلحم  
الخلطة ، حتى اذا تآربت عقدة الجبل تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت  
وصاحبة المتاع على التأهل بها ، لا التفات هناك الى تفاوت الأقدار ولا  
عناية بوجوه الكفاءة ، فتصبح له حليّة . بعد أن كانت خلية ، وينتهي ما  
كان من أمر الداء والعلاج . بما تم من أمر العقد والزواج

(عيسى بن هشام) - الآن تَبَيَّنَ لِي مَا كَانَ عَلَى غَامِضًا وَاتَّضَحَ  
مَا كَانَ مَبْهَمًا مِنْ أَمْرِ الطَّيِّبِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَمَاجِجَاتِ الْبَاشَا فِي كَثْرَةِ  
الزِّيَارَةِ وَقَلَّةِ نَفْعِ الدَّوَاءِ وَشِدَّةِ التَّدْقِيقِ فِي تَعْيِينِ الصِّدْيَةِ وَطَوْلِ اسْتِرَاقِ  
النَّظَرِ لَمَّا وَرَاءَ الْحِجَابِ

(الطيب) - أَجَلٌ . هَذَا هُوَ حَالُ بَعْضِ الْأَطْبَاءِ مَعَ الْأَعْلَاءِ  
وَأَشْبَاهِ الْأَعْلَاءِ . فَمَا حَالَهُمْ مَعَ الْأَصْحَاءِ وَذَوِي السَّلَامَةِ مِنْ بَعْضِ الْخَلْقِ  
فَهُوَ أَعْجَبٌ وَأَغْرَبٌ . وَمَا يَعْزُبُ عَنْكَ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤَلَمِينَ بِسُوءِ  
التَّقْلِيدِ لِلْفَرِيِّينَ وَالْمَهَالِكِينَ عَلَى حُبِّ التَّظَاهِرِ بِمُظْهِرِ الرَّفِّهِ وَالتَّرَفِ  
يَتَغَالَوْنَ فِي الْإِحْتِيَاطِ لِأَبْدَانِهِمْ وَيِيَالْعُونَ فِي التَّوَقُّي لِأَجْسَامِهِمْ ، فَيَنْمُو  
فِيهِمْ وَسُوسُ الْمَرَضِ وَالسَّقَمِ فَتَرَاهُمْ يَتَوَجَّسُونَ مِنْ كُلِّ أَكْلَةٍ شَرَا .  
وَيَتَوَقَّعُونَ مِنْ كُلِّ شَرْبَةٍ ضَرَا . وَيَتَخِيلُونَ أَنْ فِي كُلِّ لُقْمَةٍ تَحْمَةٌ .  
وَفِي كُلِّ جَرْعَةٍ غَصَّةٌ . فَلَا يَتَنَاوَلُونَ قَدْحًا مِنَ الْمَاءِ . أَوْ يَسْتَنْشِقُونَ نَفْسًا  
مِنَ الْمُهْوَاءِ . الْآ وَفِي اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ كُلِّ هَامَّةٍ سَامَةٍ . أَوْ جَرْتُومَةٍ  
ضَارَّةٍ . وَلَا يَزَالُونَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى يَمْتَنِعُوا عَمَّا فِيهِ صَلَاحُ أَبْدَانِهِمْ  
مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَيُبْعَدُوا مَا اسْتَطَاعُوا فِي طَرُقِ الْحَيَاةِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ  
وَلَا دَاءٍ فَيَبْدِلُوا الْمَاءَ الزَّلَالَ بِالْمَاءِ الْمَعْدَنِيِّ ، وَيَهْجُرُوا الْأَغْذِيَةَ الْمُنَاسِبَةَ  
لِتَرْكِيبِ الْجِسْمِ وَقَوَامِ الْبَدَنِ إِلَى الْأَطْعَمَةِ الْفَرِيبَةِ عَنْ أذْوَابِهَا الْمُنَافِرَةِ لِنَسِيحِ  
أَبْدَانِهِمْ ، فَيُضْطَرُّ نِظَامُ التَّرْكِيبِ وَتَضْعَفُ الْبَنِيَّةُ ، وَيَصْبِيحُ كُلُّ وَاحِدٍ  
مِنْهُمْ جَارِمًا بِأَنْ بِهِ دَاءٌ دَفِينًا وَمَا بِهِ مِنْ دَاءٍ وَعَلَّةٌ كَامِنَةٌ وَمَا بِهِ مِنْ عِلَّةٍ ،

فيشكو أمره الى الطيب فيكون الطيب حينئذٍ أسرع من وهمه  
وخياره في اختلاق علة له واختراع مرض دون أن يفحص أمره أو يبلو  
خبره ، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفرع ، ويؤالى عليه الطيب  
ما يؤالى من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة والمركبات الحادة  
فيتصرف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها  
من ألوان الطعام والغذاء ، ويتقيد المسكين بعميشة لا تُناسب غريزة  
البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الإقليم ، ولا توافق الآمنُ جمدتُ  
عروقُ آبائه تحت جليد لوندرة، لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير  
القاهرة ، فلا يلبث أن يأتي على ما بقي في الجسم من قوة ، وما في البدن  
من صحة، ويميش إن عاش في يد الطيب حياً كيت. ويكون بين الاموات  
والأحياء . لا من هؤلاء ولا من هؤلاء . الى أن يُلحد في لحده . شهيد  
طيبه وقتيل يده . وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد  
المداد . ما كتب على قبر عظيم من قدماء القواد: « لم تمتنى قوة الاعداء،  
وانما أهلكتنى قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرئ العادة فأصبحنا لا نرى في  
جمهور من نراه من المترفين المقلدين الا شاكياً من ألم أو متألماً من  
مرض ، فراجت سوق الطب وعظم عدد الأطباء وغدت حوانيت  
الصيدالة في الاسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين .  
وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج ،  
وقل أن تجد اليوم بيتاً خالياً من مريض ولا مجلساً ليس فيه من سقيم

(عيسى بن هشام) — كأنك تحاول أيها الطبيب الآسى أن تقنعنا بقوة البرهان وجلّى البيان ان لا فائدة من الطب ولا منفعة في الأطباء (الطبيب) — حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد أو أن يذهب بقولى خلاف مذهبه ، وما قصدت بكلامى هذا كله الا أن أظهر عيب بعض الأطباء فى ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها ، على انه يمكننى أن أضيف الى ما قلته ما قد قيل من قبل وهو أن العلم عِلْمَان علمٌ تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الاثر . محمود الورد والصدر . وعلمٌ تصدأ منه الأفهام . وتفضل به الأحلام . فهو ونبؤ المرعى . سبيء العقبى . وكذلك الطبُّ طبانِ طبٌ يصحح الأجسام . ويشفى الأسقام . فهو عظيم النفع جليل القدر . وطبُّ يورث الأمراض ويولد الأدواء فهو شديد الوطء عظيم الضرر . ومدارُ الأمر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطيب والخبيث . ولا تتوهمن أيضاً اننى أتناول بكلامى جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكننى أعنى من بينهم اولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها ، أو يتعمدون الحيل وينصبون الأشرار حتى يعتل جسم الصحيح ويُزمن مرضُ المريض ليكون لهم من وراء ذلك ما يسدُّ بعض شرههم فى الفنى واليسار . وما أولى سائر الناس بأن يُثبتوا بينهم عادة أهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء الاطباء . وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ما داموا أصحاء ، فاذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء

عن الطيب حتى يعود المريض الى سلامته، فيكون من مصلحة الأطباء على الدوام ان تطول مدة السلامة وتقصّر مدة العلة، على خلاف الحال بيننا وما ينبغي أن ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من ذوى الحذق والامانة الذين يوفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائهم، والذين يراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال في الملل والامراض وما تقضى به أحكام البلاد والعادات واختلاف الأمزجة والطبائع، والذين يعملون لأنفسهم من حسن تبصرتهم وكثرة تجربتهم عُدّة حاضرة لمقاومة الأمراض وصحة تشخيص الأدواء ولطف تناسب العلاج وحسن الإرشاد لرفع الوسواس ودفع الخيال وما يجرى هذا الجزى من استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار مما لا يليق الا بأهل الإقليم البارد واجتناب ما لا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهزة لطبائع أهل البلاد الغربية. ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أنه يجب على الطيب في مصر أن يختار ما يكون من الأدوية وغيرها ألين قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولا يلحق أبدانهم منها مضرة وأن لا يقدم على كل الادوية المسطرة في كتب أهل الغرب، فان أكثرها عمات لا بدان قوية البنية عظيمة الأخلاط على خلاف المهود في أهل مصر، فيتمين على الطيب حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من مقدار تركيبها ويبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه، وأن لا يهمل

الاعتماد على الأدوية الطبيعية وهي البسائط واللين والحمية والنصد والاستحمام والرياضة والهواء ، وأن يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة في ذاتها لا يبادلها لديه سواها من سائر اللذات ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون ، فتعظم عنده نفسه ويشرف في عينه قدره فيترفع عن سفالة الطمع وحطّة الشره ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة ، وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مالٍ وجاهٍ أو زخرفٍ ومتاعٍ في جانب لذة الإتقان في الصنعة والإحسان في العمل . وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل ، وهو القيم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الأجسام والرقيب على اعتدال الأمزجة والمشرف على سلامة الجوارح . لا بل أية صناعة في الوجود تفضل صناعته وهي أمس الصناعات بمخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر ، وإذا كان قد بلغ عجب الصناعة بأحد النحاتين المصورين في الزمن السابق لما ازدهاه جمال الإتقان والإحكام في صورة إنسان نحتها من المرمر أن استخفه الطرب واستفزه لذة الصنعة فعمى عليه فأعمى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان بمد أن أحكمت فيه خلقة الأنسان ، ويكلف الجماد ، وقد أتقنت فيه الصنعة ، أن يخرج من الجمود إلى الحركة ، حتى أطار عنه بعض أجزاءه وبقي التمثال قائماً إلى اليوم يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال في جمال الإتقان ومقدار لذة الإحسان في عمل الإنسان - فإياك بلذة

الطبيب ومقدارِ طرْبِهِ في صناعته إِذَا هو شاهدُ أَجْسَامِ الأَحْيَاءِ أَمَامَهُ  
وقد استخلصها من شوائبِ الأَمْرَاضِ واستنقذها من آفاتِ العاهاتِ ،  
ورَدَّها الى سواءِ التكوِينِ ، وأعادَ نظامَ الخَلْقَةِ الى أَصلِهِ وانتساقَ التركِيبِ  
الى شكلِهِ . فهل يجوزُ في العقلِ لمن يدركُ كنهَ هذهِ الصنّاعةِ من الأَطْبَاءِ  
أَن يَرِغِبَ عن تلكِ الدرْجَةِ الرَفِيعَةِ الى الدرْجَةِ الوَضِيعَةِ فينزلُ بصنّاعتهِ  
الى مِصَافِ أَهْلِ التِجَارَةِ والسَّلْعِ لا يفقهُ فيها من معْنَى سِوَى اصْطِیادِ  
الدَّرْهِمِ ، ولا يعلمُ لها من مَزِيَةِ سِوَى الاحْتِیالِ على اكتسابِ الأَمْوَالِ ، لا جرمَ  
أَن الطَّيِّبِ المدْرِكِ يفضِّلُ لذّةِ صنّاعتهِ في ذاتها على كلِّ لذّةٍ ويسلوُ عندها  
أَعْظَمَ مَزِيَةٍ في العالمِ وأَعْلَى رِتبَةٍ . وفصلُ الخُطابِ . في هذا البابِ . أَن يكونَ  
مَبْلَغُ هِمَّتِهِ . وَجَمْعُ لذتِهِ . أَن يرى المَرِيضَ بعدَ شِفائِهِ . بوجهِ لامعٍ  
كالدينارِ . لا أَن يراهُ في طولِ شِقائِهِ . بنظرِ طامعٍ في درْهِمٍ أو دينارِ

( قال عيسى بن هشام ) - فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في  
مقالته . وحسن نظره في صنّاعته . وسألت الله لجماعة الأطباء . أَن يهتدوا  
مثل هذا الاهتداء . ثم إنى ودعتهُ بعدُ أَن عَيَّنَ لنا البَقْعَةَ المُناسِبَةَ لتبديلِ  
الهواءِ . وقرَّرَ ما يناسبُ حالَ المَرِيضِ من العِلاجِ والغذاءِ . الى أَن يتدرجَ  
من النقاهاةِ الى تمامِ الشفاءِ

---

## الطاعون

(قال عيسى بن هشام) - فَطَاوَعْنَا الْقَدْرَ . وَعَزَمْنَا السَّفَرَ . التَّمَاثُا  
لِبَرِّ الدَّاءِ . بِتَبْدِيلِ الْهَوَاءِ . وَنَزَلْنَا مِنْ ضَوَاحِي الْإِسْكَانِدْرِيَّةِ قَصْرًا إِذَا  
رَوْضَةٌ غَنَاءُ . فِي بَقْعَةٍ فَيَحَاءُ . لَا تَسْمَعُ فِيهَا إِلَّا هَدِيدَ الْوَرَقَاءِ . إِيقَاعًا عَلَى  
هَدِيرِ الْمَاءِ . فَإِذَا بَلَغَ الْمَوْجُ جَنَاحَ الذَّسِيمِ . فَرَفَرَفَ عَلَى ذَلِكَ الرَّوْضِ  
الْبَسِيمِ . تَنَزَّ الْمَاءُ دَرَاً عَلَى تَيْجَانِ الزَّهَرِ . وَرَقَرَقَهُ دُمُوعًا فِي أَحْدَاقِ  
الْعَبَّهْرِ<sup>(١)</sup> . هُنَاكَ يَتَمَنَّى الْعَاشِقُ لَوْ اسْتَعَارَ هَذِي الدَّمُوعَ لِمَاجِرِهِ . فَيَسْتَلِينُ  
بِهَا قَلْبَ شَاجِيهِ وَهَاجِرِهِ . وَتَوَدُّ الْغَائِيَةَ لَوْ نَظَّمَتْ مِنْ ذَلِكَ الدَّرِّ عَقْدًا  
لِنَحْرِهَا . أَوْ نَطَاقًا لِنَحْرِهَا :

إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ شَيْءٌ عَجِيبٌ تَضْحَكُ الْإَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ  
ذَهَبٌ حَيْثُ مَا ذَهَبْنَا وَدُرٌّ حَيْثُ دُرْنَا وَفِضَّةٌ فِي الْفِضَاءِ  
أَوْ قُلْ إِنَّهُ الْمَجْرَةُ قَامَتْ فِيهِ زَوَاهِرُ الزَّهَرِ . مَقَامُ الْكُوكَبِ  
الزُّهْرِ . وَعِنَاقِيدُ الْكُرُومِ . مَقَامُ ثَرِيَا النُّجُومِ . وَأَنْوَارُ الْأَنْجَارِ . مَقَامُ الشَّمْسِ  
وَالْأَقَارِ . فَأَقْنَا فِي ذَلِكَ الظِّلِّ الْوَرِيفِ . مَدَّةً مِنْ أَيَّامِ الْخُرَيْفِ . وَمَكْنَا  
نَقَطَ القَطُوفِ الدَّانِيَةِ . بَيْنَ تِلْكَ الْأَعْيُنِ الْجَارِيَةِ . فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ .  
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ . آخِذِينَ بِمُسْتَنِّ النَّحِيْزَةِ .<sup>(٢)</sup> وَمُجْتَنِّ الْغَرِيْزَةِ . فِيمَا  
يُوَافِقُ صِحَّةَ الْبَدَنِ مِنْ طَعَامٍ شَهِيٍّ . وَغَدَاءٍ مَرِيٍّ . وَرِيَاضَةٍ لِلْأَعْضَاءِ .

(٢) النَحِيْزَةُ ، الطَّبِيْعَةُ

(١) الْعَبَّهْرِ ، التَّرْجَسِ

دون تعب أو شقاء . وتطهيرٍ للنفس من أدران الكدر . بلطف البحث  
وحسنِ النظر . وتجريدٍ للصدر من عوامل الهواجس . وغوائل  
الوساوس . بالتبصر في حقائق الوجود . والتمعن في صنعة الخالق المعبود .  
وأفضتُ بصاحبي طيبُ هذه الإقامة . الى المقصود من تمام العافية  
والسلامة . لولا أن راعنا شيطانٌ من الإنس بخبر الطاعون . فقلنا إنا لله  
وإنا اليه راجعون . وسبحان الله والحمد لله ما زلنا نعلل النفس . بزوال  
النحس والنكس . وما زالت تُناوبنا النوائبُ والأحزان . وتُراوحنا  
النوازل في كل منزل ومكان . وانبرى الباشا يسألني عن هذا الطاعون  
وأخباره . وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره . فأجبتُهُ بأنه لا يلبث أن  
يصبح أثرًا بعد عين . وما أصاب إلى اليوم الا عدد أصابع اليدين . وقريباً  
يفرُّ من أماننا هذا العدو المناجز . وُردد في أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رِمَاحَ الجِنَّ وَأَذْهَبَ التَّعْذِيبَ والتَّجَنِّيَ

(الباشا) - كيف تدعى ذلك وترعمه ، وما عهدت منك إخفاء  
للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيلُ تدوب لها المآقي  
والأحداق وتتفطر منها القلوب والا كباد ، وهو عندنا من أمراض  
مصر الموضوعية التي تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون يتوقعونه  
لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة « الفصل » ، فيقولون جاء « الفصل »  
عند ظهور الطاعون ، فترتاع النفوس وتنخلع القلوب وتُخَوِّرُ القُوَى  
وتذهل العقول ، ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف سبيلُهُ عند

حاجز ولا يمنع اندفاعه مانع ، ولا تفيض قرارته حتى يخرب القصور .  
ويعمر القبور . فتصبح الاطفال يتامى . والنساء أياى . ويمسى الخلق بين  
ثاكل ومشكول . وحاملٍ ومحمول : هذا يبكى أباه . وذاك يندب أخاه .  
وهذه تُلَوّل على أهلها . وتلك تنوح على بملها . وقد سمعتُ عنه فى زمانى  
من أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥ :

« ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ ودأخل الناس منه وهم  
عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه فى رجب وشعبان ومات به من لا يُحصى  
من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والماليك والأجناد والكشاف  
والأمراء ، ومات من الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنجقا منهم  
اسماعيل بك الكبير . وقد أفنى عسكر القليونجية والأرنؤوط المقيمين  
بمصر القديمة وبولاق والجيزة وكانوا لكثرة الموتى يحفرون حفراً  
بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها . وكان يخرج من  
بيت الامير فى الجنازة الواحدة الخمسة والسته والعشرة ، وازدحم الناس  
على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم ويطلبون من يحملون  
النومر فلا يجدونهم ، ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك .  
ولم يبق للناس شغل الا الموت وأسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو  
عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفنٍ أو مشغولاً  
بتجهيز ميت أو باكيًا على نفسه موهوماً . ولا تنقطع صلاة الجنازة من  
المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الآ على أربعة أو خمسة ، وتدّر من

يصاب ولا يموت ، وقلَّ ظهور الطمن على الجسم فيكون الإنسان جالساً فيرتمش من البرد فيتدثر فلا يُفِيق الا مغلطاً أو يموت في غده إن لم يموت في نهاره. واستمر فسكه الى أوائل رمضان فمات الأغا والوالى في أثناء ذلك فولوا خلفهما فماتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلفهما أيضا. واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في سبعة أيام. وأُغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفسا فماتوا جميعا»

(عيسى بن هشام) - انى لأظنك تصف لى موقعا شاهدته من مواقف الآخرة وأهوال القيامة

(الباشا) - وما كان الامر ليقتصر في الطاعون بعد ذلك على فسكه بل كان يزيد عليه من البلاء مادسة الإفرنج للولاية من وجوب لزجاج الناس بأمر تشق على نفوسهم يزعمون انها تدفع الطاعون فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض ويفرقون بين الأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه ، ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التي تؤذى النفوس وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس ويلا على ويل وحزنا على حزن وخرابا فوق خراب. وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصي في سنة ١٢٦٠ ، وتص على أخى مارآه منه في سنة ١٢٢٨ وهو في خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير ، قال :

« أمر جنتم كان محمد على بعمل « كور نتيه » بالجيزة في اليوم العاشر

من ربيع الثانى وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الوم من الطاعون  
لوقوع القليل من الإصابات بمصر . ومات به الطيب الفرنسى  
وبعض من نصارى الأروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيله وأنها تمنع  
الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير  
على مذهبهم ، واتفق أن مات بالطاعون شخص بالحكمة من أتباع  
القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخيره بالأبخرة  
المتنوعة وكذلك الأواني التى كان يمسها وأمروا أصحاب الشرطة انهم  
بأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكف والنظف ونشر  
الثياب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين  
ودخنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا على كورنتيلة  
الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان  
يملك قوته وقوت عياله ستين يوما واختار الإقامة فليمكث بالبلدة  
والا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد ، وأعطوا مهلة أربع  
ساعات ، فانزعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم من أقام  
وكان ذلك فى وقت الحصاد وللناس مزارع ومرافق مع مجاورهم من  
أهل القرى ، ولا يخفى احتياج الانسان لبيته وأهله وعياله وأسباب  
رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدوا خروق السور والابواب  
ومنعوا مرآكب المعادى من السير . وأقام الباشا فى بيت الازبكية لا  
يجتمع بأحد من الناس الا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من

ذلك اليوم وصعد الى قصره ووقف مركبين الأولى ببر الجزيرة والأخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة فاذا أرسل الكتخدأ أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسل للمقيّد بذلك في طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيخ واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزراق آخر على بعد منهما ويعود راجعاً فاذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضا بمزراق ونمّسها في الخلل وبجرّها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه بكيفية أخرى ، وأقام الباشا على ذلك أياما وسافر الى الفيوم ثم عاد وأرسل ممالিকে ومن يخاف عليه الموت الى أسيوط . »

( عيسى بن هشام ) - لعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس في الازمان الغابرة - ولا يزال بيننا الى اليوم بقية منهم - من الأخذ بأسباب التوقى والاحتياط لدفع فائلة الطاعون لجهلهم بحقيقته وأسباب انتشاره هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصت على طرفاً منها ، وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويستخرون منها

( الباشا ) - قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى بالأجل ، وأى ارتباط بين هذا البخور وحى الطاعون ، اللهم الا أن يراد به تلطيف أمزجة الجن

( عيسى بن هشام ) لا يفوتك أن كثيراً من الحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد بالعلم

ولبعد تناوله على بقية الطبقات ، فلما انتشر العلمُ وأضاء برهانه كَشَفَ للناس ما كان مكنوناً عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما كانت تقف دونه الأفكار حَيْرَى . فان كان الناس في زمانكم يمتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لا شيء يَقْوَى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين بأن للطاعون جنوداً لا تدرکها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الأسنه وِعْوَالِي المران<sup>(١)</sup> ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسّم الأشياء الدقيقة وتمظها وتبرزها مرئيةً للعين فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدروا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها

(الباشا) - وماذا تُجدي الوقاية والحذر من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) - حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين فقد ظاهرَ عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين . وقال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة » ولِطُرُق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفي الذي يسمونه « الميكروب » وهو دُوَيِّبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر مدة من الزمن . وهم يتخذون البخور في الوقاية لينحل تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا ينتقل بها عدواهُ

(١) المران ، شجر يتخذ منه الرماح

(الباشا) - لقد كشفت لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى ، وهل لك فى أن تطلبنى على تلك الآلة العجيبة المجسمة للأشياء الدقيقة لازداد تبصرة وهدى بالنظر فى عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام - فذهبت الى معمل كيمائى وأريته نقطة من الماء تحت « المكروسكوب » فلما رآها كأنها غدير ورأى ألوف الألوف من الهوام سابحة فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق والتمجيد لعظمة الصانع وتلا قوله عز من قائل : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل ما فعله ذلك الهندى مع العالم الألمانى حيث آراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ليقنعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوانات فسخر الهندى منه وكسر الآلة لإصراراً على الباطل وعناداً للحق . ولما أيقن الباشا بصدق ما قلته وما رآه وأن العلم هزم جنود الطاعون وحطم رماحه ولولاه لمات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات سألتنى يقول :

(الباشا) - ومن المخترع لهذه الآلة التى تدل بغير واسطة على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين . وفى أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لتردد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد

(عيسى بن هشام) - أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالعهد بهم فى معزل عن هذه

العلوم النافعة والمخترعات المفيدة ، وما نشط لرؤيتها احدٌ منهم وهم الى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دين الاذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها الا ما نَحَرَ كَتَبَهُم من الأَرْضَةِ (الباشا) — ومع هذا كله فلا مُقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أصيبت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قَدَرِ الله الى قَدَرِ الله ، فَعُدُّ بنا الى مصر إن شاء الله آمين

قال عيسى بن هشام — فأجبتة الى سُؤله وقفلنا الى القاهرة . بعد أن ودَّعنا تلك المناظر الباهرة

## الرباء

قال عيسى بن هشام - وأقناني مصر مدة وقد أبلى الباشا من علقته  
وسقمه . وتمت له العافية والسلامة في جسمه . فاخذتُ أهنته ذات يوم  
بالشفاء والإبلال ، من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة الإبدان .  
هي ملكُ السعادة للإنسان . وانك لو جمعتَ نعم العالم كلها  
للمريض . من مالٍ واسعٍ وجاهٍ عريض . لانصرفتَ نفسكُ عنها .  
انصراف الضب عن الماء . والأرمد عن الضياء . والمعود<sup>(١)</sup> عن شهى  
الغذاء . وأن خاتم الياقوت في الإصبع التي أصيبت بدُمْل . لا يساوى عند  
صاحبه حبة من خردل . وأن ما اجتمع في سرير الملك من العزة والبأس .  
لَيَهُونُ عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

وَمَنْ يَكُ ذَافِمٍ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهَ الْمَاءِ الزُّلَالَا

وكنت كلما زدت من هذه الموعظة والحكمة . أراه قد زاد في  
الإعراض عن شكر تلك النعمة . فتحققت أن المرء انما يذكر النعيم في  
البؤس ولا يذكر البؤس في النعيم . وينسى المرض في الصحة ولا يذكر  
الصحة الا وهو سقيم . وقل من يحمد النماء في لبسها . ويدرك سعادة  
الحياة الا في نحسها . فهذا معنى من معاني الآية الشريفة : « وإذا مسَّ  
الإنسان الضرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ

(١) المعود ، الذي يعمدته وجع من مرض

كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسَّةٍ « فَسَأَلْتُهُ عَمَّا دَهَا . وَأَذْهَلَهُ عَنِ شُكْرِ اللَّهِ .  
فَأَجَابَنِي يَقُولُ . فِي حَالِ الْخَبَلِ وَالذَّهْوَلِ :

( الباشا ) - فِيمَا الْهِنَاءِ بِكَشْفِ الْبَلَاءِ وَالضَّرْرِ . وَمَا انْتَقَلَتْ مِنْ  
خَطَرٍ إِلَّا إِلَى خَطَرٍ :

فَإِنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ سَأَلْتُ مِنْ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ  
أَلَمْ تَسْمَعْ مَعِيَ بِخَبْرِ انْتِشَارِ الْوَبَاءِ فِي مِصْرَ بَعْدَ أَنْ خَلَفْنَا الطَّاعُونَ  
فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ . فَمَا هَذِهِ الرِّزَايَا الْمُنْسَاقِطَةُ . وَمَا هَذِهِ الْبَلَايَا الْمَتَلَحِّقَةُ . أَوْ  
كَلِمَاتِنَا مِنْ بَلَاءٍ دَخَلْنَا فِي بَلَاءٍ . وَانصَرَفْنَا مِنْ شِقَاءٍ إِلَى شِقَاءٍ

( عيسى بن هشام ) - أَرَاكَ لَا تَزَالُ كَأَمْثَالِكَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ . يَغْلِبُ  
عَلَيْكَ الْفِرْعُوعُ وَالْوَسْوَاسُ . وَإِنْ كُنْتَ جَرَّبْتَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ شِدَّةَ  
الْأَلَمِ . وَذُقْتَ فِي الْقَبْرِ رَاحَةَ الْعَدَمِ . وَأَنْ مَا كُنْتَ تَتَمَنَّى عَلَى دَهْرِكَ .  
مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى قَبْرِكَ . عِنْدَ اشْتِدَادِ الْكُرُوبِ . مِنْ وَقْعِ الْخَطُوبِ .  
لَمْ يَكُنْ لَشِجَاعَةِ فِي النَّفْسِ . تَسْتَهِينُ بِسُكْنَى الرَّمْسِ . بَلْ كَانَ لَضَمْفِكَ  
عَنْ اِحْتِمَالِ الْآلَامِ . مِنْ نَوَازِلِ الْأَيَّامِ . وَأَرَاكَ لَا تَزَالُ مَعَ صِحَّةِ الدِّينِ .  
وَقُوَّةِ الْيَقِينِ . تَرْهَبُ الْمَوْتَ وَتَخْشَاهُ . وَتَعْتَوِرُكَ الْأَهْوَالُ مِنْ ذِكْرَاهُ .  
وَهَذَا دَاءٌ فِي النَّاسِ قَدِيمٌ . عَزَّ شِفَاؤُهُ عَلَى كُلِّ مُرْشِدٍ وَحَكِيمٍ :

وَخَوْفُ الرَّدَى آوَى إِلَى الْكَهْفِ أَهْلَهُ

وَعَلَّمَ نُوحًا وَابْنَهُ عَمَلِ السَّفِينِ

وما استعذبتُهُ رُوحُ موسى وآدمِ  
وقد وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتِي عَدْنِ

ولكنني لا أزيدك في الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات  
الهواجس والوساوس بأحسنَ من أن أقرأ عليك مقالة نافعة اطلمت  
عليها اليوم في بيان أحوال الناس وتقسيم طبقاتهم في أهوال هذا الوباء ،  
فإن اردتَ ، تلوثها عليك ، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئتَ

(الباشا) - هاتِ أسمعني لازلتَ للحق راويا . وللهدي داعيا

(عبسي بن هشام ) قارئاً - « إنما النوازل العظيمة والخطوب  
الجسيمة محكّ الطباع ومِسْبار الأخلاق ، فهي لشدتها وهولها تكشف  
عن الناس ما يخفونه عن الناس ، وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن  
حقائق الصفات ، فلا تمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها  
ولا التطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلى للناظر بما اشتامت عليه  
ضمايرها واحتوته سرايرها من قوة أو ضعفٍ ومن فضيلةٍ أو قبيصةٍ ومن  
علمٍ أو جهل . وهنا يتمكن الباحث في الاخلاق من النظر فيها نظرة  
التبنت والتحقق وهي مجردة أمامه من كل غشاء ، عاريةٌ من كل غطاء

» وليس في باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب  
أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاءِ هذا الوباء . فذلك لا نرى  
بأساً من الكلام بشيءٍ عما يجده المستقرىء ، لأحوال الناس من طبقات  
المصريين وهم بين أيدي هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى

« فطبقة العامة أناس جُبُلُوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء وتفويض الأمر لأقدار السماء، وهم لا يعلمون من أمر الوباء، ما جراثيم الداء، ولا علة المرض والشفاء، ولا سبب الهلاك والنجاء، وليس في قدرة قادر من البشر أن يرحمهم عن اعتقادهم أو يحوّلهم عن يقينهم ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء أن يضع في رؤوسهم ان الوقاية تمنع من المقدور وأن الحذر يُنجي من المكتوب وأن طب الاطباء يُؤجّل في الأجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم . وهم يرون كل ما يؤثرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيلة اموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد في عمرهم ساعة ولا تكف عنهم غرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الارواح . فهم بمنزل عن الخوف والهلع، وفي أمان من الذعر والفرع، وفي ضمان من الوسواس والهواجس وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الابدان وتعمد الاجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع في مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام « اعقلها وتوكل » لكنهم لا يزالون على كل حال في صحة من الأرواح وأن أعوزتهم صحة الأبدان

« وطبقة الخاصة ونعني بهم أهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم لأحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والإيمان بأنه لن ينالهم الا ما قدره الله لهم، ولا تفتأ تجرى ألسنتهم في مثل هذه

لا هوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله: «ولكلٍّ أجلٌ كتابٌ»: «فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»: «أينما تكونوا يُدرككم الموت ولو كنتم في بروج مُشَيَّدة»: «قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم». تعالى الله أحكم القائلين. وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لا مردّ منه، وأن الانسان عرضة له فى كل وقت ولحظة، وأن طعمه واحد، سواء أكان يمرض الوباء أو صواعق السماء، أو زلازل الأرض، أو كان بفضة شراب أو عثرة قدّم أو لسة حشرة، وأن نفس المرء خطاه الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته فى كل حركة وسكون، وعند كل قيام وقعود:

وما نفسٌ إلاّ يُباعدُ مولداً

ويُدنى الناي للنفوس فتقربُ

وهم يمتقدون حق الاعتقاد أن الحى حى للفناء، وأنه مقيم من دنياه

أبدأ فى أرض وباء، وإن لم يكن ثمّ وباء:

ماخصّ مصرّاً وّبأً وحدها

بل كائنٌ فى كلِّ مصرٍ وّبأً

وأن من فر من المقدور فعلى المقدور نزل، ومن هرب من القضاء

فإلى القضاء رحل:

مهلاً من وبأٍ قررت وهل ترى

فى الدهر إلا منزلاً موبوءاً

وَأَنْ مَنْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ . لَمْ تَنْفَعَهُ تَقِيَّتُهُ . وَمَنْ حَلَّ أَجَلُهُ . لَمْ  
يَحْمِهِ وَجَلَّةُ :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلُتُهُ

وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ

إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب  
التقية والحذر ولا في العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها في حفظ  
صحة الأبدان وما يقرره أهل صناعة الطب من سبل التوقى والتحرس  
إتقائه لما نهوا عنه من الإلقاء بالأيدى الى التهلكة واحتذاءه لما ترسمه  
ظروف الأحوال وتقتضى به أحكام الزمان ، ولا يجدون الطاعة لإشارة  
الأطباء في مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً ،  
وإن لم يكن من وراثتها فائدة فليس في عقباها مضره . فتراهم لذلك في أجل  
مقام من شجاعة القلب وقوة النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين ،  
وعلى أحسن حال من سلامة الجسم وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام  
بما يرشد اليه من وسائل الوقاية . لاسلطة للوساوس والهواجس عليهم  
ولا محل للرعب والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحد منهم  
بالروح السليمة في الجسم السليم

« وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا  
من هؤلاء لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم  
ولم يتأدبوا بأدب الدين ولم يرتاحوا لحسن اليقين بل اقتصرت بضاعتهم

على ما تلقوه في المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم  
التربية النفسانية والفضائل الروحانية . وخلت صدورهم من آيات الله  
والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والإزدراء  
بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير  
الطباع ومعرفة الحقائق ورياضة القلوب على التجلد والثبات عند وقوع  
المكروه ونزول الملمات ، فتجدهم قد ظهروا للناس في هذه النازلة  
الوبائية وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً  
وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدهم قلقاً واضطراباً  
وأعظمهم خوفاً ورعباً وأكبرهم بلاء وكرهاً ، يتمثل لهم الموت في  
أعينهم على أفزع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو  
مسك بنواصيهم ويهابون ذنوبه وهو آخذ بتلابيبهم ، حلّ الخوف  
مفاصلهم واستلّ الرعب نخاعهم فهم يرون في كل عودٍ نمشأ لهم ويمسبون  
كل صيحة عليهم ، أولئك لا إيمان لهم يُثبت أقدامهم ولا علم لديهم يرجح  
أحلامهم ، بل هم على مثل حال المغشى عليه من الموت أو المسوس من  
الشیطان يتوهمون طعم الموت ومذاق الوباء في تنفس الهواء وتناول الغذاء  
وشرب الماء وملامسة الأيدي ومخاطبة الناس ، فإذا رأى المسكين منهم  
تلك الآلة الحدباء تحمّل أحد المصابين بالوباء جمده دمه وسال عرقه  
ومخدت أنفاسه والتوت أعصابه وأمسك من يجانبه يستجده  
ويستغيت ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم

في حالهم هذه من الخور والهلع والفرع والجزع الآبمثل أناسٍ قضى عليهم بالإعدام لوقوتهم فهم وقوفٌ بين يدي الجلاد والسياف إذا قدّم أحدهم للسيف والنطع مات الذي يليه من الخوف قبل القتل . ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليلةً ونهاره عساها تجهّله كيف اطمأنت به الحال . ومنهم من يبائع ويفالي في تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه الاطباء لقتل الجرائم فهو يشربها ويستعظها ويدهن بها جسده ويفمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويفسل بها آنية طعامه وشرابه ، وكلما سمع بزيادة العدد في المصاين زاد في مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم حتى أصبحت أجسامهم مسمومةً وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم فائرة ووجوههم مغبّرة وأناملهم مصفرة ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا : « ويأتيه الموت من كل مكانٍ وما هو بميتٍ » . اذا رأيتهم حسبتهم في حال المصاين بالفعل لولا أن هؤلاء يفضّلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والقضاء . ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب في الحياة ومن أعظم الأسباب في رأى الاطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم ، وهم اصحاب الأرواح السقيمة ، في الأجسام السقيمة ، لهم النكد في هذه الدنيا ولهم الخزي في الآخرة »

- فأين تضع نفسك الشرففة أيها الباشا من هذه الطبقات

(الباشا) - ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتني وأرشدتني الا في

طبقة أهل النخاسة الذين ينأمون للقضاء والقدر، ويعملون بالحيلة والحذر

لكننى مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس في هذا الوباء وأرغب  
في التخلص من النظر اليهم وهم في مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع ،  
وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارنا وهمومنا وبين التأثير لا كدار  
الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام — وخشيتُ على الباشا إن أنا تركتُهُ في هذه  
الحال غريقَ أفكاره . وأسيرهمومه وأكداره . أن ينتويه الانتكاس .  
ويعتريه الارتكاس<sup>(١)</sup> . والنكسة بعد البلة . شرُّ أطوار العلة . فبادرتُ  
الى طاعته . وامثال إشارته . فاخترت له من ضواحي المدينة مكانا قصيا .  
ومسكنا مرضيا .

---

(١) الارتكاس ، كالانتكاس

## العزلة في العالم والادب

قال عيسى بن هشام - واعتزلتُ بالبasha مدة من الدهر . نستملح العزلة ونستعذب عليها الصبر . ونعيش فيها عيش الحكماء . من حسن الرضاء . بحسن الاكتفاء . ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه . وإغماض الجفون على قذاه . مؤتسبين كل الاثناس . بالوحشة من الناس . بعد الذي شهدنا من أعمالهم ورأينا . وسمعنا من أقوالهم ووعينا . وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا :

عوى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عوى

وصوتَ إنسانٌ فكدتُ أطيُرُ

إن سألتهُم حاربوك . وإن وادعتهم ناصبوك . وإن صادقهم خانوك . وإن واقتهم كادوك . وإذا خالطهم لا تأمن الاعتداء . وإذا مازجتهم لا تعدم الاقتراء . وإذا طالبتهُم بحق فانك لا تُسمع الصمَّ الدعاء :

فلو خبرتهمُ الجوزاءُ خبري

لما ظلمتُ مخافةً أن تُكادا

ولو أنك لم تخالطهم الا في مجالس أنسهم وصفوم . ومعاهد لعبهم ولهوهم . لم تجن منها الا كل ما يُبعد وينفر . وينقص ويكدر . تدخلها إذا دخلها مُستروحاً مستبشراً . وتخرج عنها مستقبحاً مستنكراً . فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارةٌ معايب . ومجتمعٌ نقائص ومثالب . ومنابتُ

أكدار . ويتابع أضرار . ولاراحة في الدنيا الا لمن تنسك وتزهد . ولا  
سلامة من الخلق الا لمن اعتزل وتوحد . وأبعدُ الناسِ عن معاشره  
البرايا . أقربهم الى كرم السجايا :

بُعدي عن الناسِ برؤى من سقامهمُ

وقربهم للحجى والدين أدواء

كالبيت أفرَدَ لا لإطاء يُدركهُ

ولا سِنَادَ ولا في اللفظِ إقواء<sup>(١)</sup>

وعكفتُ مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب . وانتقل به  
من مطلب الى مطلب . في مطالعة الاسفار والكتب . من تاريخ وأدب .  
ومن حِكْمِ متينة قويمه . وشقى علومٍ حديثةٍ وقديمة . أهديه من كل  
طرف بطرفة . واتحفه من كل باب بتحفة . وأجتنب معه ما يدعو الى  
الضجر والملل . ويؤذني من الكد والكآل . فتارة أخوض معه عباب  
البحار . وطوراً أجتاز به سراب القفار . فترى مَنْ يحرق في البحر  
مراكبه . ليحمل على اقتحام المنايا كتابه . ونسمع الشاعر في القفر يحدو  
بناقته . ويشببُ بمعشوقته . ثم لا يقعد به ذلُّ الغرام . عن التفاخر  
بِعزِّ الكرام . ولا يُنسيه ذكرُ الهوى . موائف الحُفِّ والردي .  
فيخلط بالغزل الفخر . ويخاطب صاحبتَه من جوف القفر :

إِنَّا مُجِيوكِ يَا سَلَمَى فحِينَا

وإن سقيتِ كرامَ الناسِ فاسقِينَا

(١) الايطاء والاسناد والاقواء ، من عيوب النفاية

وإن دعوتِ الى جُلي ومكرمةٍ  
يوماً سَراةَ كرامِ الناسِ فادعينا  
إن تَبَدَّرَ غايَةٌ يوماً لمكرمةٍ  
تَلَقَّ السوابقَ منا والمصلينا (١)  
وليس يهلك منا سيدٌ أبداً  
الآ افلينا (٢) غلاماً سيداً فينا  
إنا نُرخصُ يومَ الروعِ أنفسنا  
ولو نسام بها في الأمنِ أغلينا  
بيضٌ مفارقنا تغلي مراجلنا  
نأسو بأموالنا آثارَ أيدينا  
إني لَمِنَ معشرٍ أفني أوائلهم  
قيلُ الكُماةِ (٣) ألا أينَ المحامونا  
إذا الكُماةُ نَحَّوْا أن يُصِيبَهُمُ  
حدُّ الطَّبَّاتِ (٤) وصلناها بأيدينا

وزى الناقةَ تطرب تحته الى مواطنها. وتشتاق الى معاطنها. فتحنُّ  
حينئذ. وتن أنينه. وكلما رآها تشكو مثلَ شكواه. وتُصغى بأذنها  
الى نبحواه. وتُرَدِّدُ بُرغائها صداه (٥). وتُسعده بترجيعها في هواه. تأوّه  
وتنهّد. وترنم فأنشد:

(١) المصلى، السابق (٢) افلى، استخرج .  
(٢) الكُماة جمع كمي، وهو الشجاع ولابس السلاح  
(٤) الطبات جمع ظبة. وهي حد السيف أو السنان  
(٥) الرغاء، صوت الناقة

لقد زارني طيفُ الخيالِ فهاجني  
فهل زار هذي الإبلَ طيفُ خيالِ  
امل كراها قد أراها جدابها  
ذوائبَ طلحٍ بالعقيقِ وصالٍ<sup>(١)</sup>  
ومسرحها في ظلِّ أحوى<sup>(٢)</sup> كأنها  
إذا أظهرتْ فيه ذواتُ حجالِ  
تلونَ زبوراً في الحنينِ منزلاً  
عليهنّ فيه الصبرُ غيرُ حلالِ  
وأنشدنَ من شعر المطايا قصيدةً

وأودعها في الشوق كلَّ مقال

ثم تنتقل الى مشاهدة المعامع المشهورة . والوقائع المذكورة .  
فترى الدماء تجري أنهاراً في الوديان . والمهجع تسيل انحداراً من مسايل  
الأبدان . والموت واقفاً يحصد الرؤوس . ويبحني نفائس النفوس .  
والفارس يمشي في الصفوف مشية الخيلاء . ويطعن برمح كل طعنة  
نجلاء . ثم ينشد في وصف أثرها . وبعده عورها :  
طمعتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةً نائر

لها تَقْدُّ لولا الشعاعُ أضاءها

ملكْتُ بها كَفَى فأنهتُ فتقها

يرى قائمٌ من دونها ما وراءها

(١) الطلح والصال ، شجر شائك ، (٢) الأحوى ، ما تضرب خضرته الى السواد

يهون على أن تَرُدَّ جراحها

عيون الأواصي اذ حمدتُ بلاءها

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفئ نارها . ولا يخمداُ أوارها . الأوقد  
غادرت النساء أياي . والأطفال يتامى . والأموال تهباً منهوباً . والأعلاق  
سلباً مسلوباً . والمدائن خالية خاوية . والقصور بائدة بالية . والحرب  
ينخذل فيها القويُّ لَأَوْهَى سبب . وينتصر الضعيف من حيث لا يحتسب .  
فكم دالت بها الدول ، ودارت الدوائر ، وانثلت العروش ، وسقطت الممالك ،  
بعد لواء العز المعقود . وبساط المجد المدود . وبعد ذلك التناهي في  
العظُموت . والتمادي في الجبروت . وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطها .  
ويخطر في الخيال هبوطها . كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر . اذا  
نزل القضاء وحُمَّ القدر . وكل مُلْكٍ مهما امتدَّ ظلُّه زائل . وعند التناهي  
يقصُر المتطاوُل

ثم أدخلُ به في مطالمتنا الى حلقة حكيم واعظٍ يسلب الألباب  
بقوة بيانه . ويخلب العقول بضوء برهانه . ويسترقُّ النفوس بطلاقة  
لسانه . ويقول في حقارة الغنى وهو انه :

« أيها الناس واللهِ لدُنْيَا كم هذه أهونُ عندي من عُراقِ (١) كلبٍ  
في يد مجذوم »

« والخيرُ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا كالخير  
بين أن يكون مالكا أو مملوكا

مَنْ سَرَهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوهُ

فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا

« والحياة الطيبة هي حياة الغنى ، والغنى هو القنوع ، لأنه إذا كان

الغنى عدم الحاجة الى الناس فأغنى الناس أقلهم حاجة الى الناس ولذلك

كان الله تعالى أغنى الأغنياء :

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ

فان زاد شيئاً عاد ذلك الغنى فقراً

ويقول في محاسن الاخلاق : « الجود حارس الأعراض ، والحلم

فِدَامُ السَّفِيهِ <sup>(١)</sup> . والعمو زكاة الظفر ، والاستشارة عين الهداية .

وأشرف الغنى تركُ المنى . وكم من عقلٍ أسير عند هوى أمير . ومن

التوفيق حفظ التجربة ، ومن لأنَّ عودَهُ كَشَفَتْ أَعْصَانَهُ ، ومن لانت

كَلِمَتُهُ وَجَبَّتْ مَحَبَّتُهُ »

ويقول في مساوى الصفات : « الكاذبُ في نهاية البعد من

الفضل ، والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب لانه يكذب فعلاً وذلك

يكذب قولاً والفعل آكدُ من القول . فأما المعجب بنفسه فأسوأ حالاً

منهما لأنهما يريانِ نقصَ أنفسهما ويريدانِ إخفاءَهُ والمعجبُ بنفسه قد

عمي عن عيوب نفسه فيراها محاسنَ ويُبديها . وإنى لأعجب للبخيل

يستعجل الفقر الذي منه هرب ويفوته الذي إياه طلب ، فيعيش في الدنيا

عيش الفقراء ، ويُحاسب في الآخرة حساب الاغنياء . وأعجب للمتكبر

(١) الفدام ، المحرقة على فم الابريق

الذى كان بالأمس نطفة وفي الغد جيفة . وأعجب لمن يُغفل صبره  
ويشكو الى الناس دهره ، فان كان عدواً سرّه وان كان صديقاً أساءه  
وليس مسرّة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة :

ولا تشكّ الى خلقٍ فتشمتهُ

شكوى الجريح الى العقبان والرخم

« والعجز عجزان أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثاني  
الجد في طلبه وقد فات »

ويقول في ذكر الحياة والموت : « انما المرء في الدنيا غرض تنتضل  
فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب ، ومع كل جرة شَرَق وفي كل أكلة  
غَصَص ، ولا ينال العبدُ نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من  
عمره الا بفراق آخر من أجله ، فنحن أعوان المنون وأنفسنا نُصَب  
الْحُتُوف ، فَمِنْ أَيْن نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً  
الا أسرعاً الكرة في هدم ما بنيًا وتفريق ما جمعاً . وعجبت لمن نسى  
الموت وهو يرى من يموت »

ويقول في وصف العلماء : « الخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة  
الطفل الذي هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ويمذره بنقصه فيما فرط منه  
ولا يهذر نفسه في التأخر عن هدايته

ثم يختم وعظه بقوله :

الدِّينُ لِإِنصافِكُ الأَقوامَ كُلَّهُمُ

وأى دين لآبى الحق إن وجباً

والمرءُ يُعييه قودُ النفسِ مُصْحِيَةً

للخير وهو يقود العسكرَ اللجياً (١)

اللهم اكفني بوائق الثقات ومكايد الأصدقاء «

ثم انتهى بصاحبي الى مجلس محاضرات بين الأدياء . ومفاكيات

بين الندماء . فقرأ من لطيف بؤادرهم . ورقيق نوادرهم . ما ينير ظلمة

الفهوم . ويجلو صدى المهموم :

لفظ كأن معاني الشكر تسكنه

فَمَنْ تَحَفَّظَ شَيْئًا مِنْهُ لَمْ يُفِقْ

جَزَلٌ يُشْجَعُ مَنْ وَافَى لَهُ أَذُنًا

فهو الدواء لداء الجبن والقلق

إذا تزئم شاد للجبان به

لأق المنايا بلا خوف ولا فرق

وإن تمثّل صادٍ للصخور به

جادت عليه بعذب غير ذى رتق

وهكذا قضيت مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائس

الأعلاق . من بطون الاوراق . وأقتطف معه زهر الأدب العاطر .

من حدائق الكتب والدفاتر . الى أن قال لى ذات يوم . بين ندم و توم :

(الباشا) - إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الايام التى أضعتها

من سالف عمرى فيما لا يجدرى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهى

العيش ، وياليتني كنت قَصَرْتِ هَمِي منذ صبايَ على مثل هذه المييشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً ، أتقل من مطالعة الكتب الى مذاكرة العلماء ومن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء الى مطارحة الأدياء . والله يعلم أن أسفِي ليزيد شدة وأن ندمي ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثونني به في أيام دولتي عن مجالس العلم والادب ، فا كنت آبه لها ولا أنتبه اليها ، وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والرّدن<sup>(١)</sup> ، والحمد لله الذي أرشدني الى الهدى آخِرَ الدهرِ فعلت مقدار هذه النعمة التي حَبَّيتُ الى الحياة ثانية وهوّنتُ على احتمال متاعها ، وما اخالك تبخل على بعد الآن ، وقد علمت نفع ذلك لي ، بمداومة السير معي في هذا الطريق الحميد . وما أرى من بأس في أن نترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس في مجالس الأدب ومجامع الفضل وأندية العلم لتذاكر معهم ما نطالعه ونأخذ عنهم ما يحفظونه . وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين ، والحمد لله رب العالمين

(عيسى بن هشام) - لا تطمنن أيها الاميرُ - دَفَعَ اللهُ عَنْكَ المكاره - في مثل هذه المجالس فقد طوتها الأيام ورمستها الليالي ولم يبق اليوم من يأنس اليها وينافس فيها

(١) الرذن ، مثل الغزل

(الباشا) — كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما ترعمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعدد الطالبين وسهولة الحصول على الكتب ووفرة المطابع وإطلاق الأفكار من القيود. وأين هذا مما كنا عليه في الزمن الأول من تعسر الوصول الى الكتب وتعدّر استنساخها لضعف أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز، حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئاً هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الاتفاف بها ان لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ايتباعها، فلا بدع اليوم أن يكون في يد كل مصرى كتاب يطالعه وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح في العلوم والفنون أليف محاضرة وحليف مذاكرة تُزدهى به مجالس الفضل وترهو أندية الأدب، وكيف لا يكون ذلك وقد ذقت من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني حلاوة كل لذة في العالم

(عيسى بن هشام) — نعم شاعت العلوم في هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها، ولسكن قلّ يبتئ عدد الراغبين فيها والمطالعين لها، فكسدت سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الأمور الباطلة والاشياء التافهة، ورغب عنها من كان يقننها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل. والناس اليوم في حركة لا شرقية ولاغربية قد اشتغل بعضهم

بعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتعطلت بينهم مجالس العلم  
واندرست مجامع الأدب واقتصر واعلى مطالعة أخبارهم في الجرائد والصحف  
دون الدفاتر والكتب. وأنى يكون لهم الاستقرار في المجالس وهم لا يستقرون  
في مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون  
عن نقلة وسفر، وأكثر ما يكون جلوسهم في المركبات مركبات الخيول أو  
البخار أو الكهرباء، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهر العام  
مترجلين في بلاد الاجانب متقلين في ديار الغربية للزهوة والتفكه .  
وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه في المدرسة وأطرافاً  
وهو بالسن التي لم يصل فيها بعد إلى تمام التمثل وكمال الإدراك فيحفظها  
ويؤديها كاللبغاء، فان أسعده الحظ في آخر الدراسة ونجح عند الامتحان  
تأبط صك الشهادة ونفض يده من تلك العلوم وطرحها عنه طرح  
الثوب الخلق ونبذها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماء (١)  
وما جف من زائر انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة وقاساه من  
تعب في درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية في ذاتها أو يذوق  
لها حلاوة في طعمها، فاذا هو بلغ لاربتة ودخل في خدمة الحكومة  
أصبح كالعامل من المال لا العالم من العلماء، وقل فيهم بعد ذلك من  
يصبو الى العلم وأهله أو يمن الى الأدب وكتبه، ولئن مال بعضهم  
للمطالعة فانها لا تتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته، ولذلك  
أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لما

م فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك في الأشغال المتجددة  
فلا يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الا وقد بلّغ العرقُ ودَهْمَهُ  
الكلال والملال ونزلَ به الضجر والسأم ، وَإِنَّكَ لَتَرَى مِثْلَ هَذَا يَبِينًا  
فِي حَدِيثِهِمْ فَهَمْ لَا يَنْصَتُونَ إِلَى قِصَّةٍ مُتَّصِلَةٍ وَلَا يَتَّبِعُونَ فِي الْكَلَامِ قِصَّةَ  
مُرْتَبَةٍ وَلَا يُعْجِبُهُمْ مِنْهُ إِلَّا مَا كَانَ مُتَقَطِّعًا مُبْتَوْرًا أَوْ مُقْتَضِبًا مُجْزِئًا

(الباشا) - مَا أَكَادُ أُخْلِيكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ مِنْ غَلْوٍ فِي وَصْفِ هَذِهِ  
الْحَالِ . وَهَلْ خَلَا أَوْ يَخْلُو زَمَانٌ فِي الْبَدَاوَةِ كَانَ أَوْ فِي الْحَضَارَةِ مِنْ مَجَالِسَ  
لِلْعِلْمِ وَمَجَامِعَ لِلْفَضْلِ وَأَسْوَاقٍ لِلْأَدَبِ ، وَمَا كَانَ زَمَانًا الَّذِي كُنْتُ فِيهِ  
لِيَخْلُو مِنْ آثَارِهَا حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْكِبَرَاءِ وَالْأَمْرَاءِ مِنْ  
لَا نَصِيبَ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ لَا يُغْفَلُونَ بِمَجَالِسِهِمْ مِنْ وَجُودِ شَاعِرٍ  
مَجِيدٍ أَوْ فَاضِلٍ أَرِيْبٍ أَوْ نَدِيمٍ أَدِيبٍ أَوْ مُحَدِّثٍ ظَرِيفٍ تَتَفَكَّهُ بِهِ النَّفُوسُ  
وَتَسْتَرِيحُ لَهُ الْقُلُوبُ ، هَذَا وَالْكَتَبُ بَيْنَ النَّاسِ قَلِيلَةٌ التَّدَاوُلُ وَالْعِلْمُ  
بَعِيدُ التَّنَاوُلِ ، فَمَا بِالْكَفْمِ الْيَوْمَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَصِفُ وَالصَّحُفُ مُنْشُورَةٌ  
وَالْكَتَبُ مَطْبُوعَةٌ وَأَسْمَاءُ الْعُلُومِ مَذْكُورَةٌ

(عيسى بن هشام) - قَدْ اسْتَفْنَى كِبَرَاؤُنَا وَأَمْرَاؤُنَا الْيَوْمَ عَنْ  
تَزْيِينِ مَجَالِسِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَقَصَرُوا وَهَمَّهُمْ فِيهَا عَلَى التَّفَاخُرِ بِالْمَقْتَنِيَّاتِ  
الْمُزَخْرَفَةِ وَالْأَدْوَاتِ الْمَصْنُوعَةِ مِنْ عَمَلِ الْفَرِيِّينَ ، فَتَرَى الْكَبِيرَ أَوْ الْعَظِيمَ  
يَقْلَبُ فِي يَدِهِ الْعَصَا الْمُضِيئَةَ بِالْكَهْرِبَاءِ مِثْلًا أَوْ السَّاعَةَ الَّتِي تَرْنُ بِمَدَدِ  
الثَّوَانِي وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا أَجْلٌ قِيَمَةٌ فِي الْعَيْنِ وَأَجْلٌ أَثَرًا فِي النَّفْسِ مِنْ

جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التي تصفو  
ساعات الحياة بمطالعتها . ولا تتوهمن أننى أجزم لك بخلوّ هذا الزمن  
عن مجالسَ العلم ومحافلَ للأدب ، وما كان كلامي إلاّ على الوجه الأعم .  
وقد آن أن أجيبك الى ماطلبت فأزور بك بعض المجالس والمحافل لينقطع  
رَبِّيك . ويطمئن قلبك

---

## الارعيانه والتجار

قال عيسى بن هشام - واستنهضتُ الباشا أزور به مجلساً من تلك المجالس المدودة. والأندية المعقودة. مجلسَ الوجهاء والتجار. أهل الصيت المرتفع في الأمصار. فشهدتُ منه أزراراً وانقباضاً، ووجدت فيه انحرافاً وإعراضاً، ثم التفتَ الى يعاتبني عتاباً شديداً. ويوسعني عدلاً وتفنيداً. ويقول لى ما عهدت منك منذ صاحبتك الا الخيرَ لى تریده. والنفعَ تبدؤه وتعيده. وما زلت أشكر لك تلك اليدَ البيضاء. فى العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء. دفماً لما كنت تحذر وتحشى. من شر الخاتمة وسوء العقبي. بتزاحم الاحزان. وتراكم الأشجان. وما تعقبه من السقم والاعتلال. وسوء النكسة بعد النقة والإبلال<sup>(١)</sup>. فإبالك تستنهضنى الى مثل هذه المجالس والجماع. وربما كان فيها ما يؤذى العيون وينفر المسامع. وقد شاهدتني يكاد يصيبني التلف. من شدة الحزن والأسف. فقلتُ أشهد الله ما أبني لك الا الخير والتوفيق. فى كل مذهب وطريق. وقد رأيتُ التجارب أو سمعتك كرمأ وحلماً. وصروف الدهر أ كسبتك معرفةً وعلماً. بعد قلة الاختبار، وكثرة الاغترار. وسوء الابتدار. فى الإيراد والإصدار. وما كان فيك من خشونة الملمس، وشموخ الأنف، وضيق العطن، وصلفَ الرأى، وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس الأ مشهداً يسلى عن الكرب.

(١) الإبلال، الشفاء

وَمَلْبَأَ يَفْرَجُ عَنِ الْقَلْبِ . فَلَا يَكُنْ نَظْرُكَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ فِي غَدْوَمٍ وَرَوَاحِهِمْ .  
وَفِي أَفْرَاحِهِمْ وَأَتْرَاحِهِمْ . وَنَعِيمِهِمْ وَبُؤْسِهِمْ . وَرَجَائِهِمْ وَيَأْسِهِمْ . مِثْلَ  
نَظْرِ الْحَكِيمِ « هِيرَاقْلِيطُ » . بَلْ مِثْلَ نَظْرِ الْحَكِيمِ « دِيمُوقْرِيطُ » . كَانَ  
الْأَوَّلُ يَشَاهِدُ أُمُورَ النَّاسِ فَيَبْكِي وَيَتَحَسَّرُ ، وَكَانَ الثَّانِي يَرَاهَا فَيَضْحَكُ  
وَيَسْخَرُ . فَذَا أَنْشَدَ أَحَدُهُمَا فِي نَصْرَةِ مَذْهَبِهِ :

النَّاسُ مِنْ دُنْيَانِي فِي مَا تَمَّ  
فَالشُّعْبُ تَبْكِي وَالرَّوَاعِدُ تَنْدُبُ

أَنْشَدَ الثَّانِي فِي تَأْيِيدِ مَشْرَبِهِ :

هَذِي الْحَيَاةُ رَوَايَةٌ لِمُشَخَّصٍ  
فَاللَّيْلُ سِتْرٌ وَالنَّهَارُ الْمَلْعَبُ

وَمِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ أَنْ لَا تَذْهَبَ تَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٌ . وَلَا  
تَذْرَفَ عَيْنُكَ مِنْ أَجْلِهِمُ الْمَبْرَاتُ . وَهَلُمَّ مَعِيَ أَمْتَمَكَ بَزِيَارَةَ مَجْلِسٍ  
يُؤْنَسُ مِنْ وَحْشَتِكَ . وَيَكْشِفُ مِنْ غَمَّتِكَ . فَاسْلَسَ مَطَاوِعًا فِي  
الْقِيَادِ . وَوَأَقْنَى عَلَيَّ مَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنَ الرَّشْدِ وَالسَّدَادِ . فَيَمَّتْ بِهِ دَارًا  
عَالِيَةَ الْجُدْرَانِ . وَاسِعَةَ الْأَرْكَانِ . شَاهِقَةَ الْبِنْيَانِ . لِأَحَدِ التَّجَارِ الْأَعْيَانِ .  
فَزَاخَمْنَا عِنْدَ الْبَابِ سَائِسٌ يُسْحَبُ فَرَسًا مُصِجِبًا مُطِيعًا . وَيَحْمِلُ عَلَيَّ  
كَتْفَهُ طِفْلًا رَضِيعًا . يَقُولُ وَقَدْ أَظْهَرَ الْغَيْظُ بَوَاطِنَهُ الْكَامِنَةَ : « لَسْتُ  
أَدْرِي وَاللَّهِ أَسَائِسٌ أَنَا أُمُّ حَاضِنَةٌ . » . وَمِنْ وَرَائِهِ آخَرٌ يَحْمِلُ صَفْحَةً  
مُتَدَفِّقَةً بِالْمَخْلَلِ . يَقُولُ وَقَدْ تَلَوَّثَ بِمَائِهَا وَتَبَلَّلَ : « عَلَامٌ أَنْعَبُ فِي هَذِهِ

الدار وأشقى . وإلامَ يدوم هذا الشقاء ويبقى . ولست أدري والله أسأتُ  
أنا أم سقنا . ولما وَجَّنا الباب اذا بالبواب . يقول وفي يده صُرَّةٌ ثياب :  
« لا مرَدَّ للمقدور والمقضى . ولا رجاء في العيش الرخي . ووالله ما أدري  
أبوابُ أنا أم خصي . » ولما جاوَزنا دهليز المكان . الى باب الإيوان .  
وجدنا عنده غلاماً فتيَّ السن . يتنهد ويئن . وبين يديه دخان وورق .  
وبجانبه كتاب مطبق . وهو يقول : « عجباً والله للوالد يشغل ابنه  
بسجاراتٍ يحشوها . فليبه بها عن دروس له يتلوها . لا غرو إن فاضت  
العيون بسواك بها . واحترقت القلوب بلواهبها . فإدري والله أفرأشُ  
الدار أنا أم ابنُ صاحبها . » فما أحسن بنا حتى انتفض قائماً . وتقدم  
مُسليماً . ثم ذهب أمامنا . ليذكر قدومنا . واذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ  
في مشيته . ويتعثر في جُبته . فسهلَ بنا ورحب . وبالغ في التحية  
وأسهب . ودخل بنا على أهل مجلسٍ مختلفي الازياء والهيئات . متباينى  
الأشكال والسِمات . فمِن صاحبِ عمامةٍ يتعهد بيده رَصْفها . وآخر  
يجدد لَفَّها . ويحبك بالإبرَ طرفها . ومِن صاحبِ طربوشٍ قد أماله على  
جبينه . فاذا تحرك أسنده يمينه . فترى يده أبداً لا تسكن ولا تستقر .  
كأنما هو في تأدية سلامٍ مستمر . ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو  
واللفظ . وممعنهم يتحاورون على هذا النحو والنمط :

(أحدهم) - نعم لا بد من ذلك اذا يسر الله وتم الاتفاق مع  
الخواجه فلان ، فان إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح

لا يمكن أن تأتي بها الأشغال التجارية وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً فقد أصبحت الآن لا نفع يُرجى منها، وتوكل على الله في الاشتغال معنا بالآبنية فهي أنجح وأربح

(الثاني) — ومن أين لي زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدي على هذا التوسع ، والحال على ما تعلم ضعيفة ، والحمد لله على نعمة الستر فهي الغنى الكامل

(الاول) — لا تقل هذا أيها السيد . « وأما بنعمة ربك فحدث » ودعواك ضعف الحال إن هي إلا تواضع منك ، والله يزيدك فضلاً على فضل

(الثاني) — أستغفر الله يا سعادة البك هذا حسن ظن منك والا فالحقيقة غير ما ظننت ، وقد قلت لك إن الستر هو الغنى الكامل ، وعلى كل حال فالبركة في التجارة ، فمنها كان رزق الآباء والأجداد ، وربحٌ مستور. أبرك من ربح مشهور

(ثالث) — تالله لأنكم لفي ضلالكم القديم ، وهل بقى في التجارة التي زاحمكم عليها الأجانب ربح يُذكر أو رزق يُطلب ، فاتركوا هذا الخمول وعليكم بأشغال الأقطان في البورصة فهي الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلاكد ولا تعب ، وكم رأينا من فقير وليج البورصة تفرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً ، وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودي وفيكم من أدرك والدته تباع الخبز بالحارة ، قد مارس تلك الاشغال فاصبح أكثر

الناس مالاً وأرفعهم حالا ، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام  
رحمة الله عليهم

(رابع) - ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تمنيه لم  
يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم ،  
وهل تريدون ان ينزل أحدٌ منا بنفسه الى هذه الاشغال بعد أن عشنا  
مثل هذا العمر

(الثالث) - حاشا لله أيها السيد ليس هذا من قصدي ، وإنما  
أردت أن أبين لكم ان هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يمتلك مالاً  
فأصبح من كبار الأغنياء ، فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة . لاشك  
انه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه

(خامس) - ما وراء الربح الكثير الا الخسران الكبير ، وقد  
شاهدنا بأعيننا ما أتتجه أشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة  
وتبديد الغنى الواسع والمحطاط العمد الرفيع ، وأرى ان الإقدام على هذه  
المهالك من الجنون المحض « فالله خير حافظاً »

(سادس) - أما أنا ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، فقد كفاني  
تأديماً ما تكبدته من الخسائر في تلك المضاربات على الاقطان ، ولولا فضل  
الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب

(الثالث) - لا حول ولا قوة الا بالله « انك لا تهدي من أحببت »  
كيف تخشون الخسارة في أشغال الأقطان وتتوقعونها والربح فيها

مضمون مع بعض الأتقيا لمجرى الاخبار وحسن التخمين فى الاحصاء  
وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ، ومع القليل من الممارسة والجراءة  
فى العمل

(سابع) - كيف تدعى ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور قد  
اتقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معداته فزال يهوى فى بحر البورصة  
حتى وصل فى الخسارة الى القرار، وإن كان لا يزال ظاهراً فى أعيننا بمظهر  
الغنى الواسع والمال الجم

(ثامن) - سبحان الله ألا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا  
بالغنى والثروة ثم لا نلبث أن تنكشف الحال عن القلة والضعف ، فكم  
سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تُقدر بالآلاف ثم يظهر الخفى  
ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) - نعم صدقت ألم تروا الى المرحوم فلان كيف كان  
يفخرنى فى كل مجلس عندما أخذت الرتبة بأنه أكثر منى مالاً وأعظم  
ثروة ، وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية ، فلما توفاه الله انكشفت  
الحال ولم يرث عنه أولاده ما يكفى لبقائه بيقته مفتوحاً وبقاء اسمه  
مذكوراً . وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنى الدائم  
(الرابع) - دعونا بالله من ذكر الأولاد والموارث فإننى كلما تذكرت  
أخلاق أبنائنا فى هذا الزمن ، ورأيت ما وصلت إليه ثروة فلان وما  
انتهى إليه حال أولاده من الفقر والضعف بمد أن بددوا تلك الأموال

الطائفة ، وأصبح ذكر أيهم ينهم نسياً منسياً فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة - هان على أن أتفق مافي حوزتي في حياتي وأن أتمتع بأموالي في مدة عمري

(الخامس) - معاذ الله أن تفعل ذلك بأبنائنا ، وما فائدتنا في هذه الدنيا اذا لم نجمع الأموال وندخر الثروة لأعقابنا وتترك لهم ما يفتنهم عن سؤال اللثيم بعدنا . ولا تجعل الذنب كله على الأولاد في تبديد الموارث ، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هملاً بعد موتهم ويفعلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالريع وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحاً والاسم مذكوراً ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها الى . . . .

(السادس) - لا مؤاخذ يا سعادة البك في مقاطعة الحديث ، ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرهما وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون ، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود واندرت البيوت وغفّت الآثار وذهبت أسماء أصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان ، فانه خصص جانباً من الربيع للزيتية واشترط أن يُحفظ الباقي ويُدخر ، وكلما تكوّن منه نقد عظيم يُشترى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الأصلي ليكون في نمو

متواصل على توالى الايام وصروفِ الحدثان ، وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته ، فأنعِمَ بهامن طريقة وأحسنَ بها من وسيلة

( الثالث ) - ليس ذلك من الحزم في شيء ، ولكنه الغلو في البخل والشح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة ، ولقد حَرَمَ المرحومُ نفسه من التمتع بماله في حياته وحرَمَ أولاده منه بعد موته بإبتداع هذه الطريقة الفريية في شروط الوقف

( الاول ) - أطلبُ منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة ، فمن يقول إن المرحوم كان شحيحاً مقترراً ، قد والله عاشرتهُ الزمن الطويل فأرايته مجرم نفسه أو يقتر عليها . وما كانت مائدته لتخلو من الضأن أو الحمام أو الدجاج ، وحقَّ جدُّك ، وانما كان الرجلُ حازماً لا ينفق ماله الا في الوجوه النافعة

( الثاني ) - لا اعتماد عندى في هذا الباب على الوقف أو الملك ، وخيرُ ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضلُ ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس ، وأن لا يموِّدَهم في حياته الإلتفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار

( الاول ) - وهل جاءتنا المصائب في أولادنا الأمن هذه المدارس وتعليمها ، وهل زادم ذلك التهذيبُ الا ما شئت من الفظاظلة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ، ولقد أدهشنى فلان بالامس وأضحكنى في شكواه

مرّ الشكوى من حال ابنه التهذب المتعلم في المدارس والمجالس إذ قال لي في حديثه : « مازال هذا الولد يزيد في تعذيبى وتكديرى منذ خروجه من المدرسة فأصبح لا يكلم أهله إلا بالرّطانة ولا يُعرب عن غرضه إلا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شىء في البيت . فإذا جاءوا له بالماء قال فيه الميكروب . وإذا أتوه بالخبز والخبز قال على بالميكروب وسكوب . ثم ترى الشقى يقسم الأّطعمة أقساما ، فيقول البيض واللبن غذاء كامل ، والخضّر غذاء ناقص لا ينعف ولا يمرى ، وأن الأرز وما شابهه من «المواد النشائية» لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد في الجسم ، وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتورم به الأّعضاء ، وأن الفواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها إذا تشقت خصوصا البطيخ لأنه أسرعها قبولا لتولد الحيوانات السامة ، وهلم جرا حتى حير الخبيث أهل البيت في طعامه وشرايه فوق ما حيرنى في اختلاف ملابسه وتعدّد أزيائه ، وكلما عارضته في شىء شمخ بأنفه استكبارا ولوى عنقه استحقارا وسخرى لجهلى ونفر على بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس ، يتعالون على آباؤهم ويعيرونهم بعد أن كان الولد كالبنّ البكر فى الزمن الماضى لا يرفع طرفه فى وجه والده حياءً ووجلا ، وكان لا يجرؤ على مكالمته الا محييا عن سؤالٍ من صغره الى كبره

( الثانى ) - ولكن فانتك أن تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة

عظيمة يُفتقر لها كل ذنب ، وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة

وارتقاؤهم المراتب والمناصب ، وباليات آباءنا كانوا التفتوا في أيامهم الى تعليمنا في المدارس فكنا استغفينا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان ، فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر تقدأ عيناً وذهباً خالصاً دفعةً واحدة سالمة لا يديهم بلا مطل ولا تسويق ، في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الاعظم منها في المسامرات والمفاكيات ، ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما في قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء . ورأس المال في ذلك كله الاحاطة ببضعة كتب في المدرسة . فأخبرني حينئذٍ أئى ربح في التجارة وأئى شأن لها يوازى هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

(الرابع) - كل هذا معلوم ومسلم به ، ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها ، ومن صدفته العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني فانه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة في تطلب الخدمة ، والوظائف مشحونة ونظار الحكومة لا يجدون سواها

(السادس) - عسى الله ان يبدل الأحوال وتسقط هذه النظارة وعيننا يرجوع اولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء

الوطن فترى حينئذٍ كيف يكون تقدمُ أبنائنا في المناصب

(الخامس) - حقاً اذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك الى النظارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الأوقات، وانا أرجو أن لاتنسى ابني عند السعى لأتجالك فقد كان معهم في مدرسة واحدة وهو دائماً يطالع الجرائد ويتربح الحوادث التي يكون من ورائها سقوط هذه النظارة

(الثامن) - أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدى . والأصوبُ عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفةً واطلاعاً. لا لأجل التوظف في الحكومة والخروج عن طبقاتهم . وأما من جهة حفظ الموارث في أيديهم بعد مماتنا فأحسنُ الطرق أن لا نقترب عليهم في النفقة أثناء حياتنا وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدّتهم تحت أعيننا ليمرنوا على العمل ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم فتربى لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم والتفنن في أبواب المراجعة . وقد جربتُ ذلك في اولادى وانا أرجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) - هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) منادياً لابنه - إئتنا بالجريدة وقرأها علينا

(يخضر الغلام وفي يده الجريدة ناشرها)

(الاول) - اقرأ لنا من الاول

(الغلام) قارئاً - « الحرب »

(السادس) - هل وَقَعَت الحرب

(الغلام) - ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) - اقرأها من آخرها

(الخامس) - اتركها من أولها الى آخرها، واقرأ في « المحليات »

فلا فائدة لنا في وقوع الحرب أو اجتنابها

(الغلام) قارئاً - « تأليف الشركات »

(الرابع) للسادس - لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية

التي كنا تكلمنا في تأليفها منا لمشتري الأطيان المعلومة من الحكومة

(الخامس) - ان شاء الله يكون لنا نصيب معكم في هذه الشركة

(الثالث) - مَنْ أعضاؤها، وَمَنْ الرئيس

(السادس) - أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) - معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان في شركة، وهل

نسبنا ما وقع منه

(الثاني) - وأنا لا أقبل الدخول في شركة بعد تلك الشركة

المشهورة بخيبة المسعى ما لم أكن أنا الواسطة في مقابلة الحكام والمداولة

معهم

(السابع) - وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا اذا كانت « أسهمى »

في التأسيس أكثر من فلان

(الاول) — وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيساً علىّ في

شركة أبداً

قال عيسى بن هشام — واشتدَّ بينهم الجِدال والخِصام فخلقت  
العيونُ وعبست الوجوهُ وتحركت الضغائنُ وثارَت الأحقادُ. ورأينا كل  
واحد منهم يضرُّ لأخيه من الشرِّ والأذى . ما لا يضرُّه القرن لقرنه في  
ساحة الوغى . فانصرفنا عنهم وتركناهم يهوج بعضهم في بعض . كأنهم  
في موقف الحشر ويوم العرض

## أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام - وسرنا الى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية. وذوى السياسة والدراية. ممن يدهم حلُّ الأمور وعقدُها. ويملكهم شقاء الامية وسعدها. الناشئين في مهد المعارف والعلوم : والناغبين في أشتات المنطوق والمفهوم. والموصوفين بدقة النظر وبُعد الهمم. والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم. الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية. وتنفاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآية. فوصلنا الى دارٍ يزهر بياضها. ويهر إيماضها. قد ضربتُ عليها المحاسن أطنابها. وخلعتُ عليها الزخارفُ مجلبابها. فسار بنا الخدم الى حجرة في جانب الساحة. أعدت للانتظار والاستراحة. واذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان. فرأسه كُرَّةٌ والكُرَى صولجان. فلما أحسن بقدمنا ودخولنا عليه. انتبه يزيح النعاس بإصبعه عن عينيه. فسلمنا فسلم. وهو يتئادب ويتلعم. فتخيلناه من ظاهر جملة. وبذاذة هيئته. أنه صانع من الصناعات. أو تبعٌ من الأتباع. ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام. أنه ذو رحم في البيت وذو مقام. ثم التفت الينا يخاطبنا ويقول. بعد أن ذهب الخادم مستأذنا في الدخول: « قَبِّحَ اللهُ الخدم. فهم تقمة من النقم. شرُّهم حاضر. وخيرهم نادر. والعناء بهم ليس له آخر. فكم أغضبوا حلما. وآذوا كريما. وكم كسروا الصحيح. وخالطوا الصريح. وكم ارتكبوا جرما وإثما. وجاءوا إفكا وظلما. وكم فتحوا الأغلاق

واختلسوا الأَعْلَاقَ . وكم أحدثوا الشقاق . وأذهبوا الوفاق . وكم فرّقوا بين المرء وأهله . وحالوا بين الفرع وأصله . ولعنة الله عليهم في الدارين . فقد ذقتُ منهم الأمرين . وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة . الى مالا يُحمد من الجفاء والقطيعة . وابني حرسه الله ينظر ويغضى . ويتحمل منهم مالا يُرضى . وهم يتجنّون علينا وينتصرون . واذا أمرتهم بأمر لا يأتَمرون . ويشهد الله اننى كلما رأيت مال ابني في أيديهم يتبعثر ويتبدد . وثقتُهُ بهم تتضاعف وتتجدد . ذاب القوادِ فسال من العيون . مشوباً بماء الشُّون<sup>(١)</sup> . وأما وكيل البيت وما أدراك ما الوكيل . فحسبنا الله ونعم الوكيل . فتى لا تخطيء في النفاق مخيلته . ولا تطيش في البيت حيلته . دأبه المكر والخداع . وديدته الشقاق والنزاع . يرضى طفلاً . ليسخط كهلاً . ويتملق للجارية في الحرم . وللوصيف من بين الخدم . . . . . »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر . ويتأفف ويتحسر . فلم يُنقذنا من هذه الشكوى التي تُصم الآذان . إلا رجوع الغلام بمجواب الاستئذان . فانهينا من شقشقة لسانه . وحمدنا الله على كرمه وإحسانه . ثم اقتفينا اثر الغلام الى حجرة بادية الرّواء . مضيئة بالكهرباء . مفروشة بأثمن فراش . وأبداع رياش . على اختلاف في الاجناس والانواع . وتباين في الأشكال والاضلاع فالتحفة الشرقية . تقابلها الطرفة الغربية . وآنية الذهب . يضارعها آنية الخشب . فوجدنا المجلس حافلاً بأهل

الولاية والقضاء . من الرؤساء والوكلاء . فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السر . ونجني من أدهم ما يحلو من الثمر . ودونك بعض ما اقتطفنا وجيننا . وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) - نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا فان في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا (ثانيهم) - ما أبعد ما ترمي وما أسرع ما تحكم فهلاً نبأنا لله أبوك كيف ترتيبك لهذه القضية واستقرأوك لهذه النتيجة . وما نحن وخذلان الاحزاب الفرنسية ونصرة حزب الجيش عليها !

(الاول) - أراك لست بعويص الرأي في السياسة ولا ببعيد الغور في استخراج النتائج ، ألا تعلم لازلت مسدداً ان في انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعاً بفرنسا الى الملكية والامبراطورية أو القنصلية فتأيننا بنثل أوئك الملوك والقواد الذين دوخوا الشرق والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول وأصبحت لهم الكلمة العليا على اهل البسيطة فلا يمانعهم في أغراضهم ممانع ولا يعارضهم في مطالبهم معارض . وإني لأعلم علم اليقين ممن عاشرت من كبار الفرنسيين وصاحبت أنه لولا هذه الجمهورية لَمَا وصلنا نحن الى هذه الحال

(ثالثهم) - دعنا بالله من هذه الخيالات وأتركنا من هذا اللغو ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال فانك متين العلاقة بالمستشار وما بينك وبين الوصول الى المنصب الذي تتطلع اليه الا قيد شهرٍ وأنت

مع ذلك في غنى عن خدمة الحكومة بما لك من الغنى واليسر، ولكن ماذا تقول في مَنْ هو في حاجة دائمة الى البقاء في أسر الحكومة وذل الخدمة، ولولا الاحتياج الى المرتب والاضطرار الى الرزق لَمَا أَقْتُ في الخدمة يوماً واحداً

(رابعهم) - وأنا والله لا أتنظر الا أن يتم لي نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهي أهنأ عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان

(خامسهم) - ما أسخف الرأي وأضعف الفكر. ومَنْ ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هي أعلى قدراً وأرفع شأنًا من بقية الحرف والصناعات . وكل أسباب المعاش لا تخلو في هذه الدنيا من المتاعب والاكدار ولكن خدمة الحكومة أهنأ حالاً وأقلها عناء، ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة الا مَنْ كان قليل التبصر في الامور، ويكفيك برهاناً على ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك في يدك ولكن التاجر في حاجة ابدأ الى اصغر موظف في الحكومة وإن كان من أغنى الأغنياء، ولو تراهم اذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحمية القاضى ومخاطبة المدير لعامت أن خدمة الحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة بحيث لو خيّر أحدكم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه وبين

الدخول في صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده وحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تعدّه انت شقاءً وبلاءً وتعتبره ذلاً وهو آناً

(سادسهم) - على رسلك أيها القاضي لا تعكس القضية ولا تقلب الحقيقة ولا تحمل ما تراه في أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بجرقتهم والاستعظام لأهل الحكومة على ان حرفتهم خسيّة في ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم والا فلو تخلّى أحدهم عن طبقة ودخل في طبقتنا يوماً لأدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل والحريّة في الرأى وتعلّم ان الموظف قد باع للحكومة حريته ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه مقابل مقدار من المال يعمد لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ويربّحه الواحد من اؤلئك الجاهلين بأحوالنا في يوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله ، وياليت آباءنا كانوا انتبهوا الى تعليمنا الصنعة وتمريننا على التجارة ولكن بثس ما صنعوا وبثس ما خلفونا له ، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت اليه حال الخدمة في الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام في الازمان السالفة من الصول والطول والقوة والحول واكتساب المال من الجاه - ولو علموا أنه سيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في ايديها كالأيتام في يد الوصي يكون أرباب المناصب فيه كالاطفال في حجر المرضع - لعضوا الأنامل ندماً ولأرسلوا بدل الدمع دماً على ما فرطوا في أمرنا وأهملوا في شأننا

(الخامس) - انك لتتكلم بكلام العجائز اللاتي يقنعن من دهرهن  
بالحسيس من الملبس والمطعم . وأين انت هداك الله من طلب المعالي  
وابتغاء المفاخر وتشبيد المجد وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة  
على النفع والضر . وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أن ما أَسَعَى لأذنى معيشة  
كفاني ، ولم أطلب ، قليلٌ من الم  
ولكنما أَسَعَى لمجد مؤثِّل  
وقد يُدرك المجد المؤثِّل أمثالي

والى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم  
وماتت العزائم ورضى الناس فيه بالخنول والسكون وبالعيش الدون

(السادس) - انى لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك  
الصواب الى هذا الحد فترى أن فى خدمة الحكومة سؤدداً وعلاءً ومجداً  
وسناءً وماهى الا الذل والشقاء . والبلاء فى أثر البلاء . وأنا أفصل لك  
الحال تفصيلاً لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على  
التنحي عنها عجزٌ وضعف ، وجهلٌ براحة الحياة وأى جهل فأقول :

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة الى أربعة أقسام . القسم الأول  
الرغبة فيها للمال أعنى لسدّ العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا  
القسم يكون فى حال المضطر الذى حكّم عليه الدهر باحتمال الهوان  
لضرورة الرزق فهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ويتمنى على  
الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة الى صف أهل الصناعات الحرة

والقسم الثاني الرغبة فيها للجاء أعنى عزة المنصب وتقوذ الكلمة ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ليس لشوطه نهاية . ولا حدوده غاية . ولا بدفيه للجواد من كبوة . وللسيف من نبوة . وطالما كان اعتلاء المناصب . وارتقاء المراتب . داعية للرزايا والمصائب . ومجلبة للبلايا والنوائب :

والشرُّ يَجْلِبُهُ العلاءُ وكم شَكَأَ نَبَأٌ عَلَى مَا شَكَّاهُ قَنَبَرُ (١)  
ولو سلنا ان صاحب المنصب سَلِمَ من المعاطب ونجا من الخطوب فهو لا يزال طول حياته في همّ ونصب كلما ارتقى في المنصب درجة وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتلها ، ولا يفتأ مستعظماً لما فوقه طامعاً فيه مستصغراً لما في يده راغباً عنه ، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها غير راضٍ عن نفسه ولا الناسُ عنه راضون . وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء وملتقى الكمد والكدر:  
ذلك الخائبُ الشقيُّ وإن كا نَ يَرَى أَنَّهُ مِنَ السَّعْدَاءِ  
يُحْسِبُ الحِظُّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ وَهُوَ مِنْهُ عَلَى مَدَى الجَوَازِ

وأخلق بمن كان همه أبدأ التطلع الى غير ما في يده ان يكون أئمن البرية حالا وأمضهم عيشاً ، ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها وحذروا العقلاء من السعى وراءها وشغل النفس بها . هذا كله اذا

(١) قنبر ، هو مولى على بن ابي طالب رضى الله عنه

كان المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول اليه من طريق  
الفضيلة والشرف والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق . فأما  
والطريقُ الى المناصب كما نراه اليوم قاصرٌ على التوسل والتوسط  
ولاهراقِ ماء الحياء ، والمنصبُ على ما تعلم لا أمرٌ فيه ولا نهى ، ولا  
حل ولا عقد ، فالقرارُ منه أجدرُ بطالب الجاه وأحرى . والتباعدُ عنه  
أشرف بنى الفضل وأسنَى . والنزولُ عنه نعم المنصب العالى . لطلاب  
المعالى

والقسم الثالث الرغبةُ فى المنصب لشغل النفس دون سواه دفعاً  
للسأم والملل وتضييماً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال  
بمجاجات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس . ولا يدخل فى هذا  
القسم الا مَنْ كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر خالياً من كل أدب وفضل  
مشغول الضمير بالوساوس والهواجس فأكرهُ شىءٌ لديه نفسه وأثقلُ  
حمل عليه حياته ولا بدَّ له من مشاغل متجددة ومسائل متعددة تشغله  
عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده اذا هو خلاً بها لحظةً كأنها خلية  
من خلائيا الزناير أو وكرٌ من وكور الأفاعى ، وهيات أن يبلغ  
المسكين غرضه يوماً لأن مَنْ ضاقت عليه نفسه كان العالم عليه أضيق  
ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخلقةُ عليه أثقل

والقسم الرابع الرغبةُ فى خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع  
الامة . وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً لأنه لا يتفق لنا الجمع بين

المحافظة على البقاء في المنصب وبين الاستقلال في الرأي الذي تقتضيه مصلحة الوطن. ومن أراد أن يخدم وطنه فليتنخلص من قيود الحكومة ويخدمه وهو مطلق اليدين واسع التصرف

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل خصوصاً في بلد يذسبون فيه الى صاحب المنصب كل فضيلة وينزعونها عنه اذا سقط منه، فالرجالُ عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل :

إِنَّ الْأَمِيرَ هُوَ الَّذِي  
يُضْحِي أَمِيرًا يَوْمَ عَزَلِهِ  
إِنْ زَالَ سُلْطَانُ الْوَلَايَةِ  
لَمْ يَزُلْ سُلْطَانُ فَضْلِهِ

فن ذا الذي يقبل الدخول في خدمة الحكومة وهو يجدعها محيصاً إلا من أضله الله على علم . ولذلك فاني عاهدت نفسي أن أتخير لأولادي في تعلمهم صناعة يتعمشون بها أحراراً وتكون معهم أينما حلوا وساروا لا يسلبها منهم تقلب السياسة وتغير الحوادث ولا يؤثر فيهم غضبُ زيدٍ أو رضَى عمرو

(سابعهم) - لله أنت ما أحلى بيانك، وأجلى برهانك، وأنا معك في

هذا الحكم، وعلى هذا العزم

(الثاني) - اتركوا هذه الخطب المكدرّة والأفكار المحزنة

وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرّج عنا ويروح، ولا تجمعوا علينا بين  
ذل النهار وهم الليل . وهل لك يا فلان أن تقوم معي للمسابقة والرياضة  
بالبسكليت

(الاول) - الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع اليه  
(ثامنهم) - أو قوموا بنا الى عرس فلان فقد بلغنى أن فيه  
« بوفيه » لم يُسمع بمثله حسنا ووضعنا  
(الاول) - أنا معك

(الثامن) - لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمتع الفناء  
(الاول) - لست معك في هذا بل نخرج من البوفيه الى  
الازبكية لسماع الموسيقى الانجليزية أو الأوبرا التليانية  
(الرابع) - أنا لا أتوجه معك لأنني ذاهب الى « الكلوب »  
(السابع) - انتظروا قليلاً حتى تقرأ جرائد المساء  
(الخامس) - على بالجرائد الفرنسية منها فهي أصح من العربية  
أخباراً وأغزر مادة

(الثالث) - اقرؤوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو  
بعضها مع بعض

(الثاني) - قارئاً - « آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا »  
(الرابع) - ماذا جرى لصوابك يا عزيزي ، اقلب الصحيفة الأولى  
فالنا ولهذه المقالات الافتتاحية ، وما لنا ولهذه الافكار الصبائية

(الثاني) - قارئاً في الصحيفة الثانية - « الاسكندرية لمكاتبتنا » :  
« الامة برجالها والمناصب بأربابها والمعارف هي التي تخرج لنا رجال  
المستقبل ومن أين لنا بالرجال اذا كانت تبخل بالمال فالمستقبل حينئذ  
مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة ان لم تنهض العواطف لإنشاء  
مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك كان ... :

(الرابع) - حسبك أيها القارئء حسبك ، أما قلنا لك لا تقرأ هذه  
المقالات المعلومه

(السابع) - اترك « الاسكندرية » الى غيرها  
(القارئء) - « الزقازيق لمكاتبتنا » : « يثنى العموم بلسان واحد  
على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكفء والرش ...

(الثامن) - أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة الوطن .  
عليك يا صاحبي بالحوادث الداخلية

(القارئء) - « يسافر سعادة العضو الوطني في السكة الحديدية الى  
الاسكندرية في هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة الى العاصمة  
على اكسبريس الصباح .....

(الثامن) - اترك قراءة هذا « المانيفتو » أيضاً  
(القارئء) - « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث في الجبانات  
والآن نذكر نص القرار ...

(الثامن) - جعل الله اللجنة قراره ومثواه . فدعه وأقرأ لنا سواه .

(القارىء) - «وصل سعادة السردار الى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة ان أم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان»  
(الثامن) - سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان وحوادث اليونان

(القارىء) - «يسم البوليس الكلاب الضارة...»  
(الثامن) - نسأل الله السلامة والهداية للجميع  
(القارىء) - «كتب الينا أحد أفاضل الاطباء بأنه اكتشف علاجاً يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ويقول حفظه الله في آخر رسالته انه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا في منامه على فراشه...»

(الثامن) - لانزع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق  
(القارىء) - «رزة عظيم: قد نجح الاسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الأشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها في عمل البر والاحسان فكان لنبا موتة أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموماً»

(الثامن) - لا حول ولا قوة الا بالله، لا بد أن تكون اسعار البورصة هبطت لهذا النبا هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى خصوصاً وفي الولايات المتحدة عموماً

(القارىء) - «نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جارياً

في قضية التزييف ولم يتم فيها شيء للآن ومتى تم نبادر الى نشره افادة  
لحضراتهم كما هي عادتنا في نشر الأخبار بأوقاتها «

(الثامن) - أفادكم الله وتنعنا بهذه الأخبار

(القارىء) - : «فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان

في مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها ورده جملان في الأسبوع الماضى .

وكذلك فاتنا أن نهىء حضرة مكاتبنا الفاضل « بنزلة واكد » حيث

رزقه الله بولادة مولود جملة الله من أولاد السعادة

(الثامن) - جلّ من لا يفعل ولا يفسى . ولكن فاته أن يذكر

أ كان ذكر أم أنى

(القارىء) - : « لدغت عقرب ابنة في قسم الوايلي »

(الثامن) - نعوذ بالله هذا كله ناشىء من إهمال الحكومة في

« الاحتياطات الصحية » ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية

(القارىء) (الثامن) - يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية

والاستهزاء واسمع لهذا النبأ العظيم

(الثامن) - سمعاً وطاعة

(القارىء) - : « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحت الآن في مشروع

فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الأمة المصرية الاسيفة

نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيمة الذى يكون من ورائه رسوخ

قدم الأجنبي في البلاد وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع

في مقالة افتتاحية «

(الاول) - ان هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى فكيف وصل

الى الجرائد

(الثامن) - إني لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال  
أن يعمد أربابُ الحل والعقد الى استخدام الخرس في مجالس الحكومة  
رجوعاً الى العادة القديمة في مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية

(الرابع) للثانى - اقرأ بقية الأخبار المحلية

(الثانى) - لم يبق في الجرائد الثلاث الا التلغرافات والاعلانات

(الرابع) - أدرك لم تقرأ الا جريدة واحدة فاقولك « الجرائد

الثلاث »

(الثانى) - هي كما تعلم نسخة واحدة في الأخبار وان كانت مختلفة

في الأسماء

(الرابع) - اقرأ لنا التلغرافات

(الثانى) قارئاً - « ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ - كان الاحتفال

بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب

وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوسته »

(الرابع) - ما هذه الصغائر

(الثانى) - هي التلغرافات الخصوصية

(الرابع) - علينا بالعمومية

قال عيسى بن هشام - وما قرأ القارىء التلغرافات السياسية

حتى استدار أهلُ المجلس حلقَةً يكثرُون اللفظ في شرحها ويرجون  
الظنون في تأويلها، وما فيهم إلا مَنْ هو على خلاف لرأى صاحبه،  
وإذا همُ قد عادوا الى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما  
وجدنا الجدال يخدم بينهم اشتعالا . خرجنا من بينهم انسلالا .  
وتركناهم في سياستهم يتيهون . وفي ضلالهم يعمهون .

## العرس

قال عيسى بن هشام - ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة .  
والمجالس الممدودة . قلت للبasha قد آن أن نعود الى ما كنا فيه من الانفراد  
والاعتزال . ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال . فأجابني وهو  
يظهر التوقف . ويبدى التأفف : « ما بالك تقطع على الطريق . في  
البحث والتحقيق . وما لك تحرمنى السعى والاجتماع . للاطلاع على  
العادات والطباع . ولم تختار أن تقتصر على ما فى الكتب والأوراق .  
لمعرفة الآداب والأخلاق . فتترك النظر . للخبر . واللمس . للبس .  
والممارسة . للمقايسة . وأى الطيبين أدق صنعا . واكثر نفعا . الطيب  
الذى يقتصر على الكتب فى درس الأعضاء والأحشاء . أم الطيب الذى  
يدرسها فى تشریح الجثث وهى تسيل بالدماء . على انه قد زال عنى فى  
هذه المدة . ما كان يعترضنى من الغضب والحدة . وانقلب العسر من أمرى  
يسرا . وغدا التقطيب بحمد الله بشرا . وصرت لا أقابل عيوب الخلق .  
بغير الحلم والرفق . وتعلمت أن أتحمم . ولا أتألم . وأتبصر . ولا أتحمس .  
وأتدبر . ولا أتضجر . فأنا اليوم أتفككهم بمخالطتهم . وأتروح بمباسطتهم .  
فلم يبق لك من عذر وجيه . ترتضيه بعد ذلك وترجيئه . وما زال البasha  
يجرى على هذا النمط فى الشرح والبيان . ويأخذنى بالبرهان فى أثر  
البرهان . حتى ملكنى بسلطان حجته . وأنزلنى على حكم رغبته .  
وكنت دعيتُ فيمن دُعيتُ من الناس الى وليمة عرس من أكبر

الأعراس . فقلت له عندي اليوم حدّ الكفاية . في بلوغ الغاية . فهلم الى المحفل الذي تحتشد فيه المحافل . والمنهل الذي تتفرع عنه المناهل . وسرت به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره . وبدأ في الطور الاول من أطواره . فاقربنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهراً يتألق . وخمّة الدجى جمرّة تتحرّق : فدخلنا ساحة كأنها مدينة . تبرجت في يوم الزينة . فوقفنا هنيئة في وسط المزدحم . لانجد موضعاً للقدم . حتى أخذنا بيدنا أحدُ المستقبلين بالباب . من ذوى العلامات في الثياب . قدستا بين جماعة لم نعرف منهم أحدا . ولم يحسنوا التحيتنا رداً . فجزيناهم على ذلك بغض الطرف . وأقننا بينهم لا ننطق بحرف . ثم أخذنا نتلمس بأعيننا صاحب الدار . فلا نهتدى له على قرار . كأنما صُغت الوليمة في غيبته . وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته . أو أننا أخطأنا العرس الى سواه . واشتبه علينا مقرّه ومشواه . فهممنا بالقيام والمسير . لولا ان أشار لنا بالسلام مشير . فتبيناه صديقاً لنا من الخُلصاء . في جمع من الفضلاء والأدباء . فقصدناهم فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحباً . وجلسنا معهم نجتى ثمر الحديث يانعاً ورطباً . وعلمنا منهم أن رب الدار في ذهول لا يدرك ما يذرّه وما يأتيه . وأن صاحب البيت لا يدري الليلة بالذي فيه . وأنه لا تثريب عليه ولا لوم . فهو مشغول بتحية كبار القوم . ممن لم يخالطهم قبل اليوم

(الباشا) - وهل يدعو الناس الى أعراسهم من لم يعرفوه أو

يخالطوه من قبل

(احد الاصدقاء) - نعم يدعو الناس الى أعراسهم كل من  
عَلَا لَهُ صَيْتٌ واشتهر له اسم من الامراء والكبراء والعلماء ، فمنهم من  
يجيب الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته لصاحب العرس . وبين  
الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعي رجاؤه ولا يتخلفون مرة  
عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عمدة الزينة وأساطين الأعراس  
(الباشا) - وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله

(الصديق) - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشریف هؤلاء  
الكبراء والعلماء لبيته . وأكثر الذين تراهم يقيمون ولائم الأعراس  
ينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده  
وفيه من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق في إقامة العرس جميع  
ماله ثم بقي عليه من الدين ما أخلّ بنظام معاشه . وأعرف تاجراً من  
التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير ثم قسم  
دفاتر تجارته الى شطرين شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من أصناف  
التجارة وأجناسها وشرط يتضمن اسماء من حضر العرس من الامراء  
والكبراء ، وقلّ ان تشتري منه صنفاً الا ويذكر لك منهم اسماً يقسم  
بحياته ورأسه أن الصنف جيد والتمن في جنبه هين

(الباشا) - ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال  
من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت أعهدا أنها تقام لاكتناس  
صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ومشاركتهم له في صفوه وهنائه  
ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء

(الصديق) — ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الأعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم (الباشا) — انى أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعتُ بهم في مجلس للعلماء

(الصديق) — نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحَمَلَة الشريعة وأئمة الدين

(الباشا) — ومالى أراهم يسرعون ويهرولون في خروجهم ، وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل ، وليت شعرى ما الذى أزعجهم وأخرجهم . أنزلَ بالدين مكروهٌ ، أحلَّ بالاسلام خطبٌ ، أحدثَ بين الناس حادثٌ بدعةٌ يستدعى قيامهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

(الصديق) — لم يحدث من كل ذلك شىء ولم يعرض لهم عارض وإنما هى عادة لهم ألفوها فى الولائم والمآدب اذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا الى الخروج من العرس ، فتراهم عند قول أحد الظرفاء « يدٌ فى الكباب . ورجلٌ فى الركاب » والذين يعتذرون لهم يقولون إنهم علماء عاملون بقوله تعالى : « فاذا طعمتم فانتشروا » وانهم يرون سماع الغناء مكروهاً فى الدين فلا يجلسون فى العرس بعد الطعام خشية ان يتبدىء الغناء فيحلّ بهم المكروه

(الباشا) — ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا

(الصديق) - هذا الشيخ المتخلف عالمٌ من أفاضل العلماء ونبهاهم وهو قادم علينا للجلوس معنا فان فينا من يأتس به ويصبو الى مجالسته (الباشا) للشيخ بعد جلوسه - أرجوك أن تسامحنى فى فضول القول فلا صبر لى عن الاستسلام والاستفهام خصوصاً إن كان فى الأمر ما يخص الدين ، فقد قيل لى إن السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجلس الغناء ، فهل لك أن ترشدنى الى القول الأصح فى هذا الباب وما الذى يجب أن يؤخذ به وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الغناء ان كان مكروها

(الشيخ المتخلف) - الكلام فى هذا الباب طويل . وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج الا طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء (الباشا) - انى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته ، فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك . والوقت وقت مسامرة فان أردت أن نقضى جانباً منه فيما ينفع ويفيد فقد أدبت واجباً عليك فى الدين ، وجعلتنا لك من الشاكرين

(الشيخ المتخلف) - اعلم أن طرب الغناء أمر غريزى راسخ فى طبيعة الحيوان . ومن الحيوانات العُجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحنّ اليه وتسكن به فيضعف من قسوتها ويكسر من حدتها وربما ذلت به رقابها وأمكن قيادها . وهذه الفيلة وهى من أكبر الحيوان أجساماً وأشدّها بطشاً اذا سمعت صوتاً مرغماً أو كلاماً منعماً

لم يلبث هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً - ولو كان في مواقف النيران - اهتزاز الحمامة المطوقة على فتن من الأفنان . وهذه الإبل المعروفة بأنها أغلظ الحيوان أكبّاداً تراها اذا برأها السرى وأضناها التعبُ وأهلكها الظمُّ فتعنى لها الحادى ذهلت في الحال عما أصابها وتعلت بالغناء عن مناهل الماء وهى على الخمس في ظمئها أو العشر<sup>(١)</sup> ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى . وطلما شاهد المشاهدون هوامّ الأرض ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب في مسيرها . وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأجوارها للمسير خلف الجيش ، ومن الروايات المتينة ان أحد الموسيقين من الفلاسفة كان عند شاطئ بحر بينى الشاطىء الآخر ولا يجد ما يحمله إليه فجلس يُلهى نفسه بالغناء واذا بدّلفين<sup>(٢)</sup> قد شقّ أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت ، فلم يزل في تدنّيه والقياسوف في تَغْنِيهِ حتى حاذى الشاطىء وسكن يستمع ، فأيقن الفيلسوف انه استهواه بتأثير الغناء وذلك لله بقوة الطرب فامتطاهُ يسخره كيف شاء . فوق عباب الماء . كأنه مطية وجنّاء<sup>(٣)</sup> . تسير في عرض البيداء . على توقيع الحداء . وحكاية ابراهيم ابن المهدي في اقياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة

(١) الخمس والعشر ، من أظاء الابل (٢) الدلفين ، دابة بحرية وهى المروفة بالدرفيل

(٣) الوجناء ، النافقة الشديدة

« هذا بعض ما يقال في تأثير الغناء في الحيوانات العجماء مع ضعف إدراكها وكثافة احساسها وتقص خلقها ، فما بالك بتأثيره في الانسان وهو أسمى الحيوان رتبة واكمله خلقه وأعظمه إدراكاً وأصفاه جوهرأً وألطفه روحاً

« والغناء في تعريف قوم من الفلاسفة فنٌ يُقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقةٍ ترتاح لها الأذن قهتيز له نفوس أرباب المدارك العالية والأمزجة الصافية ، وهو القوة المساعدة لقوة النطق في التأثير في السامع . وكان القدماء يعتبرونه لغةً عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألستهم . وكان لا بد اطالب الفلاسفة عندهم من الاحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات ، وقد عبّر عنه الحكيمان الكبيران «فيثاغورس» و«هرمز» أنه علم التنسيق لكل شيء ، ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أرمونيا » ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل ، وكلامهم يجمعون على أن لا شيء في العالم يعادل تأثير الغناء في تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات . وعندهم ان الذي لا يتأثر منه لا بد ان يكون به تقصٌ في الخلقه . والغناء مغروس في طينة الإنسان منذ نشأ في حجر الطبيعة ومنذ استهل في المهذباً كيفلا يسكن الأبه ولا يراح عنه الا بتطريه . وفضل تأثير الغناء في النفوس على تأثير الكلام كفضل الشعر البليغ في لغته على ترجمته كلاماً غير موزون الى لغة أخرى

« والوقائع كثيرة جهة في التاريخ تشهد بقوة تأثير الغناء . منها أن أهل مدينة اسبرطة كانوا في فتنه اشتد لهيها وعظم شرها فعمد جماعة من الموسيقيين الى مكان الزعماء القائمين بأمرها فمالوا يغنونهم حتى طربوا فصفت أرواحهم ورقت نفوسهم ولانت عريكتهم فانتهاوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخدمت . وقام صياح الطرب . مقام صياح الشعب . ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد في الجند فاذا انمقد جمعهم أغرى العدو بهم من يغنى فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة في قُلل الجبال فيشتمل في نفوسهم لهُبُ الوجد وتهيج فيهم نائرة الحنين وينزع بهم الشوق الى منازلهم فيلتي أسلحتهم عن أيديهم ويذهب بهم على وجوههم ، وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤسائهم الحكم بالاعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء . ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان اذ أضحك أهل مجلسه وأبكام ثم أنامهم وتركهم . وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون الى تنسيق اصواتهم في الخطابة وتتبع النغم لتأثير القول في النفوس ، وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب فيجعله بجانب المنبر حتى اذا وجدته خرج عن النغم أو شدَّ نهبه بصوت الآلة فيرجع الى الأصل . ولسنا نجد بين الأمم امة في بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها الا وعندها الغناء في الجيش آلة من آلات الحرب تُعين على ممارسة الأهوال وتثير الى منازل الختوف .

وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفي من الامراض والاسقام. وكان « إيسمين » في مدينة « تيب » يزعم أنه يشفي من عرق النساء بصوت الناي . وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من بعدهما يؤكدون أن الغناء يشفي من الطاعون ومن داء المفصل ومن نهش الأفاعى . وقام اليوم جماعة من كبراء الاطباء في أوروبا يقررون بعد كثرة التجارب ان الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض وأطلقوا عليه لفظة « مِلُوتِرَايَا » يعنى العلاج بالطرب ، كما قرروا من قبل « الهيدرُوترايَا » وهى المعالجة بالماء و « الإليكتِروتِرايَا » وهى المعالجة بالكهرباء . وقد جرّب أطباء فرنسا تأثير الغناء فى وظائف الأعضاء بآلة حاسبة فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم وفى حركة التنفس سرعةً مقبولة . وذهب بعضهم أن للاخشاب التى تُتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل أخذ الناي من خشب الكينا فان سماعه يشفى من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن فى المانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يبتدىء به التلامذة ابتداءً بحروف الهجاء وينتهون منه انتهاءً من دروس الفلسفة

« وجماع القول فى هذا الباب من جهة البحث والنظر أن الخالق

جلّت عظمته قد جعل من فضله ونعمته على الانسان لكل حاسة لذة . فلذّة النظر فى تناسق المرئيات وترتيب اجزائها ، وذلك هو الجمال . ولذّة الذوق فى ائتلاف الطعموم ، وذلك هو العذوبة . ولذّة الشم فى لطف الرائحة ، وذلك هو الطيب . ولذّة اللمس فى تناسب اجزاء الملموس ،

وذلك هو النعومة . ولذلةُ السمع في اتساق الصوت وحركةِ توقيعه ،  
وذلك هو الغناء

« وأما القول فيه من جهة الدين فقلّ أن تجد ديناً من الأديان في  
أنحاء العالم إلاّ ويُسْتَعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتغنيم ، لما  
ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الأرواح للتجرّد والاتصال  
بالعالم الرُّوحاني . وما كان الدين الاسلاميّ وهو دين الأذان لينكر سماع  
الغناء ويحكم بكرهته وشأنه في فطرة الانسان على ما يتنّه لك . وناهيك  
بما ورد في الخبر الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع نسوةً ينفغنّ في  
وليمة عرسٍ ، فلم ينكر ذلك عليهنّ . وقد استقبله عليه السلام نسوةٌ من  
الأنصار عند مقدّمه من إحدى الغزوات بالدخول والمزاهر وهنّ  
يتغننّ على الإيقاع بقولهن :

طلع البدرُ علينا

من ثنّياتِ الوداع

وجبّ الشكرُ علينا

ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهنّ أيضاً . وهذا عمر بن الخطاب ، على المعروف  
من غلظته وشدته في الدين ، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل استعاد  
ومزح : روى عن أسلم مولاة قال مرّ بي عمر رضی الله عنه وأنا  
وعاصمٌ نغنيّ فوقف وقال أعيداً عليّ فأعدنا عليه وقلنا أيّنا أحسنُ

صنعةً يا أمير المؤمنين ، فقال مثلكما كحماري العبادي قيل له أي حماريك شرُّ قال هذا ثم هذا ، فقلت له أنا الأول من الحمارين قال أنت الثاني منهما . وكان عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول الله وُصِّبته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به

« ورؤى ان معاوية قال لعمر بن العاص امض بنا الى هذا الذي قد تشاغل بالله ووسمى في هدم مروءته حتى نعيب عليه فعلة ، يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدخل اليه وعنده من المغنين « سائب خاثر » وهو يلتقي الغناء على جوار لعبد الله ، فأمر عبد الله بحية الجوارى للدخول معاوية ، وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية ، فرفع معاوية عمراً فأجلسه الى جانبه ، ثم قال لعبد الله أعيد ما كنت فيه ، فأمر بالكراسي فألقيت ، وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التي كادت ونحن على ميني

تحل بنا لولا نجاء الركائب

ومثلك قد أصيبت ليست بكنة

ولا جارة ولا حليقة صاحب

وردده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه ثم مد رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير ، فقال له عمرو اثئديا أمير المؤمنين فان الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة ، فقال معاوية اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب

« ودخل المغنون منزل سُكينة بنت الحسين سبط رسول الله فأذنت للناس إذناً تاماً ففصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم انهم سألوا « حُيناً » أن يغيثهم صوته الذى أوله : هلا بكيت على الشباب الذاهب . فقال لهم : ابدؤا أنتم فقالوا ما كنا لتتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثروا لسمعوه فسقط الرواق على مَنْ تحته فساموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ومات حُينٌ تحت الهدم ، فقالت سُكينة عليها السلام لقد كدّر علينا حنين سرورنا

وذكر الدلائل المغنى عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهم فقال إنه كان يحسن :  
لَمَنْ رَبَعَ بِذَاتِ الْجَا

يش أسمى دارساً خلقاً

ثم استقبل ابنُ أبي عتيق القبلة يصلى ، فلما كبر ، سلم ، ثم التفت الى أصحابه فقال : اللهم انه كان يُحسن خفيفه فأما ثقيله فلا - الله أكبر

« ولقيَ » ابنُ أبيجر « عطاء بن أبي رباح وهو يطوف بالبيت الحرام فقال : اسمع صوتاً للغريض ، فقال له « عطاء » يا خبيث أفي هذا الموضع ، فقال ابنُ أبيجر : ورب هذه البنية لتسمعنه خفية أولاً شيدن به ، فوقف له فتغنى :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودِجِ  
إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي  
أَنْتِي أُبَيِّتِي لِي يَمَانِيَّةٌ

لأحدى بنى الحرث من مذحج  
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كَلَّهُ

لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَسْجِدٍ  
فِي الْحِجِجِ إِنْ حَجَّتِ وَمَاذَا مِنِّي

وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجِبْ

فقال له « عطاء » الكثير الطيبُ يا خبيثُ

« وَوَلِيَّ قِضَاءِ مَكَّةَ الْأَوْقِصُ الْخَزْرُمِيُّ فَمَا رَأَى النَّاسُ مِثْلَهُ فِي  
عِفَافِهِ وَنُبْلِهِ ، فَانَّهُ لِنَائِمٍ لَيْلَةً فِي جَنَاحِ لَهُ إِذْ مَرَّ بِهِ سَكْرَانٌ يَتَغَنَّى بِصَوْتِ  
لِلغَرِيضِ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا هَذَا شَرِبْتَ حَرَامًا وَأَيَقَطْتَ نِيَامًا وَغَنَيْتَ  
خَطَأً خُذْهُ عَنِّي ، فَأَصْلَحَهُ لَهُ وَانصَرَفَ

« وَكَانَ لِأَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ جَارًا بِالكُوفَةِ يَغْنَى فَكَانَ إِذَا انصَرَفَ  
وَقَدْ سَكْرَانٌ يَغْنَى فِي غُرْفَتِهِ فَيَسْمَعُ أَبُو حَنِيفَةَ غِنَاءَهُ فَيَعْجَبُهُ ، وَكَانَ كَثِيرًا  
مَا يَغْنَى :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْيٍ أَضَاعُوا

ليوم كرهية وسداد نغر

فَلَقِيَهُ الْعَسَسُ لَيْلَةً فَأَخَذُوهُ وَجُبَسَ ، فَفَقَدَ أَبُو حَنِيفَةَ صَوْتَهُ تِلْكَ

الليلة فسأل عنه من غدٍ فأخبر ، فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب الى عيسى بن موسى فقال له ان لي جاراً أخذَه عَسَّكَ البارحةَ فحبس وما علمتُ منه الاً خيراً . فقال عيسى سلّوا الى ابي حنيفة كلّ من أخذَه العسس البارحة ، فأطلقوا جميعاً ، فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرّاً : ألسنت كنت تغنى كل ليلة :

أضاعوني وأبى فتى أضاعوا ، فهل أضعناك . قال لا والله ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك ، قال فعُدْ الى ما كنت تغنيه فاني كنت آنسُ به ولم أرَ به بأساً ، قال أفعلُ إن شاء الله

«هذا جملة ما يذكر في طرب الغناء طوّلتُ فيه وأسهبّت ليتبين لك

منه القول الراجح والوجه الصالح»

(الباشا) —

تعالى . الله ما شاء وزاد الله ليعاني

ما هذا الذي أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق ، وما هذا الإبداع والتفنن في أطراف المعقول والمنقول ، وما هذا التضلع في علوم الأولين والآخريين . وما عهدت قبل اليوم في العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة الاطلاع في تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها ، ينتقل في تقرير البرهان وشواهد البيان تنقل النحل على جنى الأزهار فيخرج بنا من التاريخ اليوناني الى الروماني الى الأوربي الى الاسلامي فعجباً له ، الأعجمي وعربي ،

وشرقيّ وغربيّ، وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية إخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم في طريقهم فتقف عند حد العلوم الشرعية والأقوال الفقهية ثم خالفهم الى التوسع في العلوم الدنيوية والمباحث العقلية

(الشيخ المتخلف) - لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع في بني الإنسان ونورٌ ساطع يستضيء به جميع الأنام، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ولا أهل ملة دون ملة ولا يقف الإنسان منه عند حد. ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالف اللغات وتفرق الأجناس عن اجتناء ثمره من أي لسان كان وفي أية امة كانت وفي أي عصر من العصور. وما في الأديان دين يبعث أهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأيّ وجه من الوجوه مثل الدين الاسلامي، ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل فاقصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته واعتقدوا أنهم على الهدى ومن سواهم في ضلال

(الباشا) - قل ما شئت في كسل علماء الدين الاسلامي وسوء تراخيهم واشتغالهم عن العلم لا بالعلم. ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدرى وعيل صبرى، ولا أزال كلما تذكرته جاش بي الهم والنم وتملكني الأسف والحزن، وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسمك في الاطلاع وتبجرك في طلب العلم وتعلقك بأسباب العلوم الأوربية. ولكنني مع ذلك لا أمتنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تليهم هذه العلوم عن علوم الشرع

وتستدرجهم الى الخلط والخبط ، وقلّ في الناس من يحكم نفسه للتوسط في الامور والاعتدال في المطالب والوقوف عند الحد . ولست أدري الى اليوم ، يعلم الله ، أى العالمين أضلّ سبيلاً وأسوأ مصيراً ، العالم الذى يتخبط في ظلمات الخرافات ويضرب في تيه الترهات ويفوض في لجج الأباطيل بلباس الدين ، أم العالم الذى يُوغل في علوم الأوربيين ويأتم بسنة المخالفين للدين ويفترّ بتمويه الموهين فيضلهُ الله على علم

(الصديق) — ليس هذا وقت الجدال في تلك المباحث الدقيقة ،

والتفتوا بنا الى سماع الغناء قليلاً فقد احتشد له المغنون

(الباشا) ملتفتاً — نعم أصبت . وهل لك ان توفق لى بين حالة المغنين التى أراهم عليها الآن في احتشادهم على منصة الغناء وبين ماسمتهُ أنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال . فانظر اليهم تجد أحدهم يمزج ويقهقه . والآخر يتناوب ويتمطى ، وهذا يبصق يمينا ويمخط شمالاً ، وذلك يصيح بأعلى صوته القهوة القهوة ، وتأمل في هذا الواصف منهم فوق المنصة على رجلٍ واحدة ويده الرجل الأخرى يخلع منها نعلهُ في وجوه الحاضرين . وأين ما ينبغى أن يكون عليه المغنى من مسكون النفس واجتماع الخاطر وانشراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء واستهواء النفوس اليه

(الصديق) — لا تؤاخذهم بما هم فيه فانهم نشأوا في أمة يرى

السوادُ الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن في ممارستها

حطة ونقصاً ، فصنرتُ لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم صناعتهم ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات فهم والحدّادون أو همّ والبنّاؤون سواء بسواء ، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه وصاروا يؤدّونه كما يتفق لا كما ينبغي وكما يجب ، لا كما يُرضى . ولا يغيب عن فطنتك أنه لا بدّ للمغنى من أن يثق في نفسه بتأثير غنائه في نفوس السامعين حتى تثور فيه نشوة الطرب ويتبادل معهم لطف الانفعال فتتصل القلوب وتتجاذب الأرواح وتصعد به نفسه في مراقى الفن وتسمويه في صناعته الى مدارج الكمال ، والأُ كان المغنى اذا غنى في غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً أو يُسرج للأعمى سراجاً ، فيحلُّ به من التواني والفتور ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب بروق الصنعة ويمحو بهجة الفن . وإنك لتحقق صدق ما أقول اذا نظرت معي نظرة الى هيئة السامعين في هذا المكان . فعن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عسائم يحظون باشارة تحية أو إيماء تعطف فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام للتراف الى الكبراء والحكام وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بعمرتهم والتباهى بأقذارهم . وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينهون أبداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام ، ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يمتالوا على استنفاد ما عندهم من الافكار والآراء في

الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة لينتفعوا بها ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح مآلديهم من المشاكل والدعاوى . ومن قدامك طائفة من الامراء والحكام لا هم لهم الا أن يجتلبوا توقيع الحاضرين واحترامهم بالتأنيق في الجلوس والتكلف في الشئام والانتفاخ في الثياب والفتل في الشوارب ، أجسامهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة التماثيل والأصنام - فسالوهم إن كانوا ينطقون - ولئن نطقوا بكلام فانما يدور على أن اليوم كان شديد الحر ، وأن أو أن الرحيل عن مصر قد حل . ومن خلفك ثلثة من الأحداث . لم تهذبهم الأحداث . وشبان . لم يربهم الزمان . صرعى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزى الجديد . وأن تفرغ أجسادهم منها في قالب من حديد . فهم لا يتحركون حركة الا بالف حساب . خشية أن ينفرد نظام الثياب . فان قعدوا فكالقاعدین للمصور في حفظ الأشكال والأوضاع . وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الأجداع . ومن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء . اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء . ورووا عن زوج فلان أو بنت فلان . ما تنقبض منه النفوس وتتشعر الابدان . ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت الى سماع الغناء ويتفرغ له الاطبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم . فكيف يتيسر للمغنين في هذا المقام أن يتقنوا في عملهم أو يتقنوا في صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن

قال عيسى بن هشام - وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا  
مرّ السحاب . فانقضت على الواقفين عند الباب . كأنه بارقة شهاب . أو  
نازلة عذاب . يدفع يديه عن الشمال وعن اليمين . في صدور القاعدين  
والقائمين . لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حلّ عنه الوثاق . أو عبدٌ من  
العبيد يطلب الإباق . فالتفت الباشا يسأل الصديق : أجدارٌ هوى في  
البيت أم حريق

(الصديق) - لا هذا ولا ذاك وإنما جاء الخبر لصاحب البيت  
بقدم جماعة من رجال الأفرنج ونسائهم

(الباشا) - أترام يريدون إقامة ألعاب افرنجية مع الأغاني العربية  
(الصديق) - ولا هذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الاوربيين  
في البلاد الشرقية يتشوفون في مطالعتهم الآثار المصرية الى رؤية المحافل  
والاسواق ، فاذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا اليها بنسائهم وأولادهم لتسلية  
الخاطر بدرس العادات والأخلاق

(الباشا) - قد تبين لي أنّفا ان صاحب العرس من أهل الصعيد  
فأية صلة بينه وبين سياح الإفرنج تدعوه الى دعوتهم في عرسه أم من  
عادتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين  
(الصديق) - هم من المدعوين لا من المتطفلين . ولا يلزم لدعوتهم  
ان يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم ويفقه  
لسانهم ، ولكن حضورهم في حفلة العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه

ينشرح به صدره ، ويزهو به عنده قدره ، ويراہ نخرآله يعلو به ذكره ،  
 ومجداً للبيت يرتفع به عماده . وهو في دعوتهم بالخيار إيمان يرسل الى  
 بعض تراجمه الفنادق فيعطيهم عدداً من تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة  
 ليوزعوها على من يكونون في خدمتهم من السياح ، فيبيعها التراجمه  
 اليهم بقبية معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهي العامه ، ويعتقد  
 الأجانب ان تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس الى  
 أعراسهم بأثمان معينة ، وإما أن يترقى صاحب العرس فيخطب أصحاب  
 الفنادق الكبيره بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية ويرغب أن  
 يحضرها كذا عدداً من السياح فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما  
 يتحفظهم به بالدعوة الى العرس ، فاذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم  
 هرع الى حسن استقبالهم وبالغ في التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق  
 منازل الأمراء والكبراء ونسى كل من في العرس سواهم وتفرغ طول  
 ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظر اليه كيف يتيه  
 عجباً ويشمخ كبيراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن الى بيت الحرم  
 لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهن على رؤوس العظام  
 والامراء في صدر المكان

(الباشا) - وما هذا الذي أراه في أيدي النساء يحملنه معهن كأنه  
 الاسفاط<sup>(١)</sup> فيها الحلي لهديه العروس ، فهل بلغ بهن الكرم الى تكليف  
 أنفسهن تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل

(١) جمع سفاط ، وهو الوعاء

(الصديق) — هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذنَ بها  
مناظر الحرم وصورَ النساءِ في زينتهنَّ وتبرُّجنَ وما تكون عليه هيئة  
الزفاف ليتهادينَ بها إذا رجعنَ الى ديارهنَّ . وربما نُسخت منها الوف  
النُسخ لتبَاعَ في الاسواق الأوربية وتنشر هناك للاستهزاء والسخرية  
قال عيسى بن هشام — ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع  
السامحات الى الحرم . كالصاعدات الى الهرم . تقدّم الى صدر المكان .  
ونظَرَ في الوجوه بإيمان . ثم دنا من طائفة الكبراء والامراء . وقصد  
الأمير المقدم فيهم بلامراء . فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام .  
ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام . فقام الأمير يمشى أمام الصفوف  
في خيلائه . مشية القائد يوم بلائه . وفُتِحَ له الباب ففتَح المائدة ،  
ولا فتَح سعيد للقادسية . والمعتم لعمورية . ومحمد للقسطنطينية . ثم  
ولا فتَح جدّه الأعلى للاقطار الحجازية . ودخلت في أثره صفوف  
الجموع . وهم في سكون وخشوع . دخول الثقاة . للصلاة . والعفاة .  
للصلات . ثم ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواصل .  
على الحصون والمعافل . لا بل هجوم الاسود الضارية . على الاشلاء  
الدامية . والذئاب الخاوية . على الشياه الراعية . والنسور . على القبور .  
والذباب . على الشراب . واشتدَّ الزحام . وزلّت الأقدام . وضلّت  
المذاهب . واصطكت المناكب . وشخصت الأحداق . وامتدت الأعناق .  
وتهدّلت الشفاه . وتحلبت الافواه . وتحركت الأشداق . وتقارعت

الأطباق . وتداولت الأيدي بالمدنى . كالظبى . فى الوغى . والتفت  
الساق بالساق . واشتد الهولُ وضاق الخناق . ثم انجلت المعمة عن شهداء  
التخم . وأسراء البشم . وقتل الطعام . وصرى المدام :

بأجسامٍ يجرُّه<sup>(١)</sup> القتلُ فيها  
وما أقرأها الآ الطعامُ

ولعبت الكؤوس . بالرؤوس . والشمول<sup>(٢)</sup> . بالعقول . والراح .  
بالأرواح . وذهبت العقار<sup>(٣)</sup> . بالوقار . والبطنة . بالفطنة . فاختلط  
الحابل بالنابل . والعالى بالسافل . والرفيع . بالوضيع . والأمير . بالحقير .  
هذا يزح ويقهقه . وذلك يُتعم ويُتهته . والآخر يقىء طعاما . وسواه  
يقىء كلاما . ولم نسمع بينهم من قولٍ يفهم ويعقل . أو حديث يؤثر  
ويُنقل . الا ما سمعناه يدور بين شاب متكاف متصنع . وكهل مجرب  
متضلع :

( الكهل ) - أليس من أسوأ الاسواء وشر البلاء ما نراه من حال  
هذا الصعيدي صاحب العرس كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده وانسلخ  
عن مألوف العادة فى قومه ودياره وطرطرفة واحدة الى العمل بعادات  
الغريبين والتقليد لبدع الإفرنج جفري فى الاحتفال بالعرس على نمطهم  
وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملاءمتها لطبعه ، وكيف لا يرثى لحال هذا  
المسكين وقد أنفق جانبا عظيما من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز

الغريب عن ذوقه، فهو في حيرة وذهول لا يدري ما يصنع ولا يعلم ما يفعل في وسط هذه السوق القائمة والزحام الهائل، وانظر الى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة وارتكب ما يخالف العادة، ثم اشهد معي بأنه أساء الى نفسه وجنى على أهله

(الشاب) - ما أراه الا أنه أحسنَ صنعا وأجاد عملا وأخذ بالسنن الأرشد في التجلي بشعار المدنية والتعاقب بأسباب الترقى في الحضارة، وقد آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن في السير على النهج الغربي لهواً كان ذلك أو جدياً وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة الأفكار القديمة فترتفع الأمة وتنتفع البلاد

(الكهل) - أي نفع يُرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور. ولئن امتد الزمن قليلاً على عمدة الأرياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم الى البلاد الأوربية، ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آباءهم ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعاً والدور أن تسمى خراباً وأن تصبح المزارع بأيدي الأجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الأطنان وزراعة الأراضي كما يقلدونهم هم في باطل المدنية وزخرف معيشتها

(الشاب) - أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب

المتمدنين بين الأحواض والمستنقعات في قرية أبيه ، وبين الأوباش والهجع  
من فلاحيه ومزارعيه ، فيبدل المقاصير بالخيام ، والكهرباء بالمشاعل ،  
و « البوفيه » بالسماط ، والصحاف بالتصاع ، والأباريق بالجرار ،  
و « الدبند » بالدفين ، و « المايونيز » بالعصيد ، والهلين بالقول ،  
وعش الغراب بالحلبة ، و « الموستاردا » بالمش ، و « المربى » بالرطب ،  
و « المانجو » بالدوم ، و « الكريز » بالجز ، و « الشبانيا » بالزهر ،  
و « الكاب » بالحليب ، و « الكنيك » بعرق البلح ، والموسيقا بالمزمار  
والأوتار بالأذكار ، و « البيانو » بالأرغول ، و « الأوركستر » بالرباب ،  
و « البالو » بالسحجة ، و « مس أوستن » بنت أم شنب ، وموكب  
الزفاف بأعب الهوارة ، ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام ،  
ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة ، وكتبة المراكز والسيارات ، بدل  
أمرء البورصة والمصارف ، ويضع على رؤوسهم سمف النخيل والعراجين  
بدل أكاليل الأزهار والرياحين . . .

(الكهل) - يكفيك فقد أسهبت في الشرح والوصف . وأنا  
أقول لك : نعم يعجبني أن يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ما دام  
من عاقبته عمران البيوت وحفظ الأموال ، وبقاء الأحساب وإطعام  
المساكين ، وبرء الأقارب وإسداء الخير للصحاب والجيران ، وإدخال  
السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها . بهذا ينتفع أهل البلاد  
ويرضى الناس بعضهم عن بعض . ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما

أراه ما دام من وراءه عواقب الخراب وسخط الناس وعقوق الأهل  
وإصقاع العار ووقوع الفضيحة وسوء المصير . ومن الذي يعارض فيما  
أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى هذا الرجل العريق النسب في  
أهل الصعيد أهل الشهامة والحمية وذوى الفيرة والأنفة ومن حوله  
الخصيان على ما نشاهدُه الآن يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صناديق  
التمر لشرب النساء في الحرم ، وهو يعرف حكاية الأعرابي الذي سقوه  
التمر في أحد الأعراس ، ولم يكن ذاقها من قبل ، فلما تأرت سوزتها  
قال لمن حوله من أهل البيت « إن كان نساؤكم يشربنها فقد زين ورب  
الكعبة » ، ولست أدري على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذا  
العرس الى احتمال كل هذه الفضائح والممايب . فان كان غرضه إرضاء أهل  
العاصمة بإنفاق تلك الأموال الطائلة في إقامة الاحتفال فقد أغضبهم  
وأسخطهم جميعاً على ما نسمعه ونراه ، وليس فيهم إلا كل منتقد لعماله  
معترض على فعله يرميه بعضهم بالتبذير ويرميه بعضهم بالتقصير . وإن  
كان الغرض من هذا التوسع في الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى  
بين الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوه أخرى  
تقيده وتفيد الناس ، ولا يتناء المحامد سبيل شتى تُرضي النفوس وتسر  
القلوب ، ولو كان اقتصر في إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها وبذل  
النصف الآخر في باب من أبواب البر والاحسان مثل مساعدة الفقراء  
وإنشاء الملاجىء وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى الصناعات خلّد ذكره

بين قومه بالعمل الصالح ولأقاموا لمجده صُروحاً من طيب الأحدثة  
وجميل الثناء

قال عيسى بن هشام - وما نشمر الآ وقد انقطع علينا سماع بقية  
الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة  
حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شرابٍ ويعدونهم بالعودة إليها بعد  
غسل الآنية وتجديد الألوان. فلم يسمع لهم أحد ولم يلتفت إلى صياحهم،  
فأخذوا في التصفيق بالأف كف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج، فلم ينتقلوا  
ولم يتحركوا، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا  
الأضواء وتركوهم يتخبطون في الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون  
الأبواب، فسبقناهم إلى الخروج والتقينا في خروجنا عند الباب بصاحبين  
يتنازcan في هذه الحال ويتخاصمان في شدة السكر، فلطم أحدهما صاحبه  
فسقط على الأرض يتخبط في قيئه. وينشد هذه الآيات في هذره وهزته:

شربت الخمر حتى قال صحبي

ألست عن السيفاء بمستفيقٍ

وحتى ما أوسد في ميدي

أنامُ به سوى التراب السجقِ

وحتى أغلق «البوفيه» دوني

وأنست الهوان من الصديقِ

وسمنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تهباً وعجباً ويصرّ خده صلفاً

وكبرا:

شربتُ الخمر حتى خلتُ أني

أبو قابوسَ أو عبدُ المدانِ

وسمعنا في الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم، فسكت المغنون وضج المكان واضطرب الحاضرون ووقف الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسي يتطاولون لمشاهدة العروس وهو في زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى اذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً، فقام أحد الحاضرين فصعد على منصة المغنين صعود الخطيب على المنبر، فشخصت نحوه الأبصار ومالت إليه الأسماع واذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها: «أيها الحاضرون والغائبون. هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور. على منابر الجبور. وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور. من سماء القلوب وارض الصدور. وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون. فأنجلت عن بصائرنا غمامم الأحزان ووبل الشجون. ولو أني لست من فرسان هذا الميدان. الراكبين لحيازة قصب الرهان. ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف. بحروف الرماح ورماح الحروف. ولا من المتطين في شروح البلاغة متون الضوامر. ولا من السابحين في بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر. ولا من الساحيين في حلة سحبان. ولا من المتدرعين في حصون المعاني والبيان. وقد حيل بين العير والنزوان. إلا أن ما أعرفه في هذا العروس من العلم والإقدام. وما له في مستعمرات

التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام . وما أعتقده فيه من محبة  
الأوطان ومصادقة الاخوان . كما أن ما أعامه وأتحققه في العروس التي  
نزف اليه هذه الليلة . من عامها بتدبير المنزل وفروض العيلة . وما هو مشهور  
عنها لدى كل قاص ودان . مما يوجب حسن القبول والامتنان . وما  
وما شهدها لها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس . بأنها أنس المحافل  
وبهجة المجالس . وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح .  
وأوسمه في جباههم من الفرح والانشرح . كل ذلك هو الذي جرأتني  
على الوقوف في هذا الموقف الحرج . وسط بحر هذا العرس المتموج . وباني  
أتوجه اليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيري صفحا . واتقدم لكم بنفسى  
لتطووا عن هفواتها كشحا . وأطلب منكم أن تشرّبوا معى نخب  
الكؤوس . فى نخب العروس . وتقولوا معى فليحى هذا الشاب فى  
هناء وسرور . ورخاء وجبور . ممتعا بنشأة الرّفاء والبنين . وناشئة الأولاد  
الناجحين . ما ناح القمريّ فى رياض البساتين . وصاح الأخدريّ<sup>(١)</sup>  
بين الأعشاب . أمين أمين »

ثم نزل الخطيب فقابلته الاكف بالتصفيق والأفواه بالتهليل  
والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثا بالسلام . ثم أعقبه على  
النبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام . فأشده هذه القصيدة  
النادرة . والمدحة الباهرة :

بأوقات الهناء الصافيات

تجلى الأنس من كل الجهات

لقد قام البشير بها ينادى  
على أهل العروسين الهداة  
وفى تلك الصدور الفرح يجرى  
كما تجرى خيول الصافنات  
فبشرى أيها الشهم المفدى  
ببخير الغايات الآنسات  
ظفرت بدرقة في عقد ماس  
من المتأربات الراقيات  
وقد زفوا بهذا الأفق بدرا  
الى شمس الهدى والمكرمات  
تفدت بالمعارف والمعالي  
فحازت زينة التعلات  
يرجى أن يكون كذا بنوها  
لدى أيامنا المستقبلات  
بهم تزهو الشيبة في المرابي  
وتندو للحصى أقوى الحماة  
بهم ترقى المواطن مرتقاها  
وتصبح قدوة المتريات  
كجيش في البلاد عرّمرمى  
وجند في الحروب مبرّزات

وتمشى التيه في أوج المراق  
وترفل منه في حلق الشبات  
فتصبح أنت خير أبٍ كريم  
وتصبح تلك خير الأمهات  
. ودمتم بعد ذلك بألف خير  
ونمى بالبنين وبالبنات  
ولولا الاختصار وضيق وقت

لجئت بألف بيت شاهقات

ثم اتبهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب . وعاد المغنون الى  
اللحن والتطريب . فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف . من ركنٍ الى  
ركنٍ ومن صفٍ الى صفٍ . فلم أجد في الحاضرين بلا استثناء . من هو  
ملتفت الى سماع الغناء . بل رأيتهم يوجهون النظر الى السماء . ويكثرون  
من الإشارة والإيماء . كمن يتضرع بالدعاء . لكشف المحنة والبلاء .  
فرفعت مثلهم نحو السماء بصري . فدُهيتُ من حيث أدرى ولا أدرى .  
اذ رأيت نوافذ الدار . مهتوكة الاستار . وفي كل نافذة هيفاء مسفرة  
النقاب . كالدُّمِيَّة في المحراب . أو كالصورة تتألق في إطارها كالشهاب .  
أو كالبدربدا مسفراً من خلل السحاب . تُنفذ منها مثلَ خيوط الغزاة (١)  
للمغازلة . وتجرّد من اللحظات مثل سيوف الكُماة للمنازلة . فتصيد  
طيور القلوب الحوائم . وتفتكُ بمهيج النفوس الروائم . ثم تراها تُوىء

بكأس الصهباء . الى شفّتها الحمراء . وتلمس واسطة العقد . بزهرة من  
الورد . فيشبهه على الرأى وجه الأمر . باختلاف اليواقيت كالجرم .  
ياقوتة الجمر . يياقوتة الثغر . وياقوتة الزهر . يياقوتة النجر . ثم لاقتاً  
ترسل الاشارة تَلَوَ الاشارة . تارة بالمروحة وأخرى با « السجارة » .  
مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور . وتفصح إفصاح المعاني في  
السطور . والرجالُ من تحمّن يجاو بونهن على أعين النظار . طوراً باشارات  
الأيدي وطوراً بلغة الأزهار . وكل مغازل فيهم يمتقد أنه امتاز على  
سواه . وتغلب على أهل النوافذ بهواه . وأضرمَ فيهنّ نار العشق  
وجواه . وخلع قلوبهنّ بدعواه . وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم .  
أو أخواتهم وبنات أخواتهم . والمغني يستقبل وجوههن في هذه الاثناء .  
بوجه ليس فيه أدنى حياء . فيغنيهن من الأصوات والألحان . ما يثير  
من الغرام ويهيج من الأشجان . والخصيان يصعدون الى الحرم بأوراق  
وينزلون منه بأوراق . يتخترن فيها الأديوار السائرة على ألسنة المشاق .  
في وصف حرارة الأشواق . ومرارة البعد والفراق . وما زالت الحال  
تزايد قحّة ووقاحة . وتمضاعف هتكاً وفضاحة . حتى قام في وسط  
المكان جماعة من الأصحاب . يتقاذفون بألفاظ القذف والسباب . ثم انهم  
انتقلوا من التلاعن والتشائم . الى التضارب والتلاكم . فقام الحاضرون  
على الاقدام . لمشاهدة ميدان النزال والخصام . ثم توسط رجال الشرطة  
بينهم لفض المحاصمة . وسوّقهم الى المحاكمة . بعد أن تمزقت الثياب تمزق  
الأوراق . وتخصبت الوجوه بالدم المهباق . فصارت الأفراح أتراحا .

وانقلب الغناء نواحا . وقلتُ لصاحبي هلم بنا الى الفرار . من موافق  
التهمة والعار . وخرجت به أسوقه أمامى . وأقول له فى بعض كلامى : لقد  
حق لك بعد الذى رأينا ونظرنا . وبلونا وخبرنا . أن تلتهب بالغضب  
والحنقِ التهاباً . أو يذهلك الدهشُ والعجبُ فلا تعى جوابا . وهل بقيَ  
بعد ذلك فرقٌ بين سرور الدنيا وحزنها . أو فضلُ لظهور الارض على  
بطنها . فأجبنى بلسان الحكيم المدرّب . والحليم المهذب . وهو يتبسم  
استهزاء . ويهزّ كتفيه ازدراء : لم يبقَ فى فضل الحكمة فضلٌ للسخط  
والغضب . وعجّبي اليوم مما أرى يكدرن من العجب

## العمدة في الحريفة

قال عيسى بن هشام - وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع . لدرس الأخلاق وسبر الطباع . وتبدت الوحشة عنده بالائتناس . في مخالطة الناس . فصار يلج على ويلج في الطلب . أن أذهب به في هذا السبيل كل مذهب . وأنا أداوره وأحاوله . وأماطله وأطاوله . وهو لا ينفك يستنجزني ويستقضي . وإذا استغفته لا يمفني . فقلت له لم يبق أماننا من المجالس والمنتديات . إلا ما اشتملت عليه الازبكية من المخجلات المنديات <sup>(١)</sup> . وما تضمنته من صنوف الرجس والنكر . وفنون الفسق والسكر . وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنم والتهمة . وأن أحلك مجال الريبة والشبهة . وأربأ بسنك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر . وتدخل معهم في تلك العمر . وتقسر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون . وشروى ما يفعلون <sup>(٢)</sup> . فلا تأمن حينئذ نقد الناقدين . وطعن الطاعنين . وقاسمته إني لك لمن الناصحين . فقال ألي تقول ذلك وقد آتيتني من دروس الحكمة العالية . وضروب الفلسفة السامية . ما أزدري معه عدل العاذلين . وأحتقر به لوم الجاهلين . ولن يضير النفس الشريفة الطاهرة . أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة . وقل أن يعدى المريض الطبيب . وتذهب رائحة الدفر <sup>(٣)</sup> برائحة الطيب . والإمعان في رؤية النقيصة

والرذيلة . يزيد النفسَ الفاضلةَ تَمَسْكَاً بالفضيلة . ولا يَعْرِفُ قَدَرَ الرشد والهداية . إلا مَنْ نَظَرَ فِي أَعْقَابِ الضلالةِ والغواية . وبالظلمة يُعْرِفُ فضل الضياء . وبضدّها تَبَيَّنَ الأشياءُ . - « ذلك من فضل ما عَاسَمْتَنِي مما عَلَّمْتَ رُشْداً » - . ولقد كان من أدب الحكام في أيام دولتنا . وزمنِ صولتنا أن يَغْتَرُوا من هَيْئَاتِهِمْ . وَيَسْتَرُوا من سِيَمَاتِهِمْ . وَيَبْدُلُوا من أزيائهم المعروفة . بأزياء غير مألوفة . لِيَتِمَكَّنُوا من مَخَالَطَةِ النَّاسِ على اختلاف أشكالهم . وَيَقْفُوا على جَلِيَةِ أَمْرِهِمْ وحقيقة أحوالهم . فلم يكن ذلك مما يَضُرُّ بِسَمْعَتِهِمْ . أو يَحْطُ من رَتَبَتِهِمْ . عند ظهور أمرهم . ووضوح سرهم . فلا عليك إذاً أن تسلك بي ما شئتَ من المسالك . ولا تَحْشَ على شَيْئاً من تلك المعاطب والمهالك

قال عيسى بن هشام — ولما لم يبق لي بد من امثال حكمه . وتنفيذ عزمه . قصدتُ به من الأزبكية روضتها الغناء . وحديقتها الفيحاء . فاما وصلنا الى بابها . ووقفنا عند «دُولاها» . وضعتُ فيه أجرة العبور . كما توضع النذور في صندوق النذور . ودرتُ فيه دورتي ودارَ الباشا دَورَتَهُ . فقال لي وهو يدافع الغضب وسورته . هل كُتِبَ على الداخلين في هذه الجنة الزاهية . أن يدور الانسان دَورَةَ الثور في الساقية . فقلت له نعم شاع التخوين بين الناس في جميع الاشياء . فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء . لتكون عليهم رقيباً عتيداً . لا يستطيعون معها اختلاصاً ولا تبديداً . فهي ترقم من الداخل عند كل دورة . ما ينقده الداخل فيها

من الأجرة . فلا يضيع منه مثقال ذرة . ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا  
حسن المنظر وازدهاء . وراقه بهاء المكان واستهواه . وتملكه الابتهاج  
وتولاه . فقال ماشاء الله لا قوة إلا بالله : لِمَنْ هذه الجنة . من كبراء البلد .  
قلتُ هي ملك كل واحدٍ وليست بملك أحد . أنشأتها الحكومة من  
« المنافع العامة » : لنزهة الخاصة والعامة . ثم سرنا نطوف في أنحاء  
الحديقة . بين أشجارها الوريقة . وأغصانها الرشيقة . وأزهارها الأنيقة .  
والباشا يهتز طربا . ويميل عجبا . لحسن هذا المنظر المعجيب . والمنبت  
الخصيب . ثم وقف بنا وقفةً بين برد الظلال وخيرير الماء . ورفَعَ  
بصره يقدّم باسطاً الأرض ورافعاً السماء . ثم رأيتُه ينحني للركوع  
انحناء القوس . بعد أن أنشد قولَ حبيب بن أوس :

أرضٌ إذا جرّدتَ في حُسْنِها  
فكركَ دلتكَ على الصانعِ

وسمعتُه يتلو في الركوع والسجود . قولَ صانع الوجود : « ولله  
يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَامًا لَهُمُ الْغُفُورُ  
وَالْأَصَالُ » . وقوله أيضاً عزّ من قائل : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ  
وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ أَلَّا يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »  
ثم انثنتُ به في طلب الراحة : فجلسنا على أريكة من أرائك تلك  
الساحة . ودارت بيننا هذه المخاطبة . بما اقتضته المناسبة :

( الباشا ) — كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصا وبالمرتاضين

مزدحمًا يشاهدون جماله ويتفياون ظلالة ما دامت الحكومة قد أباخته لكل رائج وغادٍ كما تزعمه . ومالى لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب فى أزيائهم بأبنائهم ونسائهم ، فهل وقفته الحكومة على الغريبين وحرمته على المصريين ، فإننى لم أجد فيه أحدًا منهم منذ دخولنا الى هذه الساعة

عيسى بن هشام — لم تُؤثر به الحكومة قومًا دون قوم ولكن المصريين كأنهم أَلِفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها ، وأخصها معرفة ما حَسُنَ فى الأشياء ، وتمييزُ الجمال والكمال ومواضع الاحسان والاعتقان فى صنعة الوجود ، ورياضة الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تسبِّح بحمد خالقها ، أى تدل عليه بصنعتة فيها . وكان الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره فى الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والإيمان فى خالق السموات وما يتألق فيها من الشموس والاقمار والنجوم والكواكب ولا فى خالق الارض وما ينبت فيها من النبات ويدب من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال وهى بجمال صنعها وكمال وضعها :

تَصِيحُ بَمَنْ يَمَسُّ الْآتِرَانِي

فَتَفْهَمَ حِكْمَةَ الْخَلْقِ الْعَجِيبِ

(الباشا) — جلّ الخالق الصانع . ولكن لأى سبب أَلِفَ المصريون غفلتُهم عن التمتع بهذه النعمة نعمة المشاهدة ولذة المطالعة وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عنهم

(عيسى بن هشام) — لا سبب فيما أعلم الا التماهى فى التهاون  
والتراخى عن ليقاظ هذا الشعور الغريزى الكامن فى النفس وتنميته  
بالرياضة والتفكير ومعاودة الإمعان والتدقيق ، وقد اعتنى الأجانب به  
عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته حتى صار لديهم ملكة من الملكات  
وفناً جميلاً من أرقى الفنون قدربوا عليه ومروا فيه وسرى فى دماغهم  
يتوارثه الأبناء عن الآباء ، فترى الطفل فيهم اذا شبَّ ودرج وأراد أن  
يتحف أهله يوماً بادر الى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع  
وتسابق بها اليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم . ولقد برعوا  
فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموه ، ولم يقتصر الحال فيه عندهم  
على المراتب الطبيعية بل تجاوزوه الى المراتب الصناعية ، ففهم من يبذل  
الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ورسم  
من الرسوم يحسن تمثيل زهرة من الزهور أو دائرة من الشفق أو  
راع من الرعاة أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته فى  
الأصل الطبيعى وبين قيمته فى الشكل الصناعى ، وقل أن تدخل دار  
ميسور منهم الا وتجد أنحاء الجدران مزدانة بألواح التصاوير والتهاويل  
مما يحاكي المناظر الطبيعية ، فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن  
المنظر فى داخلها إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها . ولقد  
جرم ذلك الى شدة الولوج بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس فى اقتنائها  
والغلو فى التحفظ عليها والضن بها ، فكم رأينا من قطعة من الحجر أو

غيره تزدريها الأعين بيننا ولا يعبأ بها المصري فيطرحها في كنانة منزله فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الأجنبي في بحثه وتنقيبه فتصير عنده في قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد . وكم رأينا من السياح من يتكبدون مشاق الأسفار وتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدّم من وما عفا من الرسوم في هذه الديار ، وربما رأينا المصري ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ ويمر ويهرم ولم ير من الأهرام القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد ، وربما لم يلتفت الى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت

(الباشا) - تالله إن ذالمّن العجب . ولو كان الامر يجرى على القياس لكان المصريون في مقدمة الأمم التي ينمو فيها الشعور بلذة التأمل في بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لركة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والانفعال في نفوسهم ولما ميزم الله به من حسن الإقليم واعتدال الجو وفيض الماء وخصب التربة ولا نحصار موارد أرزاقهم ومعاشهم في استنبات الأرض وطول ممارستهم للفنّح والحراث والزرع والحصد . وكل من رأى الإقليم المصري كالزرجدة الخضراء، في وسط رمال الصحراء ، لا بد أن يحسد أهله على التحلي بهذه الفريدة من عقد الطبيعة وينبسطهم على دوام تتممهم باجتلاء هذا المنظر الذي يجلو البصر ويشج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر

فتصفو الروح فتخفّ من قيود العالم السفلى الى الاتصال بمعارج العالم العلوى ، فترتاح هناك هنيهة مما تقاسيه في مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام ، وتفر من وجهها الى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . واعلم - وهذه لفظة طلما أفادنى تكرارها على لسانك فاسمح لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب - أن الفرق بين الإنسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ، فى الخلقة ما يشبهه . ولا فى النطق فى الحيوان ما ينطق . ولا فى الذكاء فى هوام الأرض ما يفوقه ذكاء ، وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يفضّلها بها هى إدراك حقيقة الوجود بالإمعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض للاهتداء الى معرفة خالقها ، وعبادة صانعها ، قال جلّ وعزّ فى محكم بيانته : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكَرْ إِنَّهَا أَنْتَ مَذَكَّرٌ » . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات وهى أشرف اللذات وأصفاها وأفضلها وأبقاها . وما يتقرب العبد الى الله زلفى فى عبادته بأجلّ من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلقه ، قال وهو أحكم القائلين : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ الَّذِينَ يَذَكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

سبحانك فَقِنَا عَذَابَ النارِ ». ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا مَنْ تجرّد مثلى يوماً من عالم الأجسام والفناء، الى عالم الأرواح والبقاء، ولا ينبئك مثل خبير

ولو كانت الامور تجرى على القياس أيضاً لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة وسبعوا في نوتها فيهم إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور فمن جهة انصرافهم الى تقليد الغريين والعمل على نعطهم في مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً في جميع حركاتهم وسكناتهم. ولكن لعل هناك من خفي الأسباب ما حرّمهم اطراداً التقليد في هذا الباب

(عيسى بن هشام) - لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم الى الفتور والانقباض سواء أكان في الماديات أم الأدييات . وهم على شدة ولّهم بتقليد الأجانب لا يقلدونهم الا في ما خفّ وهان من الزخرف المموّه والبهرج الكاذب والملاذ الشهوانية مما لا ينتج عنه إلا سقم الأجسام ونفاد الأموال ، وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة فجهولٌ عندهم بل مرذول لديهم . وإجمال القول في هذا الباب ان مثل المصرى في أخذه بالمدينة الغريبة كمثل المنخل يحفظ العثّ النافه ويفرط في التمين النافع

(الباشا) - يا أسفاً عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدينتهم القديمة

ولم يتحلوا بفضائل المدينة الحديثة فأصبحوا كالتى تقضت غزلهما من  
بعد قوة أنكاثا

قال عيسى بن هشام - وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو  
حتى وصلنا الى المغارة المصنوعة في بعض أنحاء الحديقة ، فرأينا صنماً  
جميلاً وشكلاً بديعاً ، وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الأحجار ، فجلسنا على  
سرر هناك أعدت للزائرين . واذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين  
شغاهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات اليها ، فأقنا نسترق السمع  
ونلتقط اللفظ ، فتبين لنا من سياق كلامهم ان أحدهم عمدة من عمد  
الأرياف ، وثانيهم تاجر من تجار الثغور ، وثالثهم فتى من أهل البطالة  
والخلاعة . ومما التقطنا من قول العمدة للخليع في مجرى حديثه :

(العمدة) - وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا  
الجلوس ولم نر شيئاً . وهل كان جلّ القصد ومتهى الجهد أن نجلس هنا  
في وخامة الأشجار ورطوبة الهواء وعفونة الماء . وتالله ما أجد فرقا بين  
هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذى خلفته خلف بلدتنا واعمري  
إن الإوز الذى يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سيمناً من الإوز  
الذى يسبح أمامنا ، وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الأشجار  
العقيمة التى لا تثمر ولا تُعفى من جوع . وأين نحن من ذلك الثمر الشهى  
والصيد الطرى الذى وعدتنا به وأطمعنا فيه !!

(الخليع) - مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء وان كنا أخطأنا

العرض هنا لاننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها ، وما كنت أتخيل أن الامر وصل بها الى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان الآ منذ أخبرنى أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة نخلو يدها من الأشغال فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها والتجول فى أنحاءها . ولا أقول فى هذه النازلة الآ قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة : « حسبنا الله ونعم الوكيل »

(التاجر) - وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والأيام التى كانت فيها الحديقة مرتما للحسان . وملعبا للقيان . ولطالما دخلت هنا وحيدا فريدا فما أكاد أنصب الجباله وأضع الحب حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع

(العمدة) - يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الإقامة الامدة قضاء الحاجة والرجوع الى البلد فوراً والآ فقد عرض الواحد منا ذراهمه للضياع وصدرة للالتقباض . والى الآن ترانى فى غاية الأسف والحزن على ما جرى لى أمس فى سهرتى مع فلان الموظف اذجرتنى للتنزه معه فطاوعته على هواه أملاً فى إنجاز حاجتى عنده فسجبنى من مكان الى مكان ومن حان الى حان يشرب هو وأصحابه على حسابى وكأتما أجوافهم دنان متخرقة فلا تتلىء أبداً من الخمر وكأتما كيسى كنز لا يفتى بالانفاق . وما كدنا ننتهى من حانات الخمر حتى اندفعوا بى الى بيوت القمار فأصبحت مصدع الرأس من الخمر فارغ الكيس من القم

(التاجر) - ولم تطاوعه على أغراضه وتنقاد اليه مع أصحابه وتنفق مثل هذا الاتفاق من غير حظ ولا لذة وان كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفي في ذلك أن تضع « المبلغ المناسب » في يده وتتخلص منه ومن أصحابه فلا تسيرهم ولا تعرض نفسك للتورط معهم كما فعلت

(العمدة) - يحق لك أن تعرض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام فان أشغالكم لاتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الأرياف ، فنحن في اضطرار دائم الى استرضائهم و « المبلغ المناسب » الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء الحاجة بل يلزم الإنفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلك المبالغ ولان لم يكن لك عندهم حاجة في الحال ، وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير ، وما يدريك أن الذي تُغضى عنه الليلة ولا تلتفت بنظرك اليه في حانات الأزبكية يصبح غداً قاضياً في المحكمة أو حاكماً في المديرية

(الخليع) مقاطعاً - اذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك فلنا عنها عَوْض من ليلتنا هذه إن شاء الله

(العمدة) - أنصدُّك في وجود العوض وقد أخلفت وعدك معنا في هذه الحديقة وأذن الليل بالدخول وليس في اليد شيء من الصيد (الخليع) - صدقني بالله ، فاني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة

من أمر الحكومة لأننى كنت مقياً بجلوان مدة طويلة وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول . ولكننى قد رتبت لك الآن سهرة فى فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت فانى أعرف صاحباً لى أخبرنى عن بيضة خدر من بيت فلان باشا فقوموا بنا وأنا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الليل، وسأ كتم عنها أمراً كما لى أن تصير معى فى الموضع الذى أختاره ثم أرسل اليكما من هناك بمن يأتينى بكما، فىكون دخولكما على حين غفله فلا تستطيع الاختفاء ثم تضطر لى البقاء فى مكانها وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأئس والسرور . ولكن لا أخفى عنكما أن مقدار مامى من الدراهم الآن لا يكفى لإعداد معدات هذا المجلس وأخشى إن أنا ذهبت لى البيت لآخذ دراهم أخرى أن ينعنى أهلى من الخروج ثانية كما هى العادة عند النساء فى التضييق على الرجال

(العمدة) - لا عليك فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة

قال عيسى بن هشام - وقاموا فى الحال للسعى وراء اللهو والمجون . وقام الباشا يسحبى وراءهم للعلم بما سيكون

## العمدة في المجمع

قال عيسى بن هشام - وخرجنا في أثر الخليع والعمدة والتاجر .  
وقد أَلَقْتُ ذُكَاةً يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ<sup>(١)</sup> . ثم أَضَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ شَمُوعَ الكَهْرِبَاءِ .  
فَعَادَتِ الشَّمْسُ مَتَوَزَّعَةً فِي مَصَابِيحِ الضِيَاءِ . كَالنَّجُومِ تَتَلَأَلُ فِي  
أَفْقِ السَّمَاءِ . وَتَقْشَعُ دِيَابِجِي الظُّلْمَاءِ . وَلَمَّا تَوَسَّطْنَا سَاحَةَ « الأُوْبْرَاءِ »  
و « الأُوْبْرَاءِ بَار » . وَقَفَ البَاشَا وَقْفَةً الإِعْظَامِ والإِكْبَارِ . يَكْفُكُفُ  
غَرْبَ الدَّمْعِ وَالاسْتِعْبَارِ . وَيَقُولُ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، إِبْرَاهِيمُ فِي النَّارِ .  
كَيْفَ لا يُضْطَرُّمُ القَلْبُ اسْتِعَارًا : وَيَجْرِي الدَّمْعُ مَسْدَرًا . فَلا أُسْتَطِيعُ  
أُوَارِي<sup>(٢)</sup> . وَلا أُسْتَطِيعُ أُوَارِي . وَقَدْ تَمَثَّلَ أُمَامِي فِي هَذِهِ البَقْعَةِ . وَهِيَ  
مُوسُومَةٌ بِسُوءِ السَّمْعَةِ . بِطَلِّ مُصْرٍ . وَرَافِعِ بَنُودِ النُّصْرِ . وَقَائِدِ جُيُوشِ  
الحَرْبِ وَهَادِيهَا . فِي مَفَاوِزِ الأَرْضِ وَبَوَادِيهَا . وَمُوقِدِ نِيرَانِ الوَقَائِعِ  
وَصَالِيهَا . وَخَائِضِ عُجْرَاتِ المَعَامِعِ وَجَالِيهَا :

فِي كُلِّ مَنبَتٍ شَعْرَةٌ مِنْ جَسْمِهِ

أَسَدٌ يَمُدُّ إِلَى الفَرِيصَةِ مِخْلَبًا

وَكَيفَ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَضْعُوا عُنْوَانَ البَأْسِ وَالجِدِّ . فِي مَوَاضِعِ المَهْزَلِ  
وَالدَّذِّ<sup>(٣)</sup> . وَيَقِيمُوا الإِبْرَاهِيمَ صِنْمًا عَلَى صُورَتِهِ . فِي وَسْطِ سُوقِ الفِسْوقِ  
وَسُرَّتِهِ . مَشِيرًا يَمِينًا إِلَى مِوَاتِنِ اللّهُوِّ وَالفَجُورِ . وَأَمَا كُنَ الفِجْشِ  
وَالعُهورِ . وَدِينُهُ يَنْهَاهُمْ عَنِ تَشْيِيدِ الأَصْنَامِ وَإِقَامَتِهَا . وَيَأْمُرُهُمُ بِكُسرِهَا

(١) ذكاة اسم للشمس ، والكافر ، الليل (٢) الاوار ، حر النار (٣) الدد ، اللهو والتم

وإبادتها . ويا بؤس قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للسكاة والفرسان .  
في ميدان الضرب والطعان . بمصافحة المنايا . ومقارعة الأقران . تشير  
اليوم وسط هذا الميدان . بمغازلة البغايا . ومعارفة الدنان . فسبحان  
محول الأحوال ومبدل الأزمان . فقلت له ما هذه الأفكار المحزنة .  
أحنبنا إلى تلك الأزمنة . وقد انقضت بنخيرها وشرتها . وذهبت بحلوها  
ومرّها . وأين أنت من طريقك في الحكمة والسداد . ومن سبيلك  
في الهداية والرشاد . نخفض عليك من حزنك وهمك . وارتك تلك  
المواجس فأنت ابن يومك . ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطانا  
مطاعا . فيذهب ما استفدناه من العلم ربمحا مضاعفا . أما إقامة التماثيل في  
الميادين . ومخالفتها للشرع والدين . فقد أقامها حكمانا تقليدا للغريبين .  
ولم ينكرها أحد من طلبة العلم وعلماء المسلمين . فاستنامت إليها الأفكار .  
ولم يوقظها التحريم والإنكار . وأما وضع التماثيل في هذا المكان دون  
سواه . وإشارته فوق الحصان يميناه . فاعل الأمر بوضعه أراد أن يذكر  
هؤلاء النافلين الذاهلين . بما كان لأبائهم الأولين . من الشأن الرفيع .  
والركن المنيع . أيام إمارته . وينبئهم على ما انتشر ذكره في الآفاق .  
وخلدته لهم بطون الأوراق . من اقتحام الممالك . وافتتاح الممالك .  
تحت قيادته . وهو يشير اليوم بتلك اليد . ليستفزه إلى مواقف العز  
والمجد . ويستنفهم عن مواطن الخلاعة والبطالة . إلى مواطن الشجاعة  
والبسالة . فتبسم الباشا من قولي ضاحكا . وقال ما عهدتك في الجواب محاولا  
مماحكا . فقلت له دَعُ هذا وانظر إلى هذه البنية الإيوانية . ذات الأرائك

الخسروانية . فقال أعظم به من بناء . بين بيوت الكبراء . قلت هو بيت  
لهو رفَعَ اسماعيلُ قواعدهَ وبوأَ الناسَ مقاعدهَ . يشاهدون فيه صنوف  
الألعاب . وضروبَ الأعاجيب . مما يؤخذ عن أساطير الأولين .  
وأقاصيص الرأوين . وما تفتنُّ فيه كلُّ غادة حسناء . من جمال الزينة  
وحسن الرِّواء . وتفتنُّ به كلُّ قينة هيفاء . من فنون الرقص والغناء .  
اقتداءً بالفربيين في ديارهم . واحتذاءً لآثارهم . وقد بقيَ من بعده تنفق عليه  
الحكومة من عيش الصانع والفلاح . لتفككة النزلاء والسيَّاح . ثم  
انظر أمامك الى هذا المجتمع الملتحم . والموقف المزدحم . فالتفتَ فقال  
ماهذه الضوضاء العظيمة . أمأتمُّ ما أرى أم وليمة . قلت له لابل هو مجتمع  
عام . تتزاحم فيه المناكب والأقدام . لمسامرة الأصحاب . ومعاورة  
الشراب . وبيننا نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير . عند باب هذا الحان  
الشهير . فسرنا في عقبيهم . ولحقنا بهم . فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه :  
كونا هنا في الانتظار . حتى أعود اليكما بالأخبار . انجازاً لوعدي .  
وإيفاءً بعهدي . فأجاباه بالقبول . وتقدماً للدخول . فقال العمدة للتاجر  
ما أحوجني الى تضييع الزمن . ورياضة البدن . بشرب كأس من العُقار .  
ولعب دور من « البليار » . وقال التاجر وما أحوج يدي الى ملامسة  
ورق القمار . وأذني الى رنين الدرهم والدينار . ثم صعدنا وراءهما الى  
قاعدة بأعلى المكان . أعدت للعب والرهان . فتقدم العمدة وهو يهزُّ  
أعطافه وأردانه . فتسلم كُرَّة « البليار » ووصلجانه . وقعد التاجر وهو  
يرتعد من الفرق . في مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر

والسمع . في غمار ذلك الجتمع . فسمعتُ عن يميني أحد السماسرة المعروفين بالدهاء . يقول في مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء :

(السمسار) — لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية التي كان يفتني الرجل فيها بكلمة ويثرى بإشارة فيصبح بها أغني الأغنياء بعد أن كان معدوداً من الفقراء ، ولقد وصل المصريون الآن الى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من حكاهم من يقطع الأقطاع ويهب الضياع . وبقي الغني الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يستريح ثروته ، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم ، فأصبح مضطراً الى الإنفاق من تلبده فسرى النقصان الى رأس المال حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته الا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعه بينهم . وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحد على هذه الحال الا ويندثر بين المصريين ما بقي من بيوت المجد والغنى . واعلم أنه لم يبق أماننا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع في الثروة والمال وكنز الكنوز في الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسبب والعطاء ويدفعون عنهم الضراء بالسراء . وما يخفى عليك انه بيت البورصة

(الغني) — اسكت ولا تذكر لي اسم البورصة فقد سمعنا في هذه

الأيام عن فلها فلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر

(السمسار) - ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد  
بفلان وفلان فان الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلها . أما  
أحدهما فإنه كان يعتمد في المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير وكان لا  
يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين : العرافة السودانية أو العرافة  
الإفريقية ، تلك بودعها ، وهذه بورقها . ومن نوادره في الأخذ بالتفاؤل أنه  
سمع رجلاً مجذوباً يصيح في الطريق بقوله : « اذهب يا يزيد » . وكان  
لا يزال متردداً بين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود ، فتفاهل  
بالكلمة واعتمد عليها وسار من توه الى سمساره فأمره أن يشتري له  
عشرين ألف قطار ، فنصحته وحاول أن يحوله عن رأيه فلم ينتصح ولم  
يتحول وهبطت الأسعار في اليوم الثاني وتوالى هبوطها فكان ما كان  
من خسارته . وأما الثاني فكان جلُّ اعتماده على الأخذ بأفكار أرباب  
الجرائد والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين ولم يعمل برأى الممارسة  
الذين هم أدري الناس بوجوه المضاربة وأعلمهم بطرق الصواب فيها

(الغنى) - لن تزيدني والله براعتك في البيان والبرهان الا ابتعاداً  
عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ولا أعتبرها في نظري الا أكبر باب  
من أبواب المقامرة . والمقامرة هي عين المخاطرة

(السمسار) - أما المخاطرة فهي لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون  
وملازمة لعمله في كل زمان ومكان ، ومن أراد أن يتوقى الأخطار ويسلم  
من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال ، والأولى له أن يترك هذا العالم

الى سواء . واسمح لى بآخر قول أقوله لك فى هذا الباب وهو أنك  
أخبرتني بمقدار محصولك فى هذا العام وهو ثلاثة آلاف قطار مخزونة  
عندك الى اليوم لم تبعها تربصاً لصعود الأسعار ، ولم تبال بما يلحق القطن  
فى طول خزنه من نقص الوزن وما يتهده من بقية الأخطار كالسرقة  
والحريق ، فإذا كنت فضت الانتظار لصعود الأسعار على هذه الحال  
فى ثلاثة آلاف قطار فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين الفاً  
من « الكونترات » دون كلفة ولا مشقة كالتى احتملتها فى استخراج  
المحصول ، فانك لاتدفع هنا من أرض ولا تنفق على حرث ولا تؤدى  
ضريبة ولا تبذل ماء وجهك لرى الأطيان ولا تخنى ظهرك لأصاغر  
الحكام وما دخلت فى قضية ولا وقعت فى منازعة ولا تخوفت شيئاً من  
الآفات سماوية كانت أم أرضية بل هو ربح يأتىك عفواً صفوياً ولا  
رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها يمينك فى التوقيع  
( الغنى ) - يجوز أن يكون فى قولك هذا بعض ما يقع ولكنى

لا أجد نفسى مطمئن يوماً الى ولوج هذا الباب

( السمسار ) - أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ولا أدعوك الى أدنى  
خسارة وما عليك الا أن تجرب صدق نصيحتى فتشترى ألفين من  
« الكونترات » فتتنظر بها صعود الأسعار مع أقطانك المخزونة وأنا  
أضمن لك الربح ما دامت آخذاً برأى . ولا تستمر فى هذا الانكماش  
والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين ، وخذ فى النشاط والإقدام اللذين

هما سبب تقدم الغريين . واعلم أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال البورصة و « الكنتراتات » كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار ، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ، ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير . وأنت المخير مع ذلك فيما ترضاه لنفسك

(الغنى) - وكيف حال الأسعار اليوم

(السمسار) - كما كانت أمس وهي فرصة ثمينة للشراء

(الغنى) - خذ لي اليوم خمسمائة فنطار للتجربة

قال عيسى بن هشام - وتركنا هذا المصفور قد وقع في يد الصائد المحتال . والتفتنا الى ذات الشمال . لسمع ما يدور من الجدل . بين رجل فرغ كيسه من المال . وامتلات راسه من الآمال . وبين تبّيع محام من الأجانِب . يتلقط القضايا من كل جانب :

(التبّيع) - لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية وهي معروفة بجنبها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقاما تبادر الى التنفيذ ، أما المحاكم المختلطة فانها لا تحسب لغير الحق حساباً وسواء لديها الحكومة والاهالي والتنفيذ فيها أسرع من تقاذ السهم عن القوس ، كما أن المحاكم الأهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدرك الفائدة

من عهد وضع اليد عليها الى الآن فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة .  
ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة هل لها ذكرٌ في الحجة  
باسمها التاريخي المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً الى الواقف

(صاحب القضية) - أما الشجرة فمذكورة في حجة الوقفية أنها  
« شجرة العذراء » ، وهي قائمة على أرض سواد ، وأما نسي فهو متصل  
بأحد عتقاء الواقف السلطان الغوري ، ولكن من لي بدخول القضية  
في المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لي بمحام أجنبي  
وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم في « مقدم الاتعاب » الجمالة

(التبيع) - هوّن عليك الأمر . أما رفع القضية الى المحاكم المختلطة  
فانه سهل هين يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجنب ، وأما المحامي  
الأجنبي فأنا أتكفل لك بإقناع المحامي الذي أشتغل معه ليقبل القضية  
من غير أن يلتفت الى « مقدم الاتعاب » وانما يتفق معك على مناصفتك  
فيما تأتي به القضية من الأموال . وأما الأجنبي الذي تتنازل له عن  
القضية فهو حاضر في مكتبتنا تحت يدنا لتسخيره في مثل هذه القضايا .  
وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية

(صاحب القضية) - لا بأس بما تقول ولكن ليس عندي ما أستغني  
عنه اليوم لتلك النفقات . ولو كنت واثقاً ببعض الوثوق بكسب القضية  
لبادرت الى بيع الحصة التي بقيت لي من العقار ولكنني أخشى أن  
تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مال ولا أمل

(التبيع) - لو كنت تعلم بمهارة معلى وماله من علو الشأن في المحاكم المختلطة ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرت الله في بيع الحصة ورفع القضية

(صاحب القضية) - استخرت الله واعتمدت على هذا الرأي (التبيع) - فقد أذنتني حينئذ بالكلام مع المعلم . ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط

(صاحب القضية) - أمهلني أياماً حتى أجد من يشتري الحصة بالثمن المناسب

(التبيع) - أنت في سعة من الوقت لبيع الحصة انما يجب أن تبادر بإحضار الأوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها

(صاحب القضية) - بيني وبينك مساء الغد في هذا المكان قال عيسى بن هشام - وتركنا أيضاً هذه السمكة . تتخبط في الشبكة . ثم حولنا النظر الى العمدة في لعبة البليار فما راعنا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة ثقيلة فأطارها الى وجه أحد الجالسين من الأجانب فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على العمدة يريد به شراً وهو يدمدم ويظلمم والعمدة يجمجم ويفغمم ، وكاد يقع ما تسره عقباه لولا أن أسرع التاجر فحال بينهما وأخذ بيد الأجنبي يستعضه . ويبالغ في الاعتذار إليه حتى لانت شكيمته بافتتاح زجاجتين من «الشمپانيا» لعقد الصلح على حساب العمدة . ثم عمد العمدة الى الجلوس

فلم يمهلهُ الذي كان يلاعبه وطلب منه استكمال اللعب فقام إليه مكرهاً وقلبه يُرتجف ويدهُ ترتعش، فما هي إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليارد فخرقه وشقّه، فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب « البار » ومن ورائه بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عالٍ : كيف تسلمون عصا البليارد لهذا الفلاح الأخرق فيخرقه ويتلفه . ثم وقف للعمدة يطالبه بثمن ما أتلف وتعويض ما عطل وقدره له بخمسة عشر جنيهاً لا يتجاوز عن درهم واحد منها . فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيه عدداً فاذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً فلم يقبل منه فتوسط إليه بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً وجلس العمدة متكدراً . ولقد كان اللعب بالأفعوان ، أقرب الى السلامة من هذا الصولجان ، ثم استمر جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاثة جنيهاً ، وقعد بجانبه يُظهر التأسف والتندم فقال له العمدة دع عنك الأسف والكدر فالضائع ضائع ومصيتك على كل حال أخف وقعا من مصيتي . وبيناهما على هذه الحال اذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشا وفرحاً مرحاً :

(الخليع) - أشرق أنسنا وسعدت ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا ، وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد تم مرادنا وهلم بنا

(العمدة) - ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويُدني منا نهارنا . فاقعد

معنا نقصص عليك ما دهانا في غيابك

( الخليع ) - بعد سماع القصة - وَيَلِي ثُمَّ وَيَلِي فَأَنَا الْمَلُومُ إِذْ تَرَكْتُكَ  
فَوْقَ لِكَمَا وَقَعَ وَلَكِنْ قَدَّرَ اللَّهُ لِكَمَا وَلَطَفَ بِكَ . أَمَا مَصِيبَتِي الْآنَ  
فَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ مَصِيبَتِكَ وَأَبْلَغُ ، فَمَاذَا أَقُولُ وَمَاذَا أَفْعَلُ وَكَيْفَ أُدْفِعُ وَبِأَيِّ  
عِذْرٍ أَعْتَذِرُ وَقَدْ أُخْرِجْتُ الْبَيْضَةَ مِنْ خِدْرِهَا وَالظُّيَّةَ مِنْ كِنَاسِهَا  
وَاسْتَعْدَّ الْمَجْلِسَ لِحُضُورِنَا وَأُنْسَنَا

( التاجر ) - الأمر أيسر مما تخشاه فما يفوتنا الليلة ندرکه غدا

( الخليع ) - ذاك شيء لا يدرك في كل وقت وحين ، وهذه المرة  
هي بيضة الديك لبيضة الخدر ، وكيف يمكن فضّ هذا المجلس وتأجيله  
وقد مضى قطع من الليل وتعذرت سبل الرجوع :

كَيْفَ الرَّجُوعُ بِهَا وَحَوْلَ قِيَابِهَا

سُرُّ الرَّمَاحِ يَمْلِنُ لِلْإِصْفَاءِ

تخلصاني ناشدتكما الله مما وقعت فيه وأنقذاني من هذا البلاء العظيم

( التاجر ) - وما وجه الخلوص وقد علمت بتفصيل الحال

( العمدة ) - تالله ان الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم مصاباً

من كل ما نابنا ، ولو كان الوقت نهراً لأسرتُ الى « البنك » فأخذت

ما يلزم لنا من الدراهم

( التاجر ) - إذا كانت الرغبة انتهت بك الى هذا الحد فالأمر

يسير ومعنى الآن ما يكفي وأنا أقوم لك مقام « البنك » ، فكم تطلب ،

ولأى ميعاد تكتب

( الخليع ) - هكذا يكون الصديق ، في وقت العسر والضيق ، فحياك

الله وأبقاك

(العمدة) للتاجر - أعطني عشرين جنيهاً تكون معي على سبيل  
الاحتياط

(التاجر) - ولك الفضل . هاك سبعة عشر جنيهاً تبلغ العشرين  
المطلوبة بالثلاثة التي خسرتها هنا أمامك . وأتمسُّ منك كتابة ورقة على  
سبيل التقييد

قال عيسى بن هشام - فما كان أسرع من الخليع في استحضار  
الدواة والقرطاس . لإجابة هذا الالتماس . فطلب العمدة منه . ان يكتب  
الصك عنه . ثم خرجوا والعمدة يمرر أذياه . ويحكُّ قَدَّالَه<sup>(١)</sup> . وخرجنا  
خلفهم في الحال . تتبعهم متابعة الظلال

---

(١) القَدَّال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس

## العمدة في المطعم

قال عيسى بن هشام — ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته. ويقصر من مشيته. ويقول: ما هذا الذي أرى. من فساد هذا الوري. كأنّ ناقماً تقعهم في خابية<sup>(١)</sup>. جمعت أخلاط الكبار. أو غامساً غمّسهم في جابية<sup>(٢)</sup>. وعتّ أمشاج الجرائر<sup>(٣)</sup>. أو كلاً خطونا خطورة رأينا من الغش والمكر أصنافاً وأضراباً. أو حضرنا ندوة. شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبواباً. فما أتعس من يعاشرهم. وما أنحس من يحيا فيهم. وما أشقى من يجاورهم. وما أسعد من يحافهم. وانوثاه من الإنسان. في هذا الزمان. فقلت له قدك<sup>(٤)</sup> بل في كل زمان :

لَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ النَّاسِ فِي عَصْرِ  
وَلَا اسْتَقَامَتْ فَذَا أَمْنَا وَذَا رُعْبَا

وَلَا يَقُومُ عَلَى حَقِّ بَنُو زَمَنِ

من عهد آدم كانوا في الهوى شُعْبَا

هكذا كان بنو آدم. تأخر عهدهم أو تقادم. فهم على ما هم فيه أبداً. أمس واليوم وغداً. — وما عساک تقول في ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء. وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء: «أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء». وما عساک تقول في قوم ترى الصغير منهم قبل

(١) الغاية الجوة الضخمة (٢) الجابية الحوض

(٣) الامشاج الاخلاط والأوساخ. والجرائر جمع جريرة وهي الائم

(٤) قدك بمعنى كفاك

الكبير . والمولى قبل الامير . يهون عليه أن يفترى ما أسف من الدنيا  
وسفل من المطالب . بمنطقة البروج ومجرة الكواكب . وما عساك  
تصف خلقاً أفضل ما في أعضائه . أكبر سبب لشقاء الخلق  
وشقائه :

أفضل ما في النفس يفتالها

فَنَسْتَعِينُ اللَّهَ مِنْ جُنْدِهِ

هذه المضغة التي بفيه . ويقال إنها أفضل ما فيه . لو نسجت  
مضغة على قدرها ، حُماتُ العقارب (١) - حماك الله - لُحْمُهَا . ولُعَابُ  
الأفاعي - عافاك الله - صَنِبَتْهَا . لكانت في جانب هذا اللسان أخف  
ضراً . وأهونَ شراً . وما عساك تمت نوعاً نعت الله واحداً منهم في  
آية من الآيات . بتسع صفات : « حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ مَنَاجٍ  
لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ »

فَأَفٍ لِعَضْرَيْهِمْ نَهَارٍ وَجِنْدِسٍ

وَجِنْسَى رِجَالٍ مِنْهُمْ وَنِسَاءٍ

وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةً وَضَعَهُ

وَلَمْ يَرْتَضِعْ مِنْ أُمَّهِ النَّفْسَاءِ

وما يدريك أن ما رأيتُه من أخلاق هذا النفر . أفضل من أخلاق  
مَنْ عَلَّاهُمْ مِنْ سَادَةِ الْبَشَرِ . ولعل ما أدركته من طمع الغنى ومكر  
السمسار وخداع التبعية . وما تبينته من غش التاجر وغفلة العمدة واحتيال

(١) الحمة ، الابرة التي تضرب بها العقرب

الخليع . هو دون ما تكنه صدور الكبراء . وتجنه قلوبُ الأمراء . تحت حجاب التكلف والتطبع . ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع . وكلما اعتلى الإنسان درجةً في المقام . وخطأً فيها خطوة إلى الأمام . تنفع لها بقناع وتلثم بلثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسةً تحت صفائح الدّهاء . مضروحةً بين جنادل الرياء . بل ربما كان أخلام أخلاقاً حساناً . أبلغهم في التظاهر بها زوراً وبهتاناً . كان لى صاحب تراه من لسانه عَضَنْفَرًا رَبِّبَالًا<sup>(١)</sup> . يَحْمِي عَرِينًا وَيَحْرَسُ أَشْبَالَ . تنقيه القياصرة . وَتَحْشَاهُ الأَكَاسِرَةَ . فاذا كشفت عن قلبه . وحسرت عن لبّه . وجدته شاةً تعطف على سخلها<sup>(٢)</sup> . وظئراً تحنو على طفلها<sup>(٣)</sup> . وأعرف آخر قد ضجّت أحرف الفضيلة من ذكرها بقلمه . ولو كهأفى فمه . وهو مع ذلك يَحْمِسُ وجهه ويدي جفونه . إن سمع أن مُخْتَلَسًا اختلس دانتك دونه . وفيهم من يَمَالِكُ من وجهه التغير بالانفعالات المتناقضة . والتلون بالالوان المتعارضة . فتكون دموعه طوعه لإرادته . وابتساماته عند حاجته . قال حكيمٌ لاَ خَرْمَا أَكْثَرُ مَا تَحْوَلُ رُقْعَةُ الشَّطْرُنِجِ وَتَتَقَلَّبُ . قال له تَقَلَّبُ وَجْهِ الأَنْسَانِ أَعْجَبُ وَأَغْرَبُ . وقد تبقى الأخلاقُ الذميمة . والصفاتُ اللثيمة . مطويةً عن النظر . محجوبةً عن البصر . حتى يُتاح لها كاشفٌ من الحواث فينزِعُ عنها القِدَامَ<sup>(٤)</sup> . ويحسر اللثام . فيظهر الطبع السقيم . ويبدو الخلقُ الذميم . ومن عوامل التبيين والبيان . في

(١) العَضَنْفَرُ والرَبِّبَالُ ، من أسماء الاسد (٢) السخل ، جمع سخنة ولد الشاة

(٣) الظئر ، المرضعة (٤) القدام ، غطاء الابريق

أخلاق الانسان . الغضبُ والجبنُ . أو السكر والحزن . ونحن الآزفي  
ساحة السكر فهلم بنا . نلحق بأصحابنا . فأدر كناهم وهم وقوف يتشاورون .  
وسمعناهم وهم يتحاورون :

(العمدة) — دعوني من هذا كله فقد صاحت عصفيرُ بطنى ولم  
يدخل جوفى اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التى أكلتها  
مستعجلاً ، فبياً بنا الى « السكة الجديدة » نعطف على « العطفى » فان  
طعامه دسم وسمنه زبدة ولحمه سمين

(التاجر) — ما هذا « العطفى » الذى تذكره وأين أنت من كباب  
« الحاتى » وحمام « لوكه » أو طواجن « الفار » وأرز « المعجمى »  
(الخليع) — ما هذا الخلط ونحن فى وسط الازبكية بين « التيوبار »  
و « سان جمس بار » و « اسبلند بار » وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ  
الآعين وناهيك بهذه الاماكن ونظافتها وحسن خدمتها وعلو قدر  
الواردين عليها

(العمدة) — دعنا من هذه الاماكن فان طعامها لا يسمن ولا يبنى  
من جوع خصوصاً وأنا على هذا الخلو من بطنى  
(الخليع) — وأنا لا يمكننى على كل حال ان أترك هذه الاماكن  
وأذهب معكم الى الحوانيت التى تُشيران بها وأخشى أن يرانى بها  
أحد ممن يعرفنى فأصفر فى عينه

(التاجر) — إذا كان الأمر كذلك فأنا على رأيك

(الخلِيع) للعمدة — لا مناص لك حينئذٍ فضعيفان يغلبان قوياً  
فادخل بنا « النيو بار »

قال عيسى بن هشام — فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا على  
مقربة منهم ، وما خلع الخليعُ طربوشه حتى نزع العمدة عمامته ، وما  
ضَرَبَ الخليع يده على المائدة حتى صفقَ العمدة يديه . فحضر الخادم  
ومعه قاعة الألوان فتناولها العمدة ونظر فيها — نظر المريض الى وجوه  
العوْد — ثم ناولها للخليع ليقراها فأخذها وتأمل فيها وشرع يسرد  
الألوان حتى انتهى منها ، والعمدة لاهٍ عنه والتاجر منصتٌ اليه

(الخليع) للعمدة — ماذا تحب وتختار

(العمدة) — أختار المرق ومن بعده لحم القرن أو « الكبما »

(التاجر) — وأنا أطلب كباباً وقرعاً وأرزاً

(الخليع) — وأنا أختار « فاتحة الطعام » أولاً ، ثم خلاصة اللحم

بالبيض وأرزاً بفاكهة البحر ودجاجة بعش الغراب وسماناً بالكماة  
وهليوناً بالزبدة

(العمدة) — ما هذه الأسماء الغريبة

(الخليع) — هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها

(التاجر) — « كل ما يُعجبك والبس ما يعجب الناس »

قال عيسى بن هشام — فيذهب الخادم ويحيى للخليع بفاتحة الطعام من

زيتونٍ وجبلٍ وسمكٍ مِلِجٍ وزُبْدَةٍ . فيتأمل العمدة فيها ثم يميل على قطعة

الزبدة فيبتلعها وهو يقول: أزبدةٌ وسماك . فيطلب الخليع سواها، ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة ، فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز وعطَفَ على خبز الخليع يأكل منه ، فيأتيه الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفتته في صحن المرق حتى يمتلىء ويفيض على المائدة . ثم إنه انحنى فأنحى عليه وصفق يطلب صحنًا آخر وخبزًا آخر ، وهو يميل في هذه الأثناء على طعام الخليع فيأخذ قطعةً من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فتفلت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ، ثم يأخذ جزءاً من عيش الغراب فيضم منه فلا يألفه فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ويقول : ما هذه القشور التي يطبخونها هنا وهي عندنا شائعة على الجسور تفحص عنها الخنازير في الأرض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسان ولا حيوان . ثم يأتي الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء الصحن، فيعاود الطلب فيملىء الخادم ويقول له : انما أنت هنا ياسيدي في مطعم لافي مخبز

( الخليع ) للخادم - ما هذا الكلام البارد يا « جورج » أليس

لكل شيء ثمن هنا ، ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد

( الخادم ) للخليع - لا مؤاخذه فان كلامي ليس موجها اليك

( الخليع ) - لان لم يكن الكلام لي فهو لصاحبي ، وصاحبي هذا

أعز على من نسي

(العمدة) - دعهُ يأتِ لنا بخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول  
مع أنه يقال أن هذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً

(التاجر) للخادم - أعطني أيضاً لونا من الخضر

(العمدة) للخليج - قل للخادم يحضرنى مع لحم الفرن فقل بصل

(الخليج) - كل شيء يجوز إلا أكل البصل في هذه الليلة

(العمدة) - لا مؤاخذة فإن النفس الملعونة ذهبت إليه من غير تروء

(التاجر) للخادم - لائتِ لى بشيء من الحلوى أو الفاكهة

(العمدة) - إذا كان في الفاكهة برتقال أو بلح فأعطني منه

(الخليج) - ولاتنس يا «جورج» أن يكون في نصيبي من الفاكهة

«مانجو» و«قطشة خضرا» و«موز» و«أناناس»

(العمدة) للخليج مازحا - ومن قال انك لست من الناس

(الخليج) للخادم - هات زجاجة نبيذ أخرى بفبارها

قال عيسى بن هشام - ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف أسرع

العمدة بيده إليها فانتقى من كل فاكهة زوجين ودمسها في جيبه وهو يقول

هذه تنفعنا للتثقل بها على الشراب فيما بعد . ثم حضر الخادم بآنية من

البَلُور الملون فيها ماء وقشر ليمون فوضع أمام كل واحد منهم إناء ، فهم

العمدة بشرب إنائه في الحال ، فبادره الخليج ونزعه بيده عن فمه

(العمدة) - لماذا تمنعني عن شرب هذا « الخشاف » وقد أنعشتني

منه رائحةُ الزهر

(الخليج) - هذا ياسيدى ماء لغسل أطراف الأصابع بعد الأكل

(التاجر) - من عاش رأى ١١

(العمدة) للخادم - الحساب يا «خو اجا»

(التاجر) - القهوة

(الخليج) - الخلال مع كأس من «الكونياك» بجانب القهوة،

ويأتى الخادم بجميع هذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها الى مكانها ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ثم يمسح ما علق بها في غطاء المائدة، ثم يلتفت الى الخليج ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته

(الخليج) - أربعون فرنكاً

(العمدة) - اقرأ جيداً فان هذا غلط فالخش

(الخليج) - قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا

(العمدة) - ما هذا النهب والسلب وما هذا الإسراف والتبذير

لو كنا ذهبنا الى مكان من الأماكن التي عددناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل. ولو كنا توجهنا الى المحل الذي أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفيننا بغير ثمن لأن في غرفتي برمة أرزٍ بحمام مما أحضرته معي من البلد. ولا شك في أن الخادم يريد أن يستغلنا فزاد في الحساب ما أراد، وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسى ولا أدفع هذا الحساب. وسأكشف لكما هذا الغش

بكل طريقة فانه يهون على أن أبدد عشرة جنيهات في الهباء ولا يهون  
على أن أدفع قرشاً واحداً بطريق العش والاختلاس  
ثم إنه رفع كأس النبيذ وهو في حدته فصك به قدحاً آخر ممتلئاً  
لاستدعاء الخادم، فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة، فحضر  
الخادم فمزّ عليه ما رأى

(الخادم) - ما هذه الليلة السوداء

(العمدة) - هذا ما أقوله أنا أيضاً ، فقل لي ما هذا الغلط في  
الحساب وهل تريدون ان لا يدخل محاسبكم بعد اليوم أحد  
(الخليع) - هل في الحساب غلط يا « جورج »

(الخادم) - وأى غلط يكون في الحساب بعد الذي حصل ، وهذا  
هو بيان الثمن أمام كل صنف

(العمدة) - أى حساب وأى بيان ! ولكنك أنت الكاتب له

(الخادم) - نعم أنا الكاتب له ولكنك أنت الآكل له

(العمدة) - وهل أكلنا أربعين صنفاً حتى ندفع أربعين فرنكاً

(الخادم) للخليع - أرجوك أن تقنعه

(العمدة) - وهل أنا جاهل حتى يقنعني

(الخليع) وهو قائم - حاشا لله ياسيدى

(التاجر) للخليع - الى أين

(الخليع) - أراهم وضعوا في لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً جديداً

أريد أن أقرأه

( الخادم ) للعمدة - أعطنى الحساب ولا تعطنى عن الشغل

( العمدة ) - هاك عشرين فرنكاً لا أدفع سواها

( الخادم ) - ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بمدأكله

( التاجر ) - زدهُ فرنكين

( الخادم ) - لقد كان الاولى بكم ان تأكلوا فى غير هذا المكان ما

دتم بهذه الصفة

( التاجر ) - لا تغلظ يا « خواجا » فان حضرته يأكل فى مثل

هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يجب الأمانة ويكره الاستغفال

( الخادم ) - وهل أنا خائن . وأنا صاحب شرف مثلك ومثل

أعظم منك

( التاجر ) للعمدة - حقيقة إنه لقليلُ الحياء

( العمدة ) - وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذ المبلغ

( صاحب المحل ) - وقد حضر مع الخليع - ماذا جرى

( العمدة ) - خادمك يسرقنا ويشتمنا

( صاحب المحل ) - هذا كلام لا يقال عن محلنا

( التاجر ) - وذاك كلام لا يقال لنا

( صاحب المحل ) للخليع - عهدى بك لاتصاحب الا الكبراء

والظرفاء فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة وقد شاهدتهُ من مكافى

يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين . فانه كان يبيع الزبدة ، ويطوى

الخبز ، ويمد يدهُ الى صحنِ سواه ، ويميد اليه فصلة ماياً كله ، ويتناول

قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهمها ، ويلوث المائدة بالمرق والنبيد ،  
ويعمسح يدهُ في الغطاء ، ويكسر الكأس ، ويختلس الفاكهة فيضعها  
في جيبه ، ويهمّ بشرب ماء الغسل ، وينكش أذنه بريشة الخلال . ولم  
يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويفامزهن ففمن مستقبحات  
مستنكراتٍ وقام كثير من المترددين على المحل اشتمزازاً من هذه  
الأفاعيل . ولا أشك في أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يتعمد  
الناس ويتعطل المحل

( الخليع ) - لا تُلَقَّبُهُ بلقب شيخ فإن سعادته من الخائزين للرتبة  
الثانية ، وله سميٌّ في رتبة التمايز ، ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء  
في الأرياف

( صاحب المحل ) للعمدة - لا تؤاخذ الخادم بإسمادة البك فهو على  
كل حال خادمك والمحل محلك

( العمدة ) للخادم - يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن  
المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل . ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه  
لما زدتُ عن العشرين فرنكاً ولكني أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لخاطره  
عن طيب خاطر وحسن رضاه

( صاحب المحل ) للخادم - اسأل حضراتهم ماذا يشربون على  
حساب المحل لتأكيد المعرفة والمسامحة فيما حصل  
قال عيسى بن هشام - ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن

يطلب دَورين من الشرب لإكرام صاحب المحل في مقابلة اكرامه لهم .  
فطلب العمدة ثم طلب . وشرب ثم شرب . وقام بعد الدفع يتمايل  
ويتنقى . ويتشاءب ويتمطى . ويشكو للخليع فِعْلَ الكاس . وهجوم  
النعاس . فيقول له هذه مادة تكون عند الامتلاء . ولا يصرفها الا  
كؤوس الصهباء . فهيا بنا الآن . نذهب الى الحان . نخرجوا وخرجنا  
من ورائهم . نستقى بقية أنبائهم

---

## العمرة في الحاه

قال عيسى بن هشام — وأخذوا طريقهم الى الحان المقصود .  
والحوض المورود . وفيما نحن نسير . بين تقدير وتفكير . اذ التفت الباشا  
الى ذلك الفتدق الكبير . بل الخورنق والسدير <sup>(١)</sup> . فرأى فيه شمس  
الكهرباء مشرقة . وينايع الضياء متدفقة . يلوح فيها زنجى الليل بقميص  
أبيض . ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضض . وعمد المصابيح كأنها  
أغصان الأشجار . أزهرت بالأنوار . مكان الأنوار . فصار كل عمود  
منها عمود فجر . يُفجرُ نُفْرَةَ الدُّجَّةِ أَيْ فِجْرٌ . وكأن منثور الشموع في  
ظلمة الحلك . منثور النجوم في قبة الفلك . ورأى تحتها صفوفاً من الرجال .  
بين صفوف من ذوات الحجال . على سُررٍ متقابلين . وأرائك متكئين .  
يُسمعهم الجُدَّ المقيم . ويُرفرف عليهم الرِّفَّةُ والنعيم . فطلق يسأني : أترأه  
مخفلاً ليوم أنس . أم زفافاً في بيت عرس . أم تراها ليلة مهرجان . لقبيل  
من الجان . نسوا تفاوت الجنس . فأنسوا الى الإنس . وهجروا جوف  
الأرض لظهرها . ودرجوا من بطنها الى حجرها . — فقلت له نعم  
هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر . ويقطعون الحزن والوعر .  
ويطيرون في السماء . ويمشون على الماء . ويخرقون الجبال . وينسفون  
القلال . ويقلبون الآكام وهادا . ويبسطون الرُّبِّيَّ مهادا . ويجمعون  
القفار بحارا . ويحيلون البحار بخارا . ويُسمعون من المشرقين . أصوات

(١) الخورنق والسدير، قصران معروفان

مَنْ بِالْمَغْرِبِينَ . وَيَسْتَنْزِلُونَ لِبَصْرِكَ أَنْأَى الْكَوَاكِبِ . وَيَمْظَمُونَ فِي عَيْنِكَ أَوْهَى الْعَنَاكِبِ . وَيَجْمَدُونَ الْهَوَاءَ . وَيَذِيبُونَ الْحِصْبَاءَ . وَيَسْتَحْدِثُونَ الْأَنْوَاءَ . وَيَزْرِنُونَ الضِّيَاءَ . وَيَسْتَشْفُونَ خَبَايَا الْأَحْشَاءِ . وَيَكْشِفُونَ خَفَايَا الْأَعْضَاءِ . - قَالَ لِي أَتُنَكِّتُ لَتُحَدِّثَ عَن جَن سَلِيمَانَ . فِي هَذَا الزَّمَانِ . - قُلْتُ لَهُ هُوَ لِأَسِيَّاحِ الْغُرَبِيِّينَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَالْحَضَارَةِ . النَّازِلُونَ إِلَى الشَّرْقِيِّينَ بِعَيْنِ الْمَهَانَةِ وَالْحَقَارَةِ . فَانْظُرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْعِزَّةِ فَنظَرَةُ الْعُقَابِ مِنْ شِمَارِيخِ رَضْوَى وَثَبِيرِ <sup>(١)</sup> . إِلَى جَنَادِبِ الرَّمْلِ وَضَفَادِعِ الْغَدِيرِ <sup>(٢)</sup> . وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ . فَنظَرَةُ مَعْلَمِ الْإِسْكَانْدَرِ عَالِمِ الْعُلَمَاءِ . إِلَى صَبِيَّيْتِهِجِيَّ فِي الْعَيْنِ وَالْيَاءِ : - وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَابِ الصَّنَاعَةِ : فَنظَرَةُ « فَيْدِيَّاسِ » صَانِعِ التَّمَائِيلِ وَالذُّمَى <sup>(٣)</sup> . إِلَى بِنَاءِ يَقِيمِ أَكْوَاخِ الْقُرَى . - وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْغِنَى : فَنظَرَةُ صَاحِبِ الْمَفَاتِيحِ الَّتِي تَمُوتُ بِالْمُضْبَةِ . إِلَى أَجِيرِ يَنْضَحُ عَرَقًا تَحْتَ الْقَرْبَةِ . - وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْفَضَائِلِ الْفَسَانِيَةِ : فَنظَرَةُ الْحَكِيمِ « سُقْرَاطِ » . شَارِبِ السَّمِّ غَرَامًا بِالْفَضِيلَةِ . إِلَى الشَّرِيرِ « أَرْسَطْرَاطِ » . حَارِقِ الْمَعْبُدِ وَلَمَّا بِالرَّذِيلَةِ : تِلْكَ دَعْوَاهُمْ فِي تَقْوَسِهِمْ . وَقَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ

وهم في رحلتهم الى الشرق على ضريين أهل الفراغ والجدة الذين أبطرم الغنى وألهام الاستمتاع بيدع المدينة ولم يبق في أعينهم جديد،

(١) الشماريخ ، جمع شمرخ وهو رأس الجبل ، ورضوى وثبير ، جبلان معروفان  
(٢) الجنادب ، جمع جندب وهو الصئير من الجراد (٣) الذمى ، جمع ذمية وهي الصورة المنقشة من الرخام أو العاج

فانتقمت منهم الطبيعة في خروجهم عن سننِها فسَلَطتْ عليهم داء الملل  
والسَّام فأصبحوا هائمين على وجوههم في الأقطار والبلدان وحطَّتْهم القدرة  
الى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطة عنهم في درجات  
المدنية والاقامة في الاقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية . والضرب  
الثاني منهم : أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستفناض (١)  
يستعملون علومهم ويعملون أفكارهم في احتلال البلدان وامتلاك  
البقاع ومنازعة الناس في موارد أرزاقهم، ومزاحمة الخلق في أرضهم وديارهم .  
فهم طلائع الخراب أدَّهَى على الناس في السلم من طلائع الجيوش في الحرب  
قال عيسى بن هشام - واتقطع الحديث بدخول أصحابنا في الحان .  
واصطفاهم حول الدنان . فأخذنا مجلسنا بقربهم . ننظر ما يُصنع بهم .  
وإذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال . ويبادر الخادم بالسؤال :

( الخليع ) للخادم - ألم يشرف دولة « البرنس » هنا في هذه الليلة

( الخادم ) - هو في داخل المكان وسيعود الى مجلسه في الحال

( العمدة ) مدهوشا - هل يجيء هنا البرنسات ، وهل يليق بنا

أن نجلس للشرب في مكان يحضروننا فيه . فلم اخترت هذا المحل ولم

لا نذهب الى محل سواه

( الخليع ) - لا بأس علينا هنا وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج

من هنا الا والبرنس مصالحك ومُجالسك

(١) استفناض المكان ، ننظر جميع ما فيه حتى يعرفه وأهل الاستفناض الذين يبعثون في الارض

(العمدة) - لا تهزأ بي ولا تمزح فأين نحن من البرنسات  
(التاجر) للعمدة - لا تستبعد ذلك ، فإن لبعض البرنسات أخلاقاً  
واسعة ونفوساً ثراويةً ، ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوي بهم في  
مجتمعاتهم ومعاملاتهم

(العمدة) للخليع - وهل لك معرفة سابقة به  
(الخليع) - كيف لا أعرفه ولي معه جلسة في كل ليلة وكثيراً  
ما أوصلته آخر الليل الى قصره  
(العمدة) - انك لتبالغ  
الخليع<sup>١</sup> - لا مبالغة ودونك البرهان

قال عيسى بن هشام - ويقوم الخليع وافئاً عند عودة البرنس الى  
مجلسه فيوميء البرنس اليه بالسلام فيتبعه الى مائدة عليها صنوفٌ وألوانٌ  
من الخمر والنقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه بصوت يسمعه  
العمدة من مكانه :

(الخليع) - لا زال أفندينا في أسعد حال وأنعم بال  
(البرنس) - وأين أنت فقد سألت عنك مراراً  
(الخليع) - أنا في الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه ، وما  
منعني عن المبادرة الى مجلسكم العالي الا اصطحابي بصاحبين أحدهما من  
عمد الأرياف ، والآخر من تجار الثغور ، لصقابي للبقاء معهما وألحاً على  
أن أصحبهما

(أحد الجلساء) مماًزحاً - لا بل تسحبهما

(البرنس) منكتاً - وهل هنا «زريبة» يابك

(جميع الجلساء) ضاحكين - لله درّ أفندينا في هذه النكتة فما  
الطفها وأرقها

(البرنس) - أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفني منه بعض  
كلمات في بعض الأوقات

(أحد الجلساء) لآخر - انظر بالله يا أخي حدة البرنس في لطافته ،  
وشدته في رفته ، وقوة إدماجه ، في الفاظه

(الجلس) - وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة في تعبيرك وما  
أبلغك في كلامك ، أنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد  
(البرنس) للخليع - ماذا تشرب

(الخليع) - العفو يا مولاي فلا بد من الرجوع الى صاحبي أولاً  
حتى أتخلص منهما

(البرنس) - وهل هما من الأغنياء المتعبرين

(الخليع) - أما العمدة فانه يمتلك ألف فدان ، وللتاجر في بلده  
أعظم خان ، وللعمة عشرة وابورات لارى ، وعنده الرتبة الثانية ، وللتاجر  
وابور للخليع وعنده وعدُّ بالثالثة

(البرنس) - لا تخرمنا من وجودك ولا بأس من استدعائهما  
للجلوس معنا

(أحد الجلساء) لآخر - قم بنا نُفَسِّحْ لهما

(الجلّيس) - انتظر قليلاً حتى يأتي «الدّور» المطلوب مع صحن

بلح البحر الذي أوصى عليه البرنس آنفاً

قال عيسى بن هشام - وينصرف الخليج الى صاحبيه لإحضارهما

فينهض له العمدة واقفاً لتبجيله وتمظيمه فيسقط من يده «فم السجارة»

على الرخام فينكسر فينحني إلى الأرض يجمع شظاياها، ويظهر عليه من

الأسف والكدر ما لا يقدر، فيجرّهُ الخليج إليه ويقول له :

(الخليج) - لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف

لاجل هذا «الفم» فان البرنس ينظر إلينا وقد جئت لك بدعوة منه

للجلوس معه

(العمدة) - ليس أسفى على «الفم» فى ذاته بل لأنّه تذكار عندى

من حضرة مأمور المركز كنت أهديتهُ فرساً فأهدانى إياه فهو ثمين

عندى من هذه الجهة . ولكن قل لى كيف يدعونى دولة البرنس اليه

وكيف ذكرتنى له

(التاجر) - أى نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لى ذكر

عنده أيضاً

(الخليج) - قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ، ويقال فى المثل

أرسل حكياً ولا تُوصِه

(العمدة) - أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى فانى

رأيتهُ يضحك كثيراً وأنت تكلمه

( الخليع ) - أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمته أجره

( التاجر ) - وعلى ذكر السمسار هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه في هذا العام

قال عيسى بن هشام - فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس ، فطأطأ العمدة الى ركبة دولته فدفعه بيده فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً ، فتبسم له البرنس وأشار اليه بالجلوس فامتنع واستمر واقفاً ويده الى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح

( البرنس ) لأحد جلسائه - لاتنس أن تذكرني غدا بتصوير الفرس « سيرين » فان « الدوك أف بروك » أرسل الى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها في معرض السباق بلوندره

( الجليس ) - الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في اليوم الذي عينته أفندينا له للغداء مع مفتش الرى

( البرنس ) للعمدة - ماذا تشرب يا حضرة الشيخ . . . يا بك

( العمدة ) واقفاً على قدم التاجر - ألتمس السماح يا مولاي فاني لا أشرب شيئاً

( التاجر ) متمللاً من الألم - العفو يا أفندينا أستغفر الله فان ذلك

لا يليق في حضوركم

(البرنس) - لماذا جئتما هنا إن لم تشربا

(الخليع) - يشربان حسب أمر دولتكم فالامثال فوق الأدب

قال عيسى بن هشام - ويتناول الخليع «علبة السجارات» من أمام

البرنس فيعطى للعمدة واحدة وللتاجر واحدة فينحاشى العمدة إشعالها

في حضرة البرنس ظاهراً - وربما كان غرضه الباطن إبقاءها لديه أثراً من

البرنس يفتخر به عند أقرانه - ثم يأتي أحد باعة الزهور فيمس في أذن

البرنس بكلام يقهقه له ويأمر الخادم أن يعطيه كأساً فيشربه وينصرف.

ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من

«الشمبانيا» فيسمح له وياتفت الى العمدة يخاطبه بقوله :

(البرنس) للعمدة - كيف حال المحصول عندهم ، وكم رمى الفدان

من القطن

(العمدة) - رمى الفدان عندي سبعةً بأنقاس دولتكم

(التاجر) - المحصول جيد ولكن الأمان في هبوط .وهل باع دولة

أفدينا أقطانه أم هي باقية

(البرنس) لأحد جلسائه - أنا لا أدفع في ثمن الخنجر الذي رأيناه

اليوم أكثر من عشرين جنيهاً . ولو كان عليه تاريخ صنعهِ لدفعتُ

ما يطلبهُ صاحبك فيه

(الجليس) - لا بأس به الى الثلاثين

(البرنس) - ما الذي تراه في مسابقة الخليل غدًا

(الجليس) - أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك

قال عيسى بن هشام - ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة الى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدهً منه وقدمها الى البرنس ووزع البقية على الحاضرين فيجد أحدهم صوفاً متلبداً في الموز فيعافه ويتركه على المائدة

(أحد الجلساء) للعمدة - هل هذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه في الصوف عندكم

(العمدة) - كلاً يا سيدي بل هو موز «النيوبار» ولم يمكث في جيبى غير مسافة الطريق ، ومعى أيضاً برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضرا

(أحد الجلساء) - أظن ان لكم شركة مع حسن بك عيّد في تجارة الفاكهة

(التاجر) - حضرته لا يشتغل بالتجارة ، وليس كل الناس من يُقدّم عليها فهي ربح محفوف بالخطر

(العمدة) للخادم - أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى

(أحد الجلساء) لآخر - يظهر أن الفدان رمى بعشرة

(الجليس) - في البنك العقارى

(البرنس) - وما معنى انكليزى

(الجليس) - يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام - وفي هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيلقى في  
أذن البرنس كلاماً فيقوم البرنس في الحال ويخرج والبائع في أثره ثم  
يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً فلا يبقى منهم أحد . وتخلو المائدة  
للمعدة فيشرب سوؤر الكأس التي تركها البرنس ويعيل على ما بقي في آنية  
النقل فيأتي عليه أكلًا

(التاجر) للمعدة - ينبغي أن تطلب من الخادم غيرها قبل

حضور دولة البرنس

(المعدة) - أنا لا أطلب شيئاً الا في حضور دولته

(الخليع) - أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة . وهذه عادته اذا

هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته

(المعدة) - ولكنني لم أره دَفَع شيئاً من الحساب

(التاجر) - ثعل له هنا حساباً جارياً

(الخليع) - نسأل الخادم

(المعدة) للخادم - ألم يدفع دولة البرنس شيئاً

(الخادم) - لم يدفع شيئاً قبل خروجه

(الخليع) - وكم الحساب

(الخادم) - مائة وواحد وعشرون فرنكاً

(المعدة) - أنا لا أصدق ان أفديننا يخرج من غير أن يدفع ما عليه

من الحساب . ومع ذلك فلنتنظر عودته

(الخدام) - اذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود وإن أردت  
أن لا تدفع ثمن ماشربه البرنس فانا أقيده في حسابه  
(العمدة) - وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع الا ثمن ماشربه  
دولة البرنس وحده

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديرية فيهنض العمدة  
لمقابلته ويلجأ عليه في الجلوس معه ، ثم يلتفت إلى الخدام بصوت عال :  
(العمدة) - على بتفصيل الحساب ويبيّن لي فيه ماشربه دولة البرنس ،  
وما أكله دولة البرنس ، وبكم شرب أصحاب البرنس ، وكم شربنا مع  
البرنس . وكم شرب قبلنا البرنس . واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب  
وعُدْ لا دفع لك كل الثمن المطلوب

(الوكيل) - أنا لا أشرب شيئاً

(العمدة) - كيف لا تفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة  
البرنس إرضاءً لخاطرنا

(الوكيل) - لا بأس أن أشرب كأساً واحداً من « الكنيك »

(العمدة) - لا والله لا تشرب الا « شمبانيا » كما شرب معنا

دولة البرنس

(الخليج) للعمدة - لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك

(العمدة) - سعادته وكيل مديرينا ، وحضرته ( مشيراً الى

التاجر ) من أكابر التجار ، وحضرته ( مشيراً الى الخليج ) من ظرفاء مصر

( الخليع ) للوكيل - تشرّفنا بهذه المعرفة ، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابي وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور ( العمدة ) للوكيل - أظن أن سعادتكم حضرتتم الى مصر في عقب كشف الرتب المقدم الى الداخلية

( الوكيل ) - نعم كنت اليوم في الداخلية وسينتهى الأمر إن شاء الله على ما نحب

( العمدة ) للخادم - زجاجة شمبانيا أخرى

( الوكيل ) - يكتفي فاني أريد أن أنتقل الى داخل المكان في مجلس اخواننا القضاة ووكلاء النيابة

( الخليع ) - لا لزوم لانتقال سعادتكم فأنا أدعوم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائي ( الوكيل ) - لا تكلف خاطرک بذلك فان الأليق أن أذهب للجلوس معهم

( العمدة ) للوكيل - اذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك ( الوكيل ) - ان أردت ذلك فلا بأس

قال عيسى بن هشام - فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون فيشدّد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلثم سكرًا إلا شربوا معه

ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليع ليشرب معهم فما يكاد يضع  
الكأس في فيه حتى تأخذه غصةٌ فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتلوث  
ثيابه ويبادر الخليع مع الخادم الى سحبه داخل المكان ليصاح ما فسد  
من أمره .

ثم لبثنا مدة . ننتظر العمدة . و نترقب له الرجعة والعودة . حتى  
أقبل يتهادى في مشيته . بعد أن أفاق من غشيته . وعمد الى الخروج  
والخليعُ عن يمينه يناجيه . والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه

---

## العمدة في المرقص

قال عيسى بن هشام — ولما خرجوا من ذلك المحفل . ونحن أتبع لهم من الظل . سمعنا العمدة يشكو للخليع في طريقه . ما يجده من انقباض الصدر وضيقه . ويسأل التفريج لِكربه . والترويح عن قلبه . ويذكره بما كان من الوعود . ويطلبه بزيارة ذلك المجلس المعدود . ويقول له تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا . فهلم بنا الآن الى ما وعدتنا . لتربأ عنا الهم بريئات الحدور . ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور . ونجلو أعيننا بنجل العيون . وننعش أنفسنا بناعسات الجفون . ونستصبح ليلتنا بالوجوه الصبّاح . قبل أن يصبحنا جيشُ الصبّاح . فيقطع عليه الخليع كلامه . ويدفع عن نفسه ملامه . بأن طول الانتظار . يذهب بحسن الاضطبار . ولا صبر لذوات الدلال . على خلف الوعود من الرجال . وقد جاءني رسولها في غفوتك برسالة . تشكو فيها ما لحقها من السامة والملاة . وتُحجى على بالعتاب المر . وأن ما فعلته معها ليس بفعل الحر . إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقته من السجوف والكال ؛ <sup>(١)</sup> وتحملت في جيئها ما تحمלתه من الخوف والوجل . حذر الوشاة والرُقباء . وخشية الأهل والقرباء . ثم إنها أقامت طويلا في انتظار اللقاء . وهي على مثل حر الرضاء . فاذا الوعد بلاوفاء . واذا الدين بلاقضاء . وكأنما كانت تنتظر غائبا لا يؤوب . وتستعطر سحابا لا يسبح ولا يصوب . فذهبت بحسرتها . ومضت

(١) السجوف ، جمع سجنف وهو الستر . والكلال ، جمع كلة وهي ستر رقيق

لَطِيئَتِهَا<sup>(١)</sup> . وفاتنا ما كنا نبتغيه . وأيأسنا ما كنا نرتجيه . وتلك فرصة  
أضعناها . لنزغة شيطانِ أطمعناها . فيقول التاجر : إذا ما الذي اكتسبناه .  
بعد الذي احتسبناه . وماذا أفدناه . بعد الذي فقدناه . وأين منا ما نجمع  
به شملنا . ونبدد به ليلتنا . فيقول له الخليع : لم يبقَ أماننا في هذه الساعة .  
سوى ملاعب الرقص والخلاعة . عسانا نجد فيها بديلا . مما لم نجد اليه  
سبيلا . فيخرج العمدة دراهمه فيعدها . ثم يخشخش بها ويردها .  
فيقول له التاجر : لا تهتم . فديرهم الأُنس ميسر . ويقول للخليع :  
تقدم . فما من شيء عليك ميسر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء .  
الى حانِ للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم . وجلسوا وجلسنا  
في صفهم . فرأينا المكان حومةً وغى احتدمَ وطيسه . وميدانَ حرب  
اصطدم خميسه<sup>(٢)</sup> . عجآجتهُ الدخان . ومتارسهُ الدنان . وسلاحهُ  
الأباريقُ والأقداح . ودرعهُ الغلالة والوشاح . ونبالهُ أصمةُ القوارير .<sup>(٣)</sup>  
وطبولهُ توقيع العيذان والمزامير . ومغافرهُ العصائب والأكايل<sup>(٤)</sup> .  
وأعلامهُ المآزر والناديل . وثمرادهُ وشجعانهُ . قوادهُ وغلمانه . وكان  
منصة الرقص هي حصنهُ الحدين . وصاحبُ الحان هو قائد الكمين .  
وكان المغنين هم الكماةُ والأقران . والراقصات الحماةُ والفرسان :

أُولَاتُ الظلمِ<sup>(٥)</sup> جننَ بشرٍ ظلمَ  
وقد واجهننا متظلماتِ

(١) مضى لطيته ، أي لنيته التي اتواها (٢) الخيس ، الجيش

(٣) صمامة الفارورة ، سداها (٤) المففر ، زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس

(٥) الظلم ، ماء الاسنان وبريقها

فوارسُ فتنَةٍ أعلامُ نَعْيَةٍ

لَقِينِكَ بِالْأَسَاوِرِ مُعَلِّمَاتِ

وترى كلَّ ذاتِ ندىٍ حاسرِ بارزٍ . تنادى هل من مُنازلٍ أو  
مبارزٍ . ثم تبختر وتجول . وتخطر وتصول . فترى كلَّ طامعٍ في  
وصالٍ لها . يساهم اللحاظ ونصا لها . ثم ترشق بها الدنان تارة فتسيل بدم  
العقار . وتشقّ بها الجيوبَ أخرى فتسيل بدم النضار :  
وقد أُغمِذَنَ في أزرٍ ولكنْ

سيوفُ لحاظهنَّ مُجَرِّدَاتُ

قدَحَنَ زنادَ شوقٍ من زُنُودِ

بنارِ حُلِيِّها مُتَوَقِّدَاتُ

وترى في وسط تلك المعركة . من كل هَلُوكٍ مُهْلِكَةٍ . (١) تنساب  
في حلة رقصها وتسعى . كأنها حية في قميصها أو أفعى . لُعاب الأفاعي  
القاتلات لُعابها . وأنيابُ الأسود الضاريات أنيابها . تنفث السم رائحةً  
وتنتهش غادية . وإن رأيتها شادنةً وسَمِعَها شادية . فترى القوم فيها  
صَرَعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية

قال عيسى بن هشام - ولما طال جلوسنا ، وضافت أنفاسنا ، وكاد  
يُغَمِّي علينا من كربه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من  
اكنافه : رائحة عَكر الجُمُود ، ورائحة عَرَق الأبدان ، ورائحة زيت  
المصاييح ، ورائحة الدخان والحشيش ، ورائحة أنفاس الخُمُورين ،

ورائحة تلك المراحيض التي لم يدخلها ماء ، ورائحة الأرض التي تسقى بالأقذار ولم تسطع فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء . فاذا امتزجت هذه الروائح بعضها ببعض انعقدت منها في جو المكان سحابة سوداء تمطر الأدواء وتساقط الآباء فتستنشقها الأنوف وتمتصها الرئات وتضوي بها الأجسام وتتضاءل منها ذبالاتُ المصايح تضاًؤها في أجواف المناجم وبتون الكهوف ، وكاد الباشا يختنق وهممٌ به الغثيان فهممٌ بالقيام فأمسكت به وقلت له :

( عيسى بن هشام ) - أيبصر مثلي على هذا المقام ولم أشهد في عمري معركة ولم أحضر معمرة ثم يجزع منه مثلك وقد مارست الحروب وشاهدت الوقائع تحت سحُب العجاج وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى لا تبالي برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجاً بصدأ الحديد

(الباشا) - لقد كان ذلك ولكن في الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس وتجرى الرياح ، ولم أستنشق تلك الروائح منحصرةً كأنحصارها في هذا المكان . ومع ذلك أتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شيء مما نحن بصدده من بداية الأمر الى نهايته

ويتنأ نحن كذلك اذا بصديق لي دنا مني فسلم علي وأظهر لي تعجبه من دخولي هذا المحل ، فأظهرت له تعجبي من دخوله أيضاً فأجابني بقوله :

( الصديق ) - ان السبب في دخولي هنا هو البحث عن رجل

احتال علىّ في بعض الشؤون ثم غاب عن نظري وأنا أعلم أنه يأوى الى مثل هذا المكان فدخلتهُ على كره مني بعد أن حرّمتُ على نفسي التردد عليه منذ زمان بعيد . وحُكِمُ الضرورة مطاع ، ولكن قُلْ أنت ما الذي جاء بك الى هذا الوكر وكرِ الأفاعي ، وأدخلك في هذا العُشِّ عَشْرِ الشيطان

(عيسى بن هشام) — أَدْخَلْنَا فِيهِ حُبَّ الاسْتِطْلَاعِ وَالاسْتِكْتِشَافِ عَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ ، وَلَكِنِّي فِيهِ غَرِيبٌ لَا أَقْفَهُ كَثِيرًا مِمَّا أَرَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ لِتَبَيِّنِ لَنَا مَا نَغْمِضُ وَتُبْدِي لَنَا مَا يَخْفَى

(الصديق) — لك ذلك مني وفوق ما تريد

قال عيسى بن هشام — وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر في هذا الباب ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجلٍ يتمايل سكرًا فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه ، فأعناقهم نحوها مشهّبةً وأبصارهم اليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب . واستمر السكران في سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى ، حتى وصل الى منصة الرقص والغناء فضرب عليها مراراً بعصا في يده وتنادى على مَنْ فيها بأعلى صوته يطلب المدول عن الغناء الى الرقص ،

فلم يسمعوا لندائه فالتفت الى زمرة من الجالسين وطلب منهم مساعدته على غرضه فنادوا معه : الرقص الرقص . ونادى الراغبون في السماع : الغناء الغناء . فانبرى لهم السكران يهزاً بذوقهم ويسفهم في سوء اختيارهم فأجابه سفيه منهم على سفاهته ، فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الحان من مكانه الى السكران فأخذ بتلايبه . ويقوم طالب الغناء حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباً وشفعاً فيتملق السكران بخناقه وينادى : البوليس البوليس . فيجتمع غلمان الحان يجرّونه الى الخارج وهو ممسك بعنق الضارب له لا يخليه ، حتى اذا صاروا الى الباب أدركهم جندي البوليس وقبض على المتضاربتين فيتعرض له صاحب الحان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له : ليس لك الا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امتلاً سكرًا من الخارج يعربد في محلنا وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للإضرار بنا وإحداث الفشل في محلنا . فيأبى الجندي الا أن يسوق المتضاربتين معاً فيغمزه صاحب الحان ليلين له فيتدره أحد غلمانه قائلاً له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندي من المصانعة وغرضنا يقضى بدونه فان حضرة معاون القسم جالسٌ عندنا داخل « البار » مع صاحبه

(صاحب الحان) للجنديّ — لم يبق لك من وجه لسحبهما الى

القسم . وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة معاون في « البار »

(الجنديّ) — هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك .

وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن في « البار » والنوبة عليه الليلة في القسم

(صاحب الحان) — ما عليك الا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك ، فيجيب الجنديُّ صاحبَ الحان الى ذلك ، فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب صاحبه خالماً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها

(صاحب الحان) للمعاون — لقد تعطل المحل يا حضرة الأفتدى في هذه الليلة وتعطيله لا يرضيك ، فان هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلي شيئاً فمر بد بين الجالسين وأخلَّ بنظام الاجتماع ثم تعدى على هذا البك بالشم والضرب وهو من أجل المترددين على المحل ، والغريب أن جنديّ البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمَّ على سحبه مع ذلك المتعدى الى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يليق بكرامته ان يساق مع هذا السكران الى المحاكمة

(المعاون) للجندي — بعد أن يلبس طربوشه — ما هذا الذي

أسمعه

(الجندي) رافعاً يده بسلام التعظيم — لم أعلم بوجود حضرتكم

هنا ، والامر اليكم

(المعاون) للجندي — اذا كان الرجل السكران في حالة سكر يتن

نخذه ووحده الى القسم ، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة

حضرة الخواجه فلا لزوم لذهابه معك ، ويكفي ان حضرته يعطينا  
وعداً بالحضور غداً الى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران

( وعند ذلك يدفع صاحبُ الحان بالسكران الى الخارج مع الجندي )

( الجندي ) - اذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به

عليك يا حضرة الخواجه فليس يكون حضرة المعاون عندك في كل ليلة .  
والايام بيننا

( صاحب الحان ) - أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن

عندك شك في دوام الرعاية بك

قال عيسى بن هشام - وخرج السكران أمام الجندي مدفوعاً في

ظهره يقع ويقوم ويستعدي ويستنجد . وعُدنا الى داخل الحان ننظر ما

يجرى فيه ، فاذا صاحب الحان ومعه البك خصيم السكران قد جلسا مع

حضرة المعاون والكؤوسُ تغدو عليهم وتروح . جلسنا ناحية نستمع لهم

ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى :

( صاحب الحان ) للمعاون - لماذا أوعزت الى صاحبك بالقيام عند

جلوسنا معك

( المعاون ) - أنا لم أوعز اليها بشيء ولكنها هي التي قامت مُغضبة

( صاحب الحان ) - ولأني سبب أغضبتها

( المعاون ) - لم آت سبباً يغضبها بل هي التي انتحلت سبباً

كدرتني به وكدرت نفسها أيضاً

(صاحب الحان) — لاشك ان ما حصل هو من باب الدلال دون  
سواه ، وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما  
(المعاون) — لادخل للدلال هنا ، ولكن جرى في أمر حضرة البك  
والسكران ما هو على خلاف هو اها فانها كانت ترغب في التضييق على  
الاول والتفريج عن الثاني لان حضرة البك هو من أكبر أصحاب  
المغنية والمغنية من ألد أعدائها

(صاحب الحان) — لقد حرتُ في أمر هذه الفتاة فان ضروب  
حماقتها لاحد لها وفي كل ليلة تأتيني بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه  
ما لا يعوض من خسارتي ، ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عندك لَمَا  
أبقيتها في المحل يوماً واحداً ولا كابدت إعطاءها في كل شهر مقداراً ما  
يأخذه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة . ولو شاهدت منها ما  
أشاهده كل ليلة من تسافها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على  
سلطتك واتكالا على مساعدتك لعامت مقدار حماقتها وجنونها

(المعاون) — نعم ان حماقتها عظيمة وطالما شددت عليها لتجتنب  
المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال ان علاقتها بي هي التي تجرّتها على  
ارتكاب ذلك . ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح

(صاحب الحان) — صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً  
(وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهائها من الغناء فتتقدم نحو هذا  
المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر الخصامة مع  
السكران فيقول لها) :

(البك) - أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفني وفي غاية التكدر لما وقع له من فلانة بسببي فانها اهتمت غضباً لما علمت بمساعدته لي وهي تبغضني لعلاقتي بك ، فبجائتي عليك الا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما وازالة ما في النفوس فتعود راضية على حضرة المعاون ويتم الصفولنا جميعاً

(صاحب الحان) - أنا أوافق على هذا الرأي

(المعاون) - وأنا لا أرفضه

(البك) - وأنا أرسل في طلبها

قال عيسى بن هشام - وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه فتشتعل جذوة نار من الغضب وتنقلب لبؤة هاجت لفقد أشبالها ، فنشتم وتسب وتقذف وتلعن وتقل وتبصق وتنقض على المغنية فتأخذ برقعها فتزيلها من مكانها، وتلتفت الى المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ، ثم الى صاحب الحان فتتهدهه بأنها لا ترقص في ليلتها . فلا يسع صاحب الحان الا أن يتلافى الفضيحة فيجرها الى خارج البار بالقوة ليتمكن المعاون أن يتسلل هاربا . ثم أخذ ينصحها ويحذرها ويقول لها ان المعاون قد ذهب الى القسم الآن وقلبه مملوء منك حقداً وغيظاً فاذا أنت لم ترجعي عن حماقتك وتصعدي الى المنصة للرقص أوعزت الى المغنية أن تمسك بك وتذهب معك الى القسم ، والحاضرون يشهدون أنك تعسديت عليها بالضرب ، والمعاون هناك ينتظرك للثنى منك

قال عيسى بن هشام - فوق هذا القول منها وقع الماء في النار .  
وإنذار الحجز على أهل الدار . فهدأ جأشها . وسكن طيشها . وصعدت  
للرقص على منصتها . تتأوه من حسرتها وغصتها . وعدنا للجلاس أمام  
الميدان . ننظر ما يكون من الغلبة والخسران

قال عيسى بن هشام - وجاء دور الرقص فضجت الفوغاء . واشتدت  
الضوضاء . وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق . واشتعلت الأكف  
بالتصفيق . ترحيباً وتأهيلاً . وتكبيراً وتهليلاً . إذ قامت على المنصة  
هلوكٌ وزهاه (١) . عمشاء مرهاه (٢) . فطسَاء فَوْهَاء . عجفاء شَوْهَاء (٣)  
مزججة الحاجبين . محمرة الخدين . مبيضة الساعدين . مخضبة اليدين .  
قد ألبست وجهها من الطلاء نقاباً . وأسدت على أطرافها من الدهان  
ثياباً . بأصابع شتى وألوان . بين أبيض ناصع وأسود قاحم وأحمر قان .  
تلون تلون الحرباء . في هجير البيداء وقد وارت ما تعرض من جسمها .  
وتعرتى من لحمها . بأنواع العقود والقلائد . والأساور والمعاضد .  
والدمالج والجلال . والمناطق والملاخل . فأخذت في الرقص والحجلان .  
على توقيع الضروب والألحان . ويجانبها خادم ماشككنا من قبح  
هيئته . أنه إبليس اللعين في طلعه . رُكبت منه أقبح هامة . على أسوأ  
قامة . بوجه قد قُدَّ من الصخر . وعين كعين الصقر . وأنف كمنسر  
النسر . وفم يرمى بالزبد كالبحر . وشفة مهدولة . وعمامة مجدولة . وفي

(١) الورهاء ، الحقاء (٢) المرهاه ، التي ابيضت بواطن اجفانها

(٣) العجفاء ، المهزولة

يَمِينِهِ قَدَحٌ وَإِبْرِيْقٌ . يَسْقِيهَا مِنْهُ بَكَاسٌ مِنْ حَرِيْقٍ . لَا بَكَاسٌ مِنْ رَحِيْقٍ .  
وَيُعَاطِيهَا مِنْ غَسْلِيْنٍ أَوْ قَطْرَانٍ <sup>(١)</sup> . وَيَجْرَعُهَا مِنْ حَمِيْمٍ أَنْ . وَكَلِمَا أُتْرِعَ  
لَهَا كَأَسَا . هَمْسَتْ فِي أُذُنِهِ هَمْسَا . ثُمَّ تَشِيْرُ بِطَرْفِ الْكَفِّ . إِلَى بَعْضِ  
الْجُلُوْسِ فِي أَوَّلِ صَفِّ . فَيَصِيْحُ اللَّعِيْنُ صَيْحَةَ الْأَسَدِ فِي عَرِيْسَتِهِ <sup>(٢)</sup> .  
وَقَعَ بَصْرُهُ عَلَى فَرِيْسَتِهِ . فَيَجِيْبُهُ غَلَامُ الْحَانَ جَدًّا وَابْتِهَاجًا . وَبَأْتِيَهُ  
بِالزَّجَاجَاتِ أَزْوَاجًا . فَيَفْضُ عَنْهَا الْفِدَامَ . وَيَصْفِفُهَا أَمَامَهَا تَحْتَ الْأَقْدَامِ .  
وَلَا يَزَالُ خَادِمَهَا يَمَلُّ لَهَا وَيَسْكَبُ . وَهِيَ تَشْرَبُ وَتَطْلُبُ . لَا تَكْتَفِي  
وَلَا تَقْتَنَعُ . وَلَا تَرَوِي وَلَا تَنْقَعُ . كَأَنَّمَا يَمْتَحُّ لَهَا مِنْ قَلِيْبٍ <sup>(٣)</sup> . وَيَصْبُ  
فِي وَاِدِ جَدِيْبٍ . أَوْ يَمَلُّ مِنْ مَاءِ مَنْبَثِيْقٍ . وَيُفْرَغُ فِي دَنَّةٍ مَنْخَرِقٍ .  
فَإِذَا دَبَّتْ فِي عُرُوقِهَا نِمَالُ الْحَمْرِ . وَاشْتَعَلَتْ فِي جَوْفِهَا اشْتِمَالُ الْجَمْرِ .  
جَدَّتْ فِي لَبِهَا وَدَوْرَانِهَا . وَاشْتَدَّتْ فِي قَفْزِهَا وَجَوْلَانِهَا . وَتَلَوَّتْ  
كَالْحِيَةِ فِي طَرْفِهَا . وَلَعِبَتْ كَالسُّلْحَفَاءِ بُعْنُقِهَا . وَالخَادِمُ أَمَامَهَا يَنَازِلُهَا  
وَتَنَازِلُهُ . وَيَنَازِلُهَا وَتَنَازِلُهُ . وَيُرَاقِصُهَا وَتُرَاقِصُهُ . وَيَقَارِصُهَا وَتَقَارِصُهُ .  
وَهِيَ تَرْسُلُ عَلَى الْحَاضِرِيْنَ أَقْوَالَ الْبَذِيْئَةِ . وَتَخَاطِبُهُمْ بِالْفَآظِ قَبِيْحَةٍ رَدِيْئَةٍ .  
فَتَفْتَرُّ لَهَا الثُّغُورَ . وَتَنْشُرُحُ الصُّدُورَ . لَيْسَ فِيْهِمْ إِلَّا كَلٌّ مُسْتَحْسِنٌ  
مُسْتَزِيْدٌ . وَمُسْتَمْلِيْجٌ مُسْتَعِيْدٌ . إِلَى أَنْ تَحُوْرَ قُوَاهَا . وَتَعُوْرَ عَيْنَاهَا .  
وَتَتَقَلَّصُ شَفَاتِهَا . وَيَكْلَحُ شَدَقَاهَا . وَيَنْضَحُ الْعَرَقُ مِنْ أَطْرَافِهَا  
وَتُرَاقِيْهَا . وَيَنْعَقِدُ الزَّبَدُ بِنَحْرِهَا وَفِيْهَا . فَتَضْطَرُّ إِلَى إِزَالَتِهِ . وَتَعْمَدُ

(١) الغلبن ، مايسيل من جلود أهل النار (٢) العربية ، بيت الاسد

(٣) القليب ، البئر

لإزاحته . فتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها . فيتلَوْن بأشكال الصبغة وأنواعها . فيغدو المنديل كأنه قوسٌ قزح . بما تصبَّب من أديمها وارثشح . وينكشف التمويه والتليس . ويفتضح التلفيق والتدليس . فيظهر ما بطن . ويبرز ما كمن . وتنقلب الى صورة سعادة . تترامى في سراب فلاة . أو غول . تكشر وتصول . أو دُب . يهتز ويدب . فحولنا عنها الوجوه استنكافاً واستنكاراً . ولَوَيْنَا الأَعناق استقباحاً واستقذاراً . ومال الباشا على الصديق يسائله في دهشته . ويقول له في نفرته : أعلَى مثل هذه تذوب القلوب . وتنشقُّ المرائر والجيوب . وهل وصلَ المعنى بالناس الى هذا الحد . ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد

(الصديق) - نعم ان هذه التي تهرب منها الوحوش لفظاعتها . ويعوذ منها الشيطان لَدَمَامَتِهَا . هي عند هؤلاء الحاضرين دُمية القصر . وفريضة العصر . كم ذهبتُ بأموال وأودت بأرواح ، وكم أضاعت شرفاً وأزالت مجداً ، وأذلت رقاباً وأفسدت حكماً ، وكم فرقت بين المرء وزوجه ، وولدت العقوق بين الوالد وولده ، وألحبت العداوة بين الأخ وأخيه ، وكم خربت بيوتاً عامرة ، ودنست أنساباً طاهرة ، وكم بذرت للشرا أسباباً ، وفتحت للسجون أبواباً . وهؤلاء الذين تراهم جلوساً في هذا المستنقع الوبيء والمرعى الوييل يقضون فيه ليالى الشهر تباعاً وشهورَ العام رداً لا تتوهمهم من أسافل القوم ولا من أدنياء الناس بل فيهم الكبير والأمير والسرى والوجيه . وانظر عن يمينك الى هذا الجالس

بين إخوانه جلسة الكبرياء، فهو أحد أبناء الأمراء، مات أبوه وترك له أموالاً حجة فالتفت حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ في تبيد تلك الأموال باقتناء الخيول المسومة والمركبات المطهمة، ثم ننى بالإسراف الفاحش في مهرجان زواجه، ثم ثلث بتسليم ما بقي منها لأيدي العواهر والفواجر، وأخصن هذه اللخناء التي لم يبق له منها الا التمتع بالنظر وهي لا تنظر إليه ولا تسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله. وانظر عن شمالك الى هذا الجالس الذي يقتل شاريه ويحلق بعينه ويعمز بحاجبيه فهو من أبناء الكبراء أيضاً ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ولم يَمُص على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالع في مخالب هذه الخداعة الفرارة فهو لا يصبر عنها ولا يقطع المجيء اليها في كل ليلة وهي تسلبه كل ما تصل اليه يده من خفيف وثقيل وما كان لأمه من حلّى وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة في أرض هذا المكان. وانظر أمامك الى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبعجلاً فهو من كبار الحكام في الأرياف وقع في أشراك هذه المرأة فكادت لفضاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك لا يسلوها، ولا يلهو عنها، وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير يتها مأوى، ومرقصها ملهى، فاذا هو عاد الى مقر وظيفته عاد بغير لبه، فيسمى في استغواء العمد والأعيان لإقامة الولائم والحفلات واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها. وانظر الى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزويًا ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته فهو من أعيان البلد لم يمنعه وقار السن

وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه الغاوية فأخذ يبدد عندها في شيخوخته ما كان جمعه في شببته

(الباشا) - لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء لقلنا الهوى في الناس داء قديم والولوع بالحسان أمرٌ بديهيٌ والمذر غير معدوم، ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان، والهروب منها مندوب إليه، فهل تعلم لذلك من سبب خفي

(الصديق) - السبب فيه حبُّ التباهي والتفاخر والأثرة والاختصاص، وقد اشتهرت هذه البغى بإتقان الرقص والتفرد فيه، وأنفسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيتِ الكاذب يتشبثون به عمى النواظر، عمى البصائر، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهيرة في فنّها وإن قبّح منظرها، وساء تجربتها، هو الفخر كل الفخر والسبق كل السابق. وهم يجبولون على الحكاية والتقليد فلذلك نفذ فيهم سهمها وسرى في عروقهم سمها

(الباشا) - ان كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعمهم وحكم يكف الأذى عنهم

(الصديق) - لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقلّ يبتنا من يشتغل للناس في نفع الناس

قال عيسى بن هشام - واتته الراقصة من رقصها فدخلت حجرة

لتغيير لباسها وإصلاح ما فسد من حالها ثم نزلت منها وقد جدّدت  
ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر في مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمتق  
الشهوة ويتطلعون اليها تطّلع البهيمية ، فتزحزح لها المجالس وحلّت  
لها الحُبّي وأعدّ لها كل فريق كرسياً بجانبه وتناثرت عليها الإشارات  
بالتفضل بالجلوس ، فلم تعبأ بشيء من ذلك ولم تلتفت اليه واستمرت في  
تكسرها وتهاديبها حتى وصلت الى مقام صاحب الخان فوقفت معه  
ملاعبةً مُداعبةً وممازحةً مضاحكةً . وجاء خادمها في عقبها فاستوقفه اليه  
ذلك الحاكم من حكام الأرياف ، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ، ثم شاهدنا  
الحاكم يُخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها في يده ، فانصرف الخادم الى  
الراقصة فكلّمها وأشار بيده الى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها الى  
الجلوس معه ، فأبانت عن أمارات الإباء والرفض في أول الأمر ثم انتهت  
بها لجانة الخادم الى الرضاء والقبول ، فقصدت مجلس الحاكم وقصد  
الخادمُ غلام الخان فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل في يده أربع  
زجاجات من الشمبانيا فبزلها كلها <sup>(١)</sup> بمبزله فقارت وفاضت وانتشرت  
كلها حببياً والغلام مُتلاه عنها لا يسرع الإيملاء منها ، حتى اذا لم يبقَ بها الا  
مقدار صباية <sup>(٢)</sup> صبّها الخبيث في الاقداح وقدّمها للفاجرة فبادرت الى  
لمس كل كأس لمسةً بيدها وفيها . ثم يعود الغلام بعد هُنية لأخذ  
الزجاجات الفارغة فتأمره بإحضار سواها . وهكذا يتوالى الحال في  
طلب الأدوار حتى يبلغ الى الدور الخامس في مدة يسيرة ، وجميع

(١) بزل الحمر ، ثقب اناها ، والمبزل المثقب

(٢) الصباية ، البقية في الاناء

الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجماً أو يرقبون هلالاً . ولما انقطع ورود الزجاجات التفتت العاهرة إلى خادمها وهو على بعدٍ منها فرأته يشير إليها بحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى فهتت بالقيام ، فأمسك الحاكم بأذيالها فصفعتُه صفقة مزاج على قفاه ، بعد أن لعنت أمه وأباه ، استرضاءً له عن تركها إياه ، فهش وبش واعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة الا لسقوط الكلفة وتمكن الألفة . وتنسّل من حضرته إلى حيث أشار الخادم فتهبط على الفئة التي عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذي أفتى في حبهاماله وأضاع في هواها شرفه ، فخاطبته بلسان اللوم والمذلل تسأله لأي سبب دعاها ولأجل أية علة ألقها من مكانها فيتلعثم المسكين ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها ، فان المحامى أخبره بنجاح قضيتها ، فتبسم له قليلاً ثم تلتفت عنه إلى سواه ، فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لمحّة ليقصّ عليها تفصيل الخبر ، فتتفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة المشرة ، ويبكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أتلّفه في معاشرتها من نضار وعقار ، فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب وتجلس إلى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالي والأيام الخوالي وأن يحفظ عنها « قصة الأضراس » في باب الاعتبار . وروت له هذه القصة التي هي عندهن عماد الصنعة وأساس الفن : زعموا أن فتى كان يهوى فتاة وتهواه فعاشا تحت جناح الحب زمناً سعيداً ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها في طلب المال ، وجاءت ساعة الوداع فانهملت العبرات وتوالت الزفرات وأقسمت

له بأن العيش لا يطيب لها من بعده وأن الموت أهون عليها من بعده .  
وسألته أن يُبقي عندها أثراً منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين وتشتم منه  
ريحه وقت هيام الذكرى ، فقال لها سأترك لك بضعة منى وأنزع لك  
أثراً من بين لحمي ودمي ، ثم عمد بيده الى فيه فاقطع لها ضرساً من أضراسه  
غير مبال بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع ، وناولها إياه يقطر بالدم فأخذته  
منه وأشبعته لها وتقبيلاً ووضعته في حقة نفيسة ، وسافر الفتى سفره  
ومضت عليه الأيام والليالي ، ثم آب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولم  
يفز بِطِلبته رقيقَ الحال ضعيفَ الركن ، فذهب الى دار صاحبه وقد  
أضناه الشوق وبراه النوى فلما طرق الباب ولحته من النافذة تنكرت  
له وأنكرته ، فناداها أنا فلان فاسمحي لي بالدخول ، قالت له ومنَ فلان  
فانى لا أعرفه ، قال لها خليلك وحبيبك صاحب العهد الوثيق والعشرة  
الطويلة ، قالت له كل الناس عاشرَ وفارق ، فأثيم أنت ، قال لها أنا صاحب  
الضرس ، قالت أولكَ ضرس عندي ، قال نعم ، قالت فادخل ، فدخل  
فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها  
مملوءة بكمية عظيمة من الضروس ، وقالت له : دونك إن كنت تعرف  
ضرسك من بين هذه الاضراس ، فأنا أعرفك اليوم من بين الناس .  
ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس الى مجلس ذلك الشيخ  
الوجيه ، فيقوم لتحياتها واقفاً ويُدبى لها نواجذهُ مهللاً ، فتجلس معه  
وغلام الحان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات ، فلا تلفت اليه فديم  
الوقوف فتأمره بالانصراف فيعود خائباً ، وتقول للشيخ إنها لا تريد أن

تحمله في حبها مغرمًا ولا تقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسابهم  
لصاحب الحان، فيخرج الوجيه من حزامه عقدًا يتلألًا فيضعه بين يديها،  
فتبسم له وتنطف اليه وتقيم عنده مدة في مضاحكة ومغازلة . ثم تقوم  
لتنصب على سواه شبا كها، وترمي لصيد القلوب أشرا كها:  
نُحِّي وَجُوهُ الشَّرْبِ فِعْلَ مُسَالِمٍ (١)

يُضاحِكُهُ وَالكِيدُ كِيدُ مُحارِبٍ

قال عيسى بن هشام - وأقنا نتأمل في أفعال هذه البغى الفاجرة .  
ونفكر في أعمال هذه الخداعة الماكرة . ونعجب كيف يقدر مثلها على  
نختل الرجال . فترميهم في مهاوى الغواية والضلال . وهي عارية من  
ثوب الجمال . مجردة عن جميع المزايا والحاصل . مفرغة في قالب الوقاحة .  
معجونة من حمأة الدمامة والقباحة . وما زالت الفاجرة تتقلب بين  
الجالسين وتتقل . وتتجول بين الصفوف وتحول . وتروح الى صاحب  
الحان وتندو . وتحفى آونة ثم تبدو . منطلقة اللسان بالسب والشب .  
منبسطة اليد بالنهب والسلب . ممتدة الكف باللطم والضرب . دائبة  
في السكب والشرب . وهي في تنقائها تقطب تارة وتجهم . وتقر تارة  
وتبسم . وتبسط حينًا وتقبض . وترضى ساعة ثم تمتعض .  
وتعامل كل انسان بما يلائمه . وتجري معه على ما يؤامه . فتضل  
الألباب والنهى . ويقع الجميع في أسر الهوى . وآية حبها وميلها . أن  
تضع الصب بنعلها . فاذا أضافت الى الضرب بالنعال . شق القباء وتنف

السَّبَّالُ<sup>(١)</sup> . كان في ذلك بلوغ الآمال ، بدنو ساعة الوصال ، واستوى  
المضروب يُفاخر أصحابه وخلانته . ويباهى أنداده وأقرانه . كالظافر في  
ساحة الطمان والضراب . والفائز بالغنائم والأسلاب . فيغالى في إظهار  
الابتهاج والائتناس . وتنبسط يده في الكيس ويدها في الكاس .  
والغلامُ على رأسه بالآنية . يصبُّ لها زجاجة كل ثانية . وهي تصب  
الكؤوس في الهاوية . كأن حلقها قناة وكأن الساقى ساقية . وحانت  
منا التفاتة الى الخليع وصاحبيه . فاذا العمدة يشير بيديه . ويفعز بجاحبيه .  
ويقول للخليع في اشتعاله والتهابه . ومخاطبه في ارتباك واضطرابه :

(العمدة) للخليع - لقد أسمعنا الجدَّ وحلَّتْ لدينا عاقبة الصبر ،  
ولئن فاتنا الأُنس بالغائب فما أكلَّ أنسنَّا بالحاضر ، وهذه الراقصة التي  
اجتمعت على محبتها القلوب وافتتنت بها العقول هي عندى الضلالة  
المنشودة والأمنية المطلوبة . ومنَّ يبلِّغنا إياها سواك ويمنَّ علينا بها غيرك  
(الخليع) - هذه هي الفتانة المشهورة بكثرة العشاق والطلَّاب  
ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها ، والموردُ العذب كثير الزحام ، والوصول  
إيها من دونه أهوال :

وإنك إن أرسلتَ طرْدَكَ رائدًا

لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ

رأيتَ الذى لا كلَّهُ أنتَ قادرُ

عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

(التاجر) - نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسِعة الرابحة فاز مَنْ حازها وخسر مَنْ فاتها ، ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء لَصَبَا إليها القلب وولعت بها النفس ، وإِكْن لِرَبِّ العيال ما يشغله عنها ويعده منها

(العمدة) - ليس يفوتنا على كل حال ان نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة ونروى بحداثتها الغليل ونشفي بكلامها الهيام

(الخليع) - حبذا لو جلستُ معن ساعة . ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين في الغرام بها والغرم عليها ما يجعل نيل الغرض متعسراً . ودرك الطلب متعذراً

(العمدة) - أما المزاحمة عليها فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول إليها ، وأما المنافسة في الغرم عليها فالأمر مستدرِك والدرهم موجودة

(التاجر) - ما أشكُ بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر وستنهي ليلتنا بمسك الختام

قال عيسى بن هشام - ويدعو الخليع خادم المرأة ويهمم بإعطائه شيئاً من الدرهم فيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما ، فيلقى الخليع في أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ، ثم يذهب الخادم فيعود بمولاته تتيه دلالاً وتتنى اختيالاً وتبدي الرضى من خلال التمتع

فنتسّم على أهل المجلس وتخص الخليع بابتسامة وتجلس بجانبه وتسأله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالأمس فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة ، ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة ويطلب لها في علوّ شأنه ورفعة مقامه فترحب به فيرفع العمدة يده الى رأسه مراراً تشكراً لها ، فتلح فص الخاتم يتألق في إصبعه ويتوهج فتضع يمينها في يمينه وتجرها اليها ترصد الحجر . فيسيل الرجل طرفاً وابتهاجاً ويعتقد انها كلّفت به حباً وغراماً ، فلا يروعه الا أصوات الأصمّة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعاً ، وكلما أفرغ أرباعاً عاد بأربع حتى هال التاجر من ذلك ما هاله فمال الى الخليع يناسجه ، فسكن الخليع من روعه وأزال الهواجس عنه ، فيميل التاجر الى الأقداح يسكب ويشرب ، والى المرأة يهازل ويفازل ويُعاطي ويناول ، والعمدة على حاله باهت شاخص ومولع موله ، والخليع مسرور مبهج . لا يرسل الكأس عن فيه . الامسكا بأخيه . والمرأة تمخّذع وتكيد . وتقول للغلام هل من مزيد . ثم يخرج العمدة ساعته من جيبيه ويتشاغل عن النظر اليها بالحديث ، فتقبض المرأة عليها تتمعن فيها وتقول له قد آن أوان الانصراف وحانت ساعة الختام ، وتقوم مودّعة فيتلهف العمدة ويتحسر ويسألها ان تمّ جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف في مجلس آخر ، فتضحك له ضحكة القبول وتلطم الخليع بالمروحة على خدّه وتغادرهم الى صاحب الحان فتجلس معه . ويأخذ الناس في الانصراف والخدم في رفع الكراسي وإغلاق بعض الأبواب ولا يبقى في المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة : ذلك الحاكم الوامق ،

وذلك الغلام الوارث، وذلك الشيخ المتصابي، وهذا العمدة المعروف بتاجره  
وخليعه. فاذا طال عليهم الانتظار ويئس الواحد بعد الآخر من صدق  
الوعد عمدوا الى الانصراف يصحبهم الهم ويرافقهم الكدر الا العمدة  
فانه يلح في الانتظار لشدة ما به من سكر الهوى وسكر الخمر :

سُكْرَانِ سَكْرُ هَوَىٰ وَسَكْرُ مُدَامَةٍ

ومتى يَفِيْقُ فَتَىٰ بِهِ سُكْرَانِ

ويقصد المرأة في مكانها عند صاحب الخان وهو يتعثر في مشيته  
ويجرجر في عباءته فيقف بين يديها يستنجزها الوعد، فتغضى عنه، فيلح  
عليها، فتلج في الإعراض، فيخرج من جيبه كيس الدراهم ويسط به  
راحته راجياً متضرعاً، فتظهر له الجفوة، فتشدد به الصبوة، فيترامى عليها  
فتدفعه برجلها عنها فيقع على الأرض فينتثر ما في الكيس، فيعمد الخليع  
لالتقاطه فيسبقه اليه صاحب الخان. ويتمائل العمدة واقفاً فيمد يده الى  
المرأة فيأخذ بضميرتها يجذبها نحوه، فتسبه وتلعنه وتمسك بصاحب  
الخان، ويستمر العمدة في الشد والجذب فتخونه الضفيري تان فيرتمي على  
ظهره طريحا وهما في يده والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث،  
فينقض من أقصى المكان رجل رث الهيئة يبيع الطلعة وسيخ العمامة  
يرفع في يمينه هراوة ويتأبط في شماله صرة ثياب فيقع على العمدة ضرباً  
بالهراوة، ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالضميرتين، ويتوسط بينهما  
التاجر فيسأل الرجل عما يعنيه في الأمر فيقول له إنه زوج المرأة وإنه

يدافع عن حريمه ، ولا يرجع عن غريمه ، فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه ، فينصحه الخليع بالرجوع عنه لأن الرجل من أهل « الحماية » وفي التعرض له إلقاء باليد الى التهلكة فانه فوق القانون يجني ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستجد بالخليع لينقذه من بلائه ، فيتقدم الخليع فيكلم الزوج طورا والخليلة تارة وصاحب الحان أخرى ، فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان من دراهمه مرضاة للمرأة عن إهانتها وعودنا لها عن خسارة الضفيرتين . ثم يقوم صاحب الحان وينادى غلامه وهو مشغل بإطفاء الأنوار فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له فيلتفت الى العمدة قائلا :

(صاحب الحان) للعمدة — والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيا ممن المشروب ، وانظر ماذا تعطينا من العوض في تعطيل المحل بهذه الأفعال الصبائية

(العمدة) — ما هذه الحسبة وما هذا الكلام !

(صاحب الحان) — أما الحسبة فصحيحة ، وأما ما أتيت به فانه لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ، ولكنها الخمر أم الشرور . وإن خالها الشارب أم الشرور ، وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها على أهل التنافس فيها ، والنساء غيرها كثيرات في المحل ، وإن كان لا بد لك منها فأنا أسمى في الصلح بينكما عند تشريفك

المحل في الليلة الآتية ، وأرجو أن لا تتوقف في دفع هذه الحسبة الصغيرة  
فاني لا أرضى لك الإهانة ولا ترضى لنفسك الفضيحة

(العمدة) للتاجر - هل عندك ما أسدد به هذا المبلغ

(التاجر) - لا وَحَقَّ العِشْرَةَ وَحَرَمَةَ الصَّحْبَةِ . فلم يبقَ معي من

الدرام لا قليل ولا كثير

(العمدة) للخليع - دبرني يا صديقي في أمري وانظر لي طريقة

الخلاص

.. (الخليع) - يعزّ عليّ والله ما نحن فيه ولكن عزّت الحيلة ،

ولو كان صاحب الحان يقبل مني ساعتى هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها

عنده ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ، ولو كان في

الوقت سعة لنهبتُ لاستحضار النقود بأية طريقة كانت

(العمدة) - ان كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أئمن من

ساعتك وهي عندي أعز عليّ من روجي لاني أخذتها هدية من دائرة

«البرنيس» يوم بعث لها أطيانها ، وعليها حروف اسمها منقوشة ، وقد

قدّرها لي الجوهريّ بخمسين جنيهاً

(الخليع) - ان كان الامر كذلك فلا يليق رهنها ، وعندك الخاتم

ترهنه مكانها

(العمدة) - هذا هو الأصوب وان كان الخاتم أغلى من الساعة

قيمة ، نَحْذُهُ يا حاضرة الخواجه رهناً عندك حتى أسد ذلك المطلوب في الغد

(صاحب الحان) - أنا لا آمن لهذه الفصوص اللماعة فقد  
غشوني فيها مراراً بإحكام التقليد في صناعتها، وليس هنا الآن من أثق  
به من أهل الصناعة ليكشف لي عن حقيقة هذا الفص

(التاجر) بعد أن يعن في الفص - كيف تقول ذلك وهو من  
الماس القديم وقيمه لا تنقص عن مائة جنيه، وأنا مستعد لرهنه عندي  
على خمسين جنيهاً، فانتظروني ريثما أذهب الى محل ميبتي وأرجع اليكم  
بالمبلغ

(صاحب الحان) مكفهرًا - ليس عندي وقت للانتظار فقد  
مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل وهذا جندي البوليس واقف أمامنا  
يتعجلني في مطاوعة أوامر الحكومة

(الجندي) - نعم مضى الميعاد ولا بد من الإغلاق حالاً، فانظروا  
معكم شيئاً آخر للرهن يُقضى به هذا المشكل

(الخليع) للعمدة - أعطه الساعة، فلا حول ولا . وليس هناك  
ما نخشاه عليها فاننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلني في الصباح بتهوة  
الموسكى

(صاحب الحان) بعد التأمل في الساعة - هذه الساعة لا توفى  
قيمة المطلوب وحدها، فترك الخاتم معها أيضاً

(العمدة) - هذا لا يصح مطلقاً فان المبلغ المطلوب لا يزيد عن  
ثلاثة عشر جنيهاً على فرض صحته

( الخليع ) - ما دام العزم أكيداً علي فك الرهن غداً فسيان رهن  
قطعة أو رهن قطعتين ، وأنا أرجو الخواجه أن يتجاوز لنا عما يطلبه من  
الموض في تعطيل المحل

( صاحب الحان ) - انى أتجاوز عنه لأجلك

قال عيسى بن هشام - ويشدد جندي البوليس في طلب الإغلاق  
في الحال فلا يسع العمدة الآ التسليم في الختام والساعة . وبينما الجميع  
يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر إذ دخل رجل قبيح الحلقة  
جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرت الشدقين  
فأخذ يجيل في الحاضرين نظره يميناً وشمالاً ثم تقدم الى المرأة فسبها  
ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت ومضى الميعاد وأغلقت  
الحانات وأنا قاعد في انتظارك بالبيت وأنت واقفة هنا تلعين وتسخرين  
فأين هذا الصيد الذي أهلك عني وأنساك أمرى يا عاهرة ، فتجيبه مع  
الذل والانكسار بأنها أخطأت ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع  
بعض العمد يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم العمدة  
عليها ونزع صغيرتيها ، فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة ، فيزجر  
الرجل ويتوعد ويعمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب ، فتستعطفه  
الفاجرة وتطلب منه أن لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع في مخاصمة  
أخرى وتطلب منه الإسراع الى البيت في صحبتها

وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء . وتأسف على وقوع

الرجال في أشراك المكر والدهاء . وكيف نزل العمى بهم والجهل . حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل . ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنيء . والموطن الرديء . وقد خرجوا من الثروة والشرف . ودخلوا في البؤس والتلف . ونزلت بهم أنواع المرض والسقم . وصَبَّ عليهم سوط الأحزان والنقم . ثم التفت الباشا الى الصديق . يسأله في أثناء الطريق :

(الباشا) - ألا تخبرني أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة في هذا المكان ، وكيف يترددون عليه ليالى متتابعات ولا يدركون ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال ، وقد كاد يقضى على للإقامة فيه بضع ساعات . فإِجَارُ الضَّبْعِ وما وَكَّرُ الظَّرْبَانِ (١) وما قبر الميت ، يرحمنا الله وإياك ، بأنتن رائحة ولا أقدر مكاناً ولا أسوأ مقاماً من هذا الذى كناه فيه

(الصديق) - يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ويكثرون من التردد عليه بحكم التدرج وإلفِ العادة وقوة التماذى وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً بسمه فلا تحس بضرره وألمه كالمرضى يذهله المرقدُ عن ألمِ الداءِ وبترِ الأَعْضاءِ ، وإنْ شئتُ فكالهندي يتدرج ويرتقى في تناول الأفيون وهو سمٌّ قاتلٌ حتى ينتهى بجسمه الى حالٍ لولسعتة معها عقربٌ أو لسبته حية لم يؤثر سمها فيه (٢)

(الباشا) - أفدت بما شرحت . وقد بقى عليك أن تفسر لى

ما أشكل علىّ من أمر الرجلين مع العاهرة ، أحدهما الذى يقول إنه زوجها ، والثانى الذى أخذت بيده أمامه إلى بيتها

(الصديق) - أما الزوج فإنه رجل من سفلة المغاربة المتتمين الى دولة أجنبية تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها ، وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به ، فتدخل حينئذٍ فى حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة اذا أنت فى فسقها وجورها ما يخالف أوامر الحكومة ، ويعيش الرجل معها زوجاً بالاسم وديوثاً بالفعل ، وذلك فى مقابلة شىء من الدراهم يتناولها منها فى كل ليلة . وهذه الطريقة قد تألفها الناس ولم تقتصر على العواهر بل تعدتهن الى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته الى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الأجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الاهلية الى نظام المحاكم المختلطة إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس الى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسئول عما ينشر فيها ويُطبع ، ثم يملؤها بما تسوّل له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشرف الناس ويسود صحيفته بكل فاحش من القول وبذىء من الكلام ، فاذا عول أحد الناس على محاكمته يوماً من الأيام وارى وجهه عن المحاكم بوجه الأجنبي وقال لك : ما ذمّ الامراء ولا هجأ الأشراف ولا طعن

في الناس الأَّ صاحب الاسم المسئول فعليك به ، فاذا التمستهُ وجدتهُ  
بائع نعال يصفقُ بها في عرض الطريق وينتسب الى دولة من أ كبر  
الدول الأجنبيَّة يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ولا  
سبيل الى محاكته الأ في بيت القنصل

وأما الرجل الذي سَحَبتهُ الماهرة بيدها الى بيتها فهو صاحب ودِّها  
وحبيب قلبها تفضله في آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها ويذل  
نفسه في سبيل رضاها ، ولا تعجب من سوء معاملته لها وسوء غطرسته  
عليها فذلك مما يزيدا فيه حبا ويولعها به شغفا . والنفس الدنيئة الحفيرة  
لا تميل الا لمن يادرها بالاهاة والتحقير ولا تنقاد الا لمن يتناولها بالضر  
والأذى . فهو يَضربُها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ثم يمتع بها  
دون المهالكين عليها وينتفع بما تجمه له من أموالهم لفضل هذا  
الوحش الضارى عندها على تلك الدواجن التي تدب حولها

(الباشا) — لا شك أن في هذا نوعا من الجزاء لهذه البنى على  
بغيتها في الناس وسلبها للاموال وفتكها بالارواح وقل للمثل هذا الجزاء  
المعجل في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها في الآخرة

(الصديق) — لا تستهينن أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه الماهرة  
في دنياها من الجزاء فانهم جميعا في معيشة كلها هموم وأدواء . ومن تأمل  
في حقيقة أحوالهم خفف من سخطه عليهم ووجد هُنَّ أحق بالشفقة من  
القسوة . فان هذه الأموال التي ينهبونها والأسلاب التي يسلبونها لا تلبث

في أيديهن إلا ريثما ينفقنها في الحلى والحلال . والعاهرة لا تنتهي حاجتها من الزينة ولا تخلو من حبيب تكفله وخلييل تقوم عليه فهي على الدوام في عسر شديد ودَيْن ثَقِيل . وإن جميع ما عليها من الحلى والجواهر وما يتألق في عنقها من القلائد وفي معصمها من الأساور وفي رجليها من الخلائل، إنما هي كلها في الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهري في أسرٍ لا فكاك لها منه طول الحياة . وهي كما رأيت تقضي ليلها الى الصباح في شرب السموم من الخمر وفي تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان وفي اشتغال الفكر بمراقبة الناس وتكأفِ التحجب اليهم وفي التفتن للتحايل عليهم ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان . فاذا اتهمت من ذلك كله وصلت الى بيتها منحلّة الأعضاء مفككة المفاصل فترتمى على فراشها كالرمة في مكان هو أقدر من ذلك الحان وأفسد منه هواء وربما لم تذق في يومها طعاما ولم تتناول في ليلها غذاء ، فاذا قامت من نومها بعد نصف النهار كالذي يتخبطه الشيطان مصدعةً مخمورة . لا تشتهي طعاماً ولا تُسبغ شرا باحتي اذا تماسكت قليلاً بادرت الى إصلاح الفاسد منها ومداراة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانت عليه . لا تزال المسكينة هكذا دائرة في حلقة من التعب والوصب ولا خلاص لها منها إلا بحلول

الأمراض والأوجاع ثم يُقضى عليها وهي في المعصية بعيدة عن ذوى الحنو  
والإشفاق من الأهل والأقارب ، وذلك هو البلاء العظيم والمذاب الأليم  
قال عيسى بن هشام—وما راعتنا في طريقنا الا صوت الديك يُؤذِن  
بالصباح . وصوتُ المؤذِنِ يُؤذِّنُ حىَّ على الفلاح . فأسرعنا نطلب ماأوانا .  
وندرِكُ أمَ مثنوانا . ونحن نسالُ ربَّ الأرضِ والسماواتِ . أن يغفرَ من  
ذنوبِ المسامِينِ والمسلماتِ

---

## العمدة في الرهن

قال عيسى بن هشام - ولما ارتفع وجهُ النهار أو كاد . ومسحنا عن  
النواظر كحل الرقاد . بادرنّا كل الإبدار . بالخروج من الدار . لناحق  
بأولئك الرفقاء . في المكان المعين للقاء . فقصدنا «قبوة القزاز بالموسكى»  
فوجدناها تتموج بالداخلين . واضطرب اضطراباً بالواقفين والقاعدين .  
فوقفنا هنيئاً نرسل النظر لإرسالا . وتصفح الوجوه يمينا وشمالا . حتى  
اهتدينا الى «الصديق» جالسا جلسنا عن جانبيه . ورأينا العمدة جالسا  
بجانبنا مع صاحبيه . فاذا العمدة يئنّ تحت المموم المتقاطرة . من سواد ليلته  
الغابرة . حيث ناله فيها من الهوان ما ناله . وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفة  
وماله . ورهن ما رهن من حلية ومتاع . من غير لذة ولا استمتاع . فهو  
متخاذل متضائل . « له شقٌّ مائل . ولونٌ حائل . ولعابٌ سائل » .  
وسحنةٌ مغبرة . وأاملٌ مصفرة . وجفونٌ محمّرة . وأحداقٌ جامدة .  
وأعضاءٌ هامدة . ورأسٌ متصدع . ونفسٌ متقطع . يفتح تارةً فاه .  
ويحكّ طوراً في قفاه . فيخاله كلُّ من يراه . نضو سفر<sup>(١)</sup> أضناه الشرى  
وبراه . أو حلف تسخير أذمته العصا وأهلبه السوط . ليلبغ من جهد  
«السخرة» متعهى الشوط . واذا التاجر بجانبه يقلّب حدقتيه . ويتجأب  
بشفتيه . ويصعد أنفاساً كالخريق . في ميزاب من الريق<sup>(٢)</sup> . كأنه  
ذئب يهّم بالعثيان . ويخشى صولة الرُعْيان . أو صائدٌ يخاف أن يخونه

(١) النضو، المهزول من الحيوان (٢) الميزاب، القناة يجري فيها الماء

كيدُهُ . ووفقت منه صيدهُ . والخليعُ بينهما يطرق برأسه . ويحكم ما في نفسه . متفكراً ينكتُ الأرض بعصاه . ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه . دائماً يبرم الخديعة ويهيءُ العُدَّة . ليستقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة . ورأينا هنالك من دونهم نفرا . لا يحولون عنهم نظرا . كأنهم الطيور الجارحة . تترقب حمامة سائحة . فاستخبرنا من الصديق . عن شأن هذا الفريق . فقال هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة . والطائفة الراجحة الخاسرة . طائفة الوسطاء والسمايرة . وشاهدنا الخليعَ يُوحى اليهم باللحظ والنظر . كأنه يماهدم على النجح والظفر . ثم سمعناه يقول للعمدة تهويتنا لأمره . وتيسيراً عليه من عسره :

( الخليع ) - لا تهتم يا مولاي ولا تنعم فالخطب أهون مما تظن والامور بأمر الله مبسرة والحاجات بإذنه مقضية

( التاجر ) - ان كان التيسير من جهة الاقتراض فأنا لا أنصوّر أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس في هذا العهد عهد المماكسة والمضاربة . وفي هذه الحالة أراني أوّلَى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي فاني له أرجح جانباً وأريح معاملة وأنقص في قدر « الفائدة » من سواي

( العمدة ) - لا أرى في ذلك من بأس لو كان في الوقت سعة وفي الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة ، والتحديد والتقويم ، والتقدير والتحرير ، والتقييد والتسجيل ، الى غير ذلك

( الخليع ) - ولا تنسَ ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح  
الشنعة بين الأهل والجيران . وصدقَ من قال « يَبِعُ الشَّيْءَ خَيْرَ مِمَّنْ رَهْنَهُ ،  
والرهنُ يُبَاعُ وَغَبْنٌ » وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة وأنا  
أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض

( التاجر ) للخليع - ما أحسن هذا لو أنه يتم ، ولكن لا تنسَ  
أنت أيضاً ما قيل : « ان الذى يقرضك على الشهرة والسمعة ، لا بد  
أن يأخذ فائدة شهر في جمعة » ولن يخاطر أحد من أرباب الأموال بماله  
من غير رهن الآمن ضمن لنفسه الفائدة الجسيمة والربح الطائل

( الخليع ) للتاجر - ما بالك تعسر علينا في الأمور مع إمكان تيسيرها ،  
ولا يأخذك شكٌ فيما أقول فأنا أضمن الحصول على القرض في هذه  
الساعة في هذه القهوة في هذه الجلسة . ولا محل للتخوف من جسامه  
الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً والتسديد عتيداً

( العمدة ) للخليع - هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب  
والاصدقاء ، وهكذا تكون محاسن الشيم ، يا أبا المكارم والمهم

( التاجر ) - قد قلت ما عندى ، وكل انسان حرّ في عمله

( الخليع ) للعمدة - قل لى كم تريد أن يكون مبلغ القرض

( العمدة ) - يكفينى على ما أظن مقدار مائة جنيه لسد الحاجة في

الحالة الراهنة

( الخليع ) - هذا التقدير ضعيف ، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل

وبعًاذا يفيد ، وعليك قبل كل شيء تسديد ما لصاحبنا هذا في ذمتك من الدين ثم يتبعه ما لصاحب الحان لفك رهن الساعة والخاتم ، وأضف الى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد سكنه فى حلوان وما يتبعه من أمان الفرش والأثاث . هذا غير ما يجب ان يكون فى يدك للبذل والإنفاق فى أوقات الأناس والطرب ، وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة اليها بعد كل هذا التعب والكدر ، فلا بد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الأقل ولا سيما أن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المقدار ان كانت مدته قصيرة

(وهنا يؤمى الخليع الى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه ، فيهمس فى أذن أحدهم كلاماً ثم يجهر لهم بالخطاب فيقول ) :

( الخليع ) — اعلموا أن سمادة البنك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الأيطان والعقار ما هو معروف مشهور ، ولم يسبق له اقتراض مال قط وليس عليه دين مطلقاً وأطيانه وأملكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك ، وقد حلت به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للإئفاق فى مدة وجوده بالقاهرة ، وهو الآن فى حاجة الى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى أوان الحصاد الآتى ، ولست أرى له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التجرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد

(أحد السماسرة) - مرجحاً بسعادته مرجحاً . وما هو بالمجهول  
عندنا فاننا نعرفه كلنا وبما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله  
منه . كان للمرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة  
وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين أعيان القطر  
مثل المرحوم فى الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس . وكذلك  
تعلم أن الدرامم عزيزة المال فى هذه الأيام وقلّ من يخاطر بقرض هذا  
المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة ، ولو كان الأمر لى وحدى  
لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون ميثاق أو رهن أو فائدة اكراما  
للصحبة القديمة بين والدينا وتوثيقاً لعرى المحبة بيننا ولكن شريكى فى  
الاشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر لا يعرف حقوق المودة  
القديمة ولا يرضى بقرض المال الا اذا كان مستجعماً للشروط القانونية .  
ومع ذلك فانا أعمل معه جهدى وأرضاه بضمانتى أولاً و « بتشريف »  
مقدار « الفائدة » ثانياً ، فان اتفقت معى على أن تكون الخمسة بثمانمائة  
الى وقت الحصاد باشرت معه الأمر وقت بالخدمة الواجبة على لسعادة  
البك

(التاجر) - سلام قولاً من ربّ رحيم . أياكون مقدار الربا  
فوق مقدار نصف القرض . . . ما سمعنا بهذا فى آياتنا الأولين

(السمسار) للتاجر - لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف  
فانه لا يستعظم مثل هذه « الفائدة » فى الأحوال الحاضرة الآمن

يعتقد بتحريمها . على أن الربا محرّم عندنا أيضاً كما هو محرّم عندكم  
ولكن « الضرورات تبيح المحظورات »

(العمدة) - حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار

المشهورين

(السمسار) - اذا كان حضرته من التجار فلا بد أن يكون واقفاً

على ضيق الحال وقلّة المال وكساد السوق وعالماً بمقدار « الفائدة » في  
قرضٍ من غير رهن . ثم لأنه لا يجهل في الأشغال تكاليف المشاركة ...  
والمساهمة ... والمقاسمة ... ان شاء الله

(التاجر) - نعم نعم ولكن يجب إقتصاص مقدار « الفائدة » على

كل حال فان أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين  
رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمتُ بذلك عليه

(السمسار) - ما أصعب المعاملة مع التجار . وما دمتَ حكمتَ

حكمتك فلا مردّ له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول لا كراماً لسعادة  
البك ، فتفضلوا بالنهاب معي الى المحل على بركة الله لإتمام الأمر  
مع شريكى

(الخليع) - لا حاجة الى ذهابنا جميعاً ويكفي أن يذهب معك

سعادة البك وحده فان المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا في الانتظار  
قال عيسى بن هشام - وقام العمدة مع السمسار وأقننا جالسين في

مكاننا نتشغل بالحديث مع الصديق ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى

مدة من الزمن ، واذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس  
فأسرع الخليع والتاجر الى لقائه واستخباره عما جرى له  
(العمدة) - لعن الله الحاجة والاضطرار. وما كان أغنانا عن هذا  
الخراب والدمار

(الخليع) - وماذا وقع بك ودهمك . هل خاب الأمل في عقد  
القرض أم عقده وسُرقت منك الدراهم

(العمدة) - لم تُسرق كلها بل نصفها

(التاجر شاهقاً والخليع محملاً) - وكيف كان ذلك

(العمدة) - ركبت مع الرجل وذهبتا الى محل شريكه فأجلسني  
هناك ناحية وكتب الصك وختمته ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله  
ثم عاد الى عابس الوجه يقول لي إن الأمر متعذر متعسر وانه بذل كل  
ما في وسعه من طرق الافناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ ، فلم  
يقبل ولم يتحوّل عن رأيه . ثم أخذ يظهر لي أنواع التأسف والتوجع  
نخبية مسعاه ويشير على بالصبر أياماً حتى تنفج الشدة وتنقضى الازمة ،  
فأريته شدة ما بي من الحاجة الى الدراهم في هذا الوقت وليس في الاستطاعة  
تأجيل الاقتراض وهمت بالرجوع اليكما لترشداني الى باب آخر يأتي  
بالتيسير المطلوب ، فدنا مني شريكه عند ذلك وقال لي يعز عليّ والله أن  
أردك خائباً وأرفض رجاء شريكى ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق  
الذي لحق بهذا القطر في هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل

وانتشار الدودة وكثرة المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين . وأنا أقسم لك بِشَرَفِي وذمتي وأولادى أنه لا يوجد في محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيهه هي أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نستغل له في استثمارها بكل احتياس واحتياط ، وأنا أضنّ بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ، ومع ذلك فقد فكرت طويلاً وعودت على أن أضعها بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتها أول خدمة جلية تقدمها اليك . فأسرعتُ الى قبولها مع الشكر والامتنان ، فأخرج صرّة ووزن ما فيها من الذهب ثم سلّمه الىّ فعددته فوجدته أربعمائة تماماً ثم وضعتها في جيبى وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسعى فيه يزيد مائة جنيهه عما قبضته من الذهب ، فتلكأ في الإجابة واعتذر الىّ بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده بفضه لربح اليتيم وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتخاب محاماة إن وقع منى تقصير فى التسديد عند الميعاد لاسمح الله كما هى العادة السائرة اليوم . فهالنى الأمر ونبذت الدراهم وطلبت منه أن يرده لى الصك فى الحال ، فلم يلتفت لقولى واشتغل عنى بالكلام مع بعض الوافدين اليه وأنا مقيم على مثل الجمر ، وكلما أشرت اليه بإشارة من بعيد ليكلنى لوى وجهه عنى وأظهر الاشتمزاز منى ، ففقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجة فلم أجد له أثراً ، فاشتدّ بى الكرب وحرّ قنّى الغيظ فلم أتمالك نفسى وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلابيبه أطلبه برده الصك ، فأظهر لى حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حلّ خناقه من

يدى وقال لى إنه لا يمنعه عن إجابة طلبى إلا غياب الشريك فان الصك  
كُتب بحضوره ولا يجوز أن يسلمه الىّ بدون علمه ، فعلى أن  
أنتظر أوبته . وبينما نحن على هذه الحال وإذا بسعادة عمر بك  
صهر مديرنا قد دخل علينا فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى  
خجلاً منه وحياءً أن يسمع ما يجرى بيننا ويرانى فى مثل هذا الموقف  
فانسقط منزلتى فى عينه وعين صهره ، فتقدمت اليه وسلمت فردّ علىّ  
التحية بالتكريم والتعظيم ، فلحظ اللئيم صاحبُ المحل ما أنا فيه فانهز  
الفرصة وقصّ على سعادة البك قصتنا على حسب هواه وطلب حكّمه  
فى الامر . فقال له سعادة البك لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة  
فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التى يديرها صهرى وله شهرة عظيمة  
بحسن السيرة وسعة الثروة . ثم التفت الىّ وقال : وأنت لا يجدر بك  
أن تخالف حضرة الخواجه وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة،  
وإذا كانت نقطة الخلاف فى مائة الجنيه التى حجزها عنده لنفقات القضية  
فأنا لا أشك فى أنه سيردها اليك بتمامها عند إفاء الدين فى ميعاده، وأنت  
بحمد الله فى ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد ، وإن كنت لم  
تتعامل مع الخواجه إلا فى هذه الدفعة ولم تجرّب مقدار أمانته وحسن عهده  
فانى أكفل لك صدقه ووفاءه . فاضطرت من كل الوجوه الى التسليم  
والإذعان وأخذت الدراهم وسلمت على سعادة البك وقلت له عند خروجى  
لا يظن سيدى أننى اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر فان الأمور  
ميسرة بفضل الله ، ونعمة الله وافرةً علىّ كما يعلمه سعادة صهركم المدير

ولكنني وجدت فرصة لا أعرض في أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشتري أطيان من أحد أولاد الذوات وهو في حاجة الليلة الى استلام العربون ولا يمكنه أن يمهلني ريثما أستحضر له المبلغ من البلد فاضطرت للاقتراض على هذه الصورة . فقال لي نعم ما تفعل وبارك الله لك في البيع والشراء، ثم إنه حملني سلاماً وكلاماً لسعادة المدير، وانصرفت وخلفته مقيماً مع الخواجه ، وحضرت اليكما ولم يدخل في يدي من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهاً الا اربعمائة جنية فقط، فهذا معنى قولي لكالم تُسرق مني الدراهم كلها ولكن سُرق نصفها

قال عيسى بن هشام - وكنا نشاهد في أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاء من الكلام وهو يعدّ اليه يديه ويحرك شفتيه فتبيننا من هيئته انه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة في قيمة الاجرة ، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله :

(السائق) - خَلَصْنَا من فضلك ياسيدنا السيد فقد طال وقوفي

وعطلتني عن شغلي

(العمدة) - أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته اليك ففيه الكفاية

(السائق) - مَنْ يقول ياحضرة الشيخ أن خمسة قروش تكفي

في أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت في أثناءها من مكان الى مكان ثم عدتُ بك الى هذه القهوة . وأنا لا أبرح مكاني حتى تعطيني الأجرة اللائقة بهذه المدة ، وان كان الذنب من جهتي لا نني قبلت أن تركب معي ورفضتُ ركوب الخواجه الذي استوقفني قبل ركوبك ظناً مني أنك

من كبار العمدة الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجره  
المركبات ، ولكن ظهر لي الآن أن هذه أول مرة لك في زيارة العاصمة  
وفي ركوب المركبات وجمعتني أفضل « برنيطة » الخواجه على عمامة  
السيادة ، فلا حول ولا قوة الا بالله ، خلصنا ياسيدي

(الخليل) للسائق - اسكت عن هذا الكلام البارد وهاك قرشاً  
سادسا خذهُ وانصرف

(السائق) - كن محضر خير يا حضرة الأفندي واعلم أنني لا أقبل  
زيادة قرش أو قرشين مطلقاً فيما الأجرة اللاتمة وإما الذهاب معي الى  
صاحب المركبة

(العمدة) - دونك قرشاً آخر فاتركنا واذهب لحالك

(السائق) - كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش في أجرة  
هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار ، فهل تحسبها أجرة ركوبك من  
هنا الى محل الخواجه أو أجرة انتظاري هناك زيادة عن الساعة أو أجرة  
ركوبك من محل الخواجه الى دكان الكوارع وانتظارك مدة الأكل  
أو أجرة رجوعك الى هنا ووقوفك في الطريق عند بائع الفاكهة

(التاجر) - دكان الكوارع ..... !! وبائع الفاكهة ..... !!  
« واحرَّ قلباهُ ممن قلبهُ شيم<sup>(١)</sup> »

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد  
دوننا بالأكل ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاما

(العمدة) - ما ألجأني الى ذلك وحقَّ الصعبة الا الجوع المفرط  
واحْتِياج الجِسم الى ما يقيمه فاني أحسست بالنور ظلاماً في عيني ، من خلو  
البطن ، وأشهدُ أن الجوع كافر

(السائق) - أدركوني برحمتكم فهذا جنديُّ البوليس يأخذ نمره  
المركبة ليكتبها في المخالفات حيث خلقتُها واشتغلت عنها بكم  
(الخليع) - لقد صدعتنا وشغلتنا نخذُ هذا القرش أيضاً وأنا  
أخلصك من جنديِّ البوليس ، والآ فإني أقوم الى « القسم » وأرفع  
الشكوى لاجترائك علينا ، ولا تجرد في « القسم » من يرحمك

(السائق) - ما باليد حيلة ، أعطني ما تريد وقمُ اشهدُ عند جنديِّ  
البوليس بأنني في انتظاركم حتى أخلص من المخالفات ، والله يُعوضني خيراً  
ولا يحكم عليّ بركوب أمثالك مرة ثانية

(الخليع) للعمدة قائداً - قد اتهمنا والحمد لله من جميع العقبات  
فلننظر الآن في تدبير شؤوننا ، وهلم فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب  
منك لصاحبنا هذا ، ثم نُبَيِّ بصاحب الحان لفك الرهن ، ثم نلت  
بمشتري المقتنيات اللازمة لك

(العمدة) - نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاء  
الله خيراً

(التاجر) (بعد استلام المبلغ - أستغفر الله فالفضل والشكر لك على  
كل حال ولكن يتعذر عليّ ان أرد اليك الصك في الحال لأنني تركته  
بالمزول فالأليق أن تبقي المبلغ حتى آتيك به غداً

( الخليع ) - سبحان الله ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء  
الأوفياء ، وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط في معاملتهم ، فتقديم  
الصك وبقاؤه عندك سيان ما دام المبلغ تسدد لك ودخل في جيبك  
( العمدة ) - صدقت صدقت فليس بين الاخوان ما يدعو للتوقى

والتحرس في مثل هذه الأمور . وقوموا بنا الى صاحب الحان  
( الخليع ) للتاجر ضاحكاً - انظر اليه فلا يزال قلبه يحن وهواه  
يميل الى سكان تلك المعاهد والديار

( العمدة ) - أقول لك الحق . ان غيظي من معاملة تلك المرأة  
القاسية شديد وحنقي عظيم ولست أنسى ضروب تفننها في التمدل على  
والتمنع منى ولا أغفل عن تلك النظرات التي كانت ترسلها الى بالتعطف  
والتلطف وأنا أسحبها من شعرها . وبودى لو أراها مرة ثانية فأوسعها  
عتاباً وأشبعها تأنيباً

( الخليع ) مبتسماً - أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك . تريد من  
العتاب أن ينتهي بك الى العتبي وتخرج بها من التعنيف الى التلطيف ،  
وما ألد الرضى بعد الغضب وما أمتن الصداقة بعد العداوة . لكنى أقول  
لك قول المشفق الناصح إنك مها حاولت مع هذه المرأة فلا يمكن أن  
يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها ، وانما  
لرأى لك ان تلمسها نهاراً وتدعوها للغداء ممك في بعض جهات النزهة ،  
وأنا أفضل نزهة الأهرام على سواها فانها تكون هناك خالصة لك من  
دون الناس بمعزل عن العذال والرُقباء

(التاجر) - ما أدقَّ الحيلة وما الطفَّ الرأى

(العمدة) للخليع - لله دركٌ فما حار مَنْ أنت حاديه ، ولا ضلَّ

من أنت هاديه . وهياً بنا الى الحانٍ أولاً لفكك الرهن

(الخليع) - ولعلنا نُصيب خادم المرأة هناك فترسله اليها بمرض

التماسنا . ولا شك عندى فى إجابة سُؤلنا

(العمدة) - نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً نغير البر عاجله

(الخليع) - لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله

قال عيسى بن هشام - وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان

للإنسان . بما لا يأتيه حيوان مع حيوان . ثم بادرتنا نحن أيضاً الى القيام .

على أن يكون الاجتماع غداً فى الأهرام

## العمرة في الأهرام

قال عيسى بن هشام - ولما وقفت بنا الركاب في ساحة الأهرام .  
وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام . قُبَالَةَ ذلك العلم الذي يطاول  
الروابي والأعلام . والمهضبة التي تعلو الهضاب والآكام . والبنيّة التي  
تُشْرِفُ على رَضْوَى وشَمَام<sup>(١)</sup> . وتُبلِي بيقائها جِدَّةَ الليالي والايام . وتَطْوِي  
تحت ظلّها أقواماً بعد أقوام . وتُفني بدوامها أعمار السنين والأعوام .  
خَلَقَتْ ثيابُ الدهر وهي لا تزال في ثوبها القشيب . وشابت القرون  
وأخطأ قرنها وَخَطُّ المشيب . ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم .  
وتسخر بشواقب الشهب والرجوم . وتحدّث حديث المشاهدة والعيان .  
ما تعاقبَ الفتيان<sup>(٢)</sup> . وتناوبَ الملوآن . عن قدرة هذا الانسان . في بدائع  
الصنع والإتقان . وتُنْذِيء عن قوة هذا الضعيف الضئيل . في إقامة هذا  
الأثر الجليل . وكيف جاز لهذا الفاني البائد . أن يصدر عنه مثل هذا  
الباقي الخالد . وجلّ صنع التقدير الخالق . في تصوير هذا الحيوان الناطق .  
حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة . والأفعال المتغابرة المتعارضة . فبينما  
ترأه يصعد الى أجرام السماء وعوالمها . ويبحث بفكره في رسومها  
ومعالمها . ويسير بعلمه في أنحائها ومنابها . ويهتدي لحساب أبقارها  
وكواكبها . اذ تراها يعثر عثرة برجله . فيكون فيها منتهى أجله . أو  
يكبو في طريقه . فيغصّ بريقه . ويهوى بإذن الله الى مكامن الخلد<sup>(٣)</sup> .

(١) جيلان معروفان (٢) العيان ، الليل والنهار (٣) الخلد ، الفأرة العمياء

وهو طامع في شجرة الخلد . فهو ذاك الذي كَبُرَ وصَغُرَ . وَعَظُمَ وحقَّرَ .  
وعزَّ وذَلَّ . وكثُرَ وقلَّ . وصعدَ وهبطَ . وعلا وسقط . وصلح وفسد .  
وعرَّفَ وجحد . وسعدَ وشقي . وفنيَّ وبقي . وسبحان القاهر فوق  
عباده

ثم انتقلنا من التفكير . الى التفسير . وانبرى الباشا يكشف عن  
ضميره . ويقول لنا في تعبيره :

(الباشا) - كنت أعتقد وأنا في سالف الأوان . ان هذه البيّة  
لمصر تاجها الذي تفاخر به التيجان . وأعجوبتها التي تباهى بها الأقطار  
والبلدان . وشاهدتها الذي يشهد لها بالمدينة والعمران . ولكني أراها اليوم  
بعد أن استضأت بنور العلم واهتديت بهدى العقل ، وبحث في حقائق  
الأمر ، أن لا مزية فيها ولا خير منها ، سوى أنها أحجار مرصوفة .  
وجنادل مصفوفة . لا تمتاز عن جبل من الجبال . أو تل من التلال .  
فهل تعلمان لها من معنى فامض التوى على فهمه . أو سرّ خفي عزّ  
على عامه

(الصديق) - ليس لها على الحقيقة من سرّ خفي ولا من فائدة  
بادية سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا  
يعتقدون بالرّجعة في هذه الدنيا بعد المات وأن ارواحهم تعود ثانية الى  
أجسادهم بعد أن تنتقل مدة من الدهر في أجسام أخرى ، فكان همهم في  
حياتهم مصروفا الى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم في قبور مشيدة

قائمة على الدهر لتعود اليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها. والناظر في الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنن في البنيان والتصوير عند المصريين ينتهي أغلبه الى المعابد والمقابر وكانت قصورهم وبيوت ملكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ قاعين بذلك في جانب تسخير الأمة بأسرها في نقل الصخور ورفع الأتقال لا ببناء مثل هذا البنيان واتخاذ قبراً لهم تُحفظ في جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلي الى الرجعة - ولكن الى المتحف متحف الجيزة - فتسخير الأمة المصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإهراق دماؤها وإزهاق أرواحها في بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط واعتقادٍ سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة ، أو من عمل كاهن ما كبر لمنفعة له معلومة . ومثل هذا لا يكون فيه من نخر لمفتخر ولا من عزة لمعتز ، وما هو إلا الظلم والغشم والضلال والجهل . وما لهذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهديّ عدلٍ على سابق الشقاء في الأمة المصرية وما كانت تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد . ولو كان لاؤلك الملوك أدنى لمحة في ارتقاء المدنية وال عمران لسكانت هذه الأحجار والصخور مرتفعة في بناء القناطر والجسور . وتالله لباني القناطر الخيرية مثلاً في نظر الباحث المدقق أحقُّ بالعزة والفخر من أولك الملوك عبّادِ الأوهام ومستعبدى الأنام . وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يُذكر سوى أنه صار يوماً من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبارٌ آخر فرنسيّ اسمه

نابليون نخطب من فوقه على جنوده بكلام يهزّ فيهم أريحيةً التفاخر والتباهى ويخدعهم به ليظلموا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ويعانون أهوال الوقائع ويصبرون على الموت والقتل في هواه . وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلاّ كونه صار مورد رزقٍ لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة . ومما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه : أن الملك الذي شيدته أمر أن يكتب على جدرانهِ عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى : « إني ابتنيتُ هذا البناء في ثلاثين عامًا فان جاء بمدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه في ثلاثمائة عام . ولو عقل المسكين أنه سيأتي عصر من العصور يمكن فيه لأحقر صملوك أن ينسف هذا البناء في لحظة واحدة فيجعله كالعهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية لما اغتر بسعة القوة والسلطان . ولما تحدى بشيء سلّمه ليد الحداث . وليس للحدثان من أمان . اللهم إنك تعلم أنه عمل ضائع . من جهل ضائع . لا ينبغي للمصرى أن يراه إلا بدمع منهمر . وقلب منقطر . لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه . وهوان أجداده وآبائه

قال عيسى بن هشام - وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا وبيدهم تلك العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فاتخذوا لهم مجلساً في ظل من ظلال الأهرام وانبطوا على بساط الشرب والنقل . فقطعنا من بيننا

حديثنا واتهينا الى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم ، فاذا  
العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق  
والعالم المحقق

(العمدة) — هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن أصل هذه  
الأهرام ونسب وضعها وتاريخ تشييدها

(التاجر) — كيف لا يكون لى علم بذلك وقد وقفتُ على قصتها  
تماماً وقرأتها مراراً في كتاب « قصص الأنبياء » عند الكلام عن سيدنا  
نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكننى أن أقصها عليك  
حرفاً بحرف : ذلك ان الملك « سودون » كان ملكاً على مصر قبل  
الطوفان ، فرأى فى منامه رؤيا أفزعته فاستدعى السحرة والكهنة  
والمنجمين وقص عليهم انه رأى النجوم تنارت والقمر هابواً الى الأرض  
فقالوا له ان هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريباً  
ولا يبقى على شىء فيها ، فارتاع الملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من  
من هذا الحادث العظيم فأشاروا عليه بابتناء هذه الأهرام حتى اذا حلّ  
الخطب انتقل اليها واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه ،  
فخشد الملك الألوفا المؤلففة من الخلق وسخرهم لهذا العمل فأتموا له هذا  
البناء فى مائتين وخمسين عاماً ، ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ونقل  
اليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز مانعب الناس فى جملة وتقله  
شهوراً كثيرة ، ثم إنه جمع السحرة فخصنوها له بالأرصاد والطلاسم ،

ولما قرب وقت الطوفان لجأ اليها بأهله وحاشيته وطفئ الطوفان فلم ينبج منه الا أهل السفينة وعُوجُ بن عُنُق وهذه الأهرام . وعُوجُ بن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام وُلد في زمن جدّه وأدرك موسى صلوات الله عليه ، وذكروا أن ذلك الطوفان الذي عَلَا الهضابَ والجبالَ لم يبلغ حدّ ركبته فكان يخوض فيه مع السفينة فاذا أحسّ بالجوع مدّ يده الى قاع البحر فأخذ الواحدة من السمك فيُدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية ، ولما انتضى الطوفان وعاد العمران الى الدنيا أخذ يعيث في الأرض فساداً دهنراً طويلاً حتى بعث الله موسى عليه الصلاة فشكا الناس اليه ما يفعله عوج بن عنق ، فدعا الله أن يكفيهم شرّه ، وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه لياقيها على أهل بلدة حلّ بهم غضبه فأرسل الله تعالى طيراً له منقارٌ من الفولاذ فاذا زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت في رقبة حاملها وصارت غُلاً له يمنعه عن الحركة والانتقال فجاء موسى بمصاهُ وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعاً وطولُ المصاهُ أربعين ذراعاً ، ثم إنه وثب في الهواء أربعين ذراعاً ، وضربَ عوجَ بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ، ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض لأنه من أولى العزم فوقع عوج بن عنق في النيل فخرّهُ عن أرض مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه فكان إذا مرّ عليه مارٌ عند رأسه قال له : اذا وصلت بسلامة الله الى قدسي فامنع عني ما يؤلني من هذا الذباب» يعنى الوحوش المفترسة ، وبقي على هذه الحال الى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل ، واتخذت

الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفاً ومغائر تسكنها وكفى الله العباد شره وفساده»

(العمدة) - سبحان الخلاق العظيم ، أرجوك بالله يا أخى أن تشتري لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى الى البلد ليقرأها لنا إمام المسجد أو مأذونُ الناحية عند خلونا من الاشغال

قال عيسى بن هشام - وكان الخليع فى هذه الاثناء مشتغلاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها ، يضاحكها وتضاحكها ويشاربها وتشاربه ، فلما انتهى التاجر من قصته أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ويقول له :

(الخليع) - هل رأيتَ بالله عليك يوماً أعظمَ أنساً وأتمَّ سروراً وأجمعَ لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا

(العمدة) - حقاً إنه يوم سعيدٍ وأنس غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء ، وتحت السقف لا تحت السماء . فانك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا وفى ذلك من التضييق على حريتنا ما لا يخفى عليك

(الخليع) - لا تخشَ الناسَ ولا تشغلْ نفسك بالخلق واغتم اللذات بكل جسارة وإقدام ، وليس للإنسان سوى ساعة الصفو إن لم يقتنها ترك الدنيا بصفقة المغبون . وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح فى الصعود الى الأهرام حتى لا يفوتنا شيء من أسباب التزه (التاجر) - دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا ، وأية لذة

بأنه عندك في صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر  
في كل خطوة

(الخليع) - هذا أمر سهل جداً وقلّ من يزور الأهرام الا يصعد  
فيها مسافةً على قدر جهده ، وانظر الى هذه النسوة الأمريكيات  
الصاعدات الناظلات في أيدي العربان أمام عينك ، هل تراها تخشى خطراً  
أو تهرب تبعاً ، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال أن نكون أدنى  
من النساء جرأة وإقداماً ، وعلى كل حال فلا بدّ لنا من الصعود قليلاً  
ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو والخلاعة . والسيدة  
توافقتني على هذا الرأي

(العمدة) - وأنا اوافق عليه أيضاً . ارجو الله أن نعثر في  
صعودنا على فص من الفصوص العتيقة التي طالما عثرتُ على مثلها في التل  
الكُفريّ بناحية بلدتنا . ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها

(التاجر) - أنا أنتظر كما معها

(الخليع) - لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداءً بهذه السيدات  
قال عيسى بن هشام - ويقومون للصعود ويتلصق التاجر في  
أخرياتهم ويحاول التخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قواه مزارحاً له وساخرًا  
منه لشدة تخوفه وحذرهِ ، والخليعُ والمرأة يُفريانه به ويضحكان لضحكه  
وما كادوا يصعدون قليلاً حتى حانت من العمدة التفاتة الى الأرض فباله  
ما بينه وبينها من الفضاء فامتقع لونه وارتعدت فرائصه ومال على الدليل

البدوى مستغيثاً به أن يُنزله الى الأرض معتذراً أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود ، فيدركه الخليع فيسنده مع البدوى فيسقط من أيديهما فيحمله البدوى على ظهره وينزل به ، فما يبلغ الأرض الا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهى تناديهم جميعاً أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذى وقع من إصبعها ، فيلحق بها الخليع فيبحث فلا يجد شيئاً فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالسكاء والعويل ، ويُغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط فى حال الصعود بل فى حال الجلوس ويطلب من العريان أن يدركوه بغير بالٍ يغربل به الرمل عساه يجده فيه . هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنتهى لها شكوى والخليع يُطيب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الأسف من الحادث الذى كدّر عليهم الصفو وأبدلهم بالأنس حزناً وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور ، وما من لذّة الا وهى مشوبة بالألم :

فَسَدَ الزَّمَانُ فَا لَدَيْدٌ خَالِصٌ

مِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُرُورٌ كَامِلٌ

على أن المصيبة هينة ما دامت فى المال دون النفس ، ومن ذا الذى يدرى بما هو مغباً له فى الغيب ، والحمد لله على اللطف فى القضاء . ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم الى المرأة ، ويُقسم لها انها لا تبيت الليلة

الا وليها فصٌ مثل الفص الضائع ، فتشكره وتقول له أُنِّي لها بمثل ذلك  
الفص وهو من الياقوت النادر المثال في لونه وصفائه ، فيعيد عليها القسم  
بأنه سيأتيها في الغد بفضٍّ أئمن منه وأجل . ثم إنه يشدُّ على يدها توثيقاً  
للوعد فتشدُّ على يده للتقبيل فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من  
غير فص فيخلع خاتمه الذي استخاضه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها  
بغيره . ويعودون الى مجالسهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة  
والأنس ، ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم

(العمدة) - ما أحسن المجلسَ وما أضيّقَ الوقتَ وحبذا لو واصلنا

الليل بالتهار

(التاجر) - لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في

ذلك الحان المنحوس

(الخليع) - وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان

مثل ما تتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ما حوّلها هناك من المزاحمة  
والمخاصمة

(العمدة) - وما العمل حينئذ

(الخليع) - العمل اننى أكلفها أن تمارض هذه الليلة وترسل الى

صاحب الحان بتعذّر حضورها عنده

(العمدة) - نعيمَ الرأى ما ترى

قال عيسى بن هشام - ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول

هذا الطلب فتمتنع أولاً معذرة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التي تقضى عليها بدفع عشرة جنيهاً إليه تعويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها . فالتفت الخليع الى العمدة ينتظر رأيه ، فيميل العمدة على المرأة متمهداً لها بدفع هذا التعويض . ثم يتساءلون فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم في الأتس والسرور . فيرى العمدة قضاءها في البيت ، ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في « البارات » ، ويرى الخليع قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التي تمثل في « التياترو » العربي . فيقع اتفاقهم على هذا الرأي الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً . وينصرفون على هذا العزم المؤكد . والميعاد المحدد . ويمنُّ « للصدیق » أن تتخلَّف عنهم . ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم . وأن تقضى هذه المدة الوجيزة . في زيارة قصر الجزيرة . ثم تلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص . وديوان الروايات والأقاصيص

## قصر الجيزة والمتحف

عن عيسى بن هشام - ووصلنا الى قصر الجيزة ومتحف الآثار .  
 ومُلتقى السيارة من سائر الأقطار<sup>(١)</sup> . فدخلنا روضة تجرى الأنهار من  
 بينها . كأنها الجنة بعينها . ولما رأى الباشا مسالك الروض منضدة .  
 وطرقه مرصعة مزودة . حسبها أرضاً مفروشة . يبسط منقوشة .  
 وأشكل الأمر عليه . فهم بخلع نعليه . فقلت طريق معبد<sup>(٢)</sup> . لا فرش  
 منجد . وحصباء ومرزو<sup>(٣)</sup> . لا بساط وفرو . ثم شاهدنا قصرًا يكلُّ عنه  
 الطرف . ويقصر دونه الوصف . فسرتنا نرتاد خلاله . وتنفياً ظلاله . فاذا  
 الأسود مقصورات في المقاصير . والأسود مكفوفات في القوارير<sup>(٤)</sup> .  
 ورأينا النور . في الخدور . والرئال<sup>(٥)</sup> . في المجال . والذئب . في  
 القباب . والظباء . في الخباء . فقال الباشا لمن هذه الجنان . وكيف يسكنها  
 الحيوان . وما علمت من قبل أن الليوث الضواري . تسكن مغاني  
 الجواري . وأن أوابد<sup>(٦)</sup> البيد<sup>(٧)</sup> . تتحجب في خدور الغيد . فقلت له  
 سبحان القادر العظيم . هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم . طالما كانت حجراته  
 مطالع للاقمار . ودرجاته منازل للأقدار . كان إذا نادى صاحبه فيه  
 « يا غلام » . شققت أقوام وسعدت أقوام . ولبي نداءه البؤس والندى .

(١) السيارة ، القافلة وأصلها القوم يسيرون (٢) طريق معبد ، أى مذلل  
 (٣) المرو ، حجارة ييض رقق براقعة (٤) الاسود ، جمع أسود وهو العظيم من الحيات  
 (٥) الرئال ، جمع رأل وهو ولد العام (٦) الاوابد ، جمع أبدة وهي لوش  
 (٧) البيد ، جمع يداء وهي الغلاة

بأسرع من رجع الصدى . وكان من احتسى بظل هذا الجدار . تحامته  
غوائل الأزمان والأدهار . - هنا كان يفصل الأمر ويحكم . ويتقض  
الحكم ويبرم . - هنا كانت تنفرط فرائد القلائد . من أجياد الخرائد .  
فتختلط بمنثور أزهاره . وتُرصع أُجَيْنَ أنهاره . - هنا كانت تتناثر الحلى  
من قدود الحسان . قتشبه بأثمار الأغصان . - هنا كانت تصدح القيان  
على المزاهر والأعواد . فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد .  
فأصبح اليوم حديقة مبتدلة عامة . وموطنًا لأقدام الخاصة والعامة .  
وأصبحت أرضه تُكترى . وجنى أشجاره يُباع ويُشترى . ودوى  
فيه صياح النسور وزئير الأسود . وامتلات أرجاؤه بعواء الذئاب  
وهمهمة الفهود . وزال ما كان فيه من عزٍ وطول . ومجدٍ وصول .  
وأيدٍ وحول<sup>(١)</sup> . وَصَدَقَ الْكِتَابُ فَحَقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ :

في هذه الدارِ في هذا المكانِ على

هذا السريرِ رأيتُ الملكَ قد سقطاً

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر . ومليك ذلك العصر .  
من الجدد الصاعد . والبخت المساعد . وما صار اليه بعد ذلك من أفول  
السعد . وما دهاه في الغربة الى أن سكن الالحد :

نالوا قليلاً من اللذاتِ وارتحلوا

برغمهم فاذا النعماءُ بأساءِ

ثم وقف الباشا هُيَّيَّةَ فِكرٍ فيها واعتبر . وتلا : « ولقد جاءهم  
مِنَ الأنبياء ما فيه مُزْدَجَرٌ حَكْمَةٌ بِاللُّغَةِ فَمَا تُغْنِي النُّذْرُ »

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة . حتى انتهينا إلى دَارِ التحف العتيقة .  
فدخلنا نشاهد ما أبرزته يدُ البحث من الخفاء إلى الظهور . وما أعادته  
قوة التنقيب من البلى إلى النشور . وما صانته أُلحاد القبور . من يد الفناء  
والدثور . وجمعتُه أحشاء الرُّموس . من العفاء والدروس . وما أجنَّته أرحامُ  
المعابد والهياكل . من بقايا المواضي وخفايا الأوائل . وما انسدت عليه  
سُجوفُ الأحقاب . من ودائع الأسلاف للأعقاب . وما انشقت عنه  
الأرض من مكنون الدفائن . ومكنوز الخزائن . وعجائب الفن الدقيق .  
وبدائع الصنع الأنيق . بليت في اصطحابها جِدَّةُ الأيام والليالي . وانحنت  
على احتضانها ظهورُ المصور الخوالي . ومضت دول بعد دول . وذهبت  
أولٌ في إثر أول . واندثرت مدائنٌ ونشأت مدائن . وبادت مواطنٌ  
وقامت مواطن . وانقلبت الأغوارُ أنجادا . والأبحارُ أطوادا . وغدا  
العمارُ خرابا . والغمارُ سرابا (١) . والسرابُ غمارا . والخرابُ عمارا .  
وهي هي مصونٌ شكلها . كما تركها أهلها . لسانٌ صادق . وخبرٌ ناطق .  
تنطق بالعبر . وتحدث عن غبر :

مَصَّتْ غُبْرَاتُ العيشِ وَهِيَ غَوَابِرٌ (٢)

على الدهر مكتوبٌ عليها حبايسُ

(١) النار ، جمع غمر وهو معظم البحر

(٢) غبرات ، غبر الشيء بقبته . وغوابر ، جمع غابر وهو الباقي والماضي ضد

وأقنا هناك نتقل بين الأصنام والتماثيل . وتأمل في التصاوير  
والتهاويل <sup>(١)</sup> . وتفكر في هذه العظام المُنشّرة . والرُفاتِ المُنظّرة .  
بما عليها من الحلى والزينة . وتلك الأحجار الثمينة . كيف كانت ملوكاً  
للأمم . ثم بقيت على بلى الرمم . وتوالى القِدَم . في حال الوجود  
مع العدم

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العمام . مع فتى من الطرز المتخاذق  
المتعلم . ظهر لنا من أمرهما . وتبين من شكلهما . أن الرجل عين من  
أعيان المدينة . وأن الفتى ابن له وزينة . وإذا هما يتناظران ويتحاوران .  
فيما يريان ويُبصران . فدونا منهما وأصننا اليهما :

(الابن) — أشهدتَ مَشَاهِدَ عَزَّانَا، ورَأَيْتَ مَعَاهِدَ نَفَرْنَا، وعامت  
كيف كان مقدار مجدنا، وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا، فله  
درهم ما كان أرقام في الفكر وأبدعهم في العمل، ولو أن نوابغ الأمم  
اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة . ونزلوا إلى ميدان المناضلة والمناظرة . لَمَّا  
سبق المصريّ منهم سابق . ولا تعلق بأثره لاحق . ولكان له من بينهم  
الكعب الأعلى . والقِدْحُ المَعْلَى . وهذه الآثار في يده يفاضل بها  
ويفاخر . وينشد عليهم قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(الوالد) — ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تماجد بها وتفاخر

(١) التهاويل، زينة التصاوير والنقوش والحلى الواحد تهويل

يفوق ما يكون في السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة وما يتخرج  
عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية

(الابن) — كيف يكون منك هذا القول وهي بشهادة العالم  
أجمع أئمن من كل ثمين وأنفس من كل نفيس لا تقويم لها ولا تقدير  
إلا بالقناطير المنظرة من الذهب والفضة، وكيف غاب عنك تهافت  
هؤلاء الغريين أهل المدينة الحاضرة على اقتناء شيء منها بلل الجم  
تأنفسهم في التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الأسفار البعيدة، والمتاعب  
الشديدة، ولا يعقل وهممهم، أهل الهدى والعلم، أن يشتغلوا بباطل،  
أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل

(الوالد) — لكم دينكم ولي دين. وما أزال أكرر القول لك بأني  
لا أجد في نفسي شيئاً مما تشعرون به في هذا الباب. وما أراه من هذه  
الأحجار والتماثيل لا يساوى في نظري إلا أنقاض بيوت عفت، أو طولول  
درست، وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل لأنها أشخاص قديمة نزل بها  
السنخط والمسح، كان التعلق بها والتمجيد لها مما يغضب الخالق ولا يرضى  
المخلوق، وأما قولك إن فيها منتهى نخرنا ومجدنا لأنها من صنع آباؤنا  
وأجدادنا، وإن آباؤنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية فإنه  
لثم ونكر أستعيز بالله منه « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن  
يقولوا إلا كذباً » ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام .  
أهل الدين والاسلام . لا تفاخر إلا بما خرم . ولا تنتسب لنير أصلهم .

وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا فان صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار ويتفننون في تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقن صنعاً من هذه المحجبة في القصور المصونة في البلور (الابن) — عَلِمَ اللهُ لو كان في لغتنا العربية من الكتب المؤلفة-

في مزايا هذه الآثار مثل ما في اللغات الأجنبية لعلت منها ما لم تكن تعلم، على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات في حسن الصنعة والدقة، أفلا تنظر الى هذا التمثال البديع تمثال شيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز، فأدقّ الصنع وأتقن العمل وما أكمل الشبه وأجمل الصورة

(الوالد) — نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر. فدعني على غباوتي وجهلي وبارك الله لك في علمك وعقلك

(الابن) بصوت خفيّ — «واغفر لآبائي إنه كان من الضالين» — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلمّ بنا فقد حلّ الميعاد المضروب بيني وبين ذلك السائح الذي زارنا بالأمس لتناول العشاء معه في «أوتيل شبرد»

(الباشا للصديق) بعد انصرفهما — ماذا تقول في هذه المناقشة وما دار من الكلام بين الولد والوالد

(الصديق) — ما عساي أن أقول غير ما قاله الله عز وجلّ :

« نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً . » وماذا نرى هنا غير الذي رآه هذا الوالد الساذج . قبورٌ مقلوبة ، ورموسٌ معكوسة ، وأجدات منبوشة . فإن كان الغرض من عرضها العبرة او الموعدة فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط المملوك عن ذهب العرش . الى خشب النعش . ومن وسائد الحَبَر . الى مساند الحجر . ومن ظهور الصافنات الجياد . الى بطون الديدان في الأُكفان والأُخاد . نَعِمَ الموعدة الحاضرة للنظر والحس . والحكمة البالغة للعقل والنفس (الباشا) — هذه هي الحقيقة بعينها في نظري الآن . وقد كنتُ

أحسب أن لهذه الآثار شأنًا عظيمًا فيما مضى من دهري عند ما كنت أرى تَهافتَ الغربيين عليها في زمن الولاة السابقين ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغُّلها في البلى والقِدَم ومحلها من التاريخ وما تحمله منقوشًا عليها من أساطير الأولين

(الصدیق) — نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشياء قيمة عند الغربيين فانما هي كما تقول لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ ، وزد على ذلك حبهم للاقتناء ولوعهم بالاختصاص بالنادر ، ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم ، وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارا تفوق في القِدَم مثلها من بقية المتاحف . ولو أنك عرَضتَ أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استنادوا منها شيئاً ولا أفادوك عنها شيئاً ، ولما وجدوا لها قيمة تُذكر

سوى النزر اليسير من المقلدين للغريبين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة « الهير وغيلف » أعنى لغة آباؤهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية ، والله أعلم بمقدار علمه بها . ولو تمنيت الأمانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس . وياليت المصريين يخرجون عنها لاعليهم ولا لهم فانها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها فى خبايا الأرض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها الى المتحف ، وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً على متحف الجيزة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل ، فانها تُعدُّ بالملايين

(الباشا) — كنتُ أرى رأيك هذا وأتمنى أمينتك لولا أن يقال إن المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بعصر مزية أدبية لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف وشدة صنمهم بها فلا يرغبون ألبتة فى بيعها والتخلّى عنها ويرون فيها فخرهم ومجدهم ، فلا يليق بمصر أن تشدَّ عن هذا السبيل

(الصديق) — إن حرص أهل الممالك على ما فى متاحفهم من الآثار وتفاخرهم بها هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار وإشارة الى المجد القديم والعز التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار

عند المصريين وما هي إشارة المجد والشرف في هذه الرمم البالية رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين - ولأن الغربيين في غير حاجة الى قيمة أثمانها فهي عندهم من الكماليات . أما عندنا فالأمر بالعكس ولم تأت هذه الآثار من جهة الفتح والنصر ، وإنما جاءتنا من طريق النهب والحفر . والمصريون في حاجة الى المال لإيقاقه في ضروريات المعاش ، وقلما يمر عام الا ويكشف المكتشفون في مصر من هذه الآثار الشيء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة ، فما ضرَّ المصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد وعن تلك الأشباه المتعددة وانتفعوا بقيمة أثمانها في بعض شئونهم العامة ، ويبقى في المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفي للفخفة والمباهاة ومباراة الأمم في تشييد المتاحف ، وان كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوربا وأميركا بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم في الانحاء المختلفة من أقطارهم وأن يعضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتاعها من أيدي الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لا يجوز التخلي عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهي على ما تراه - ما لا يساع فانه يُتَّسَمُ - وجملة القول ان الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وخدم إماما بمشاهدتهم لها في ديارنا أو بانتقالها مسلوبة الى ديارهم . وأي عار على الأمة المصرية أن تتصرف في بعض الآثار المتشابهة التي تنبت لها الكهوف والتلال في كل يوم لتنتفع بأثمانها في ترقية شأن المعارف واث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية في

المطبعة الأميرية التي طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة في أيام  
الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم . وخبروني ناشدتم الله أيُّ  
نفع وفائدة للامة المصرية الإسلامية في أن تُنشر بين يديها رعم الفراعنة  
في الانتكخانة ، وتقبر أرواح العلماء والحكماء في الكتبخانة . وأيُّ  
الأمرينِ أعظمُ نفعاً وأكثرُ ربحاً أن يُعرض على أعيننا تمثال « لمببس »  
وصورة « إيزيس » وذراع « رعمسيس » ونخند « امينوفيس » أو أن  
تداول الأيدي كتابا للرازي ومقالة للفارابي وفصلاً لابن رشد ورسالة  
للجاحظ وقصيدة لابن الرومي . ما تجرى الأءور عندنا شهد الله الأ  
على التناقض وما تسير الأ على خلاف المصلحة

قال عيسى بن هشام - وجاء أوانُ الخروج فقمنا نسعى . لنلحق  
بأصحابنا في الملهى . ونشاهد ما يتم عليه حالهم . وينتهى إليه ما لهم

---

## العمدة في الطبهرى

قال عيسى بن هشام — وعُدنا الى المدينة وقد مدَّ الغروبُ حباته .  
ليقتنص من الأصيل غزالتَه . فطارت نفسها شعاعا<sup>(١)</sup> . واضمحل قرصها  
شعاعا . وجدَّت نافرةً الى كناسها . وهى تُصعدُ الشفقَ من أنفاسها . ثم  
اختفت شقائقُ الشفق . تحت أحكام الأفق . ولما أن اخضرَّ من الليل  
جانبه . وطرَّ شاربه . وتوقدت مصاييح السماء . فى قباب الظلماء .  
قصدنا دار التشخيص والتمثيل . وبيت التصوير والتخييل . فدخلنا مع  
الداخلين نساءً ورجالا . أجناساً وأشكالا . واخترنا جلوسنا الكراسى  
دون العُرف . لتيسر لنا المشاهدة من كل طرف . ثم جلسنا بمحدد النظر .  
فى مَنْ حضر . واذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزياءهم . واتفقت  
أذواقهم وأهواؤهم . وعلا ضجيجهم وصياحهم . وكثر لعبهم ومزاحهم .  
سباً وشتماً . ولكزاً ولكما . ثم يتمايل بعضهم على بعض . ويضربون  
بعضيهم وأرجلهم ظهر الأرض . رجلاً وغلماً . شيباً وولداً . متظاهرين  
بملل الاصطبار . ومطالبين برفع الستار . ثم حوّلنا النظر الى أعالي الشرف .  
وجوانب العُرف . فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر . تشفُّ  
عن لوامع اللآلىء والجواهر . فى نحور الحور . من مكنونات القصور .  
ويبضات الحدور . ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور . فهن  
يزحزن من الوشى والخبَر . ويكشفن عن الطُرر . تضىء بالغرر .

ضوء الليل تحت القمر . ويتراينَ تَرَائِي الكواكب والنجوم . من خلل  
السحب والغيوم :

وتنقبتُ بخفيفِ غيمٍ أبيضِ  
هي فيه بين تخفُّرٍ وتبرُّجِ  
. كتنفُّسِ الحناء في مِرآئِهَا  
كملتُ محاسنها ولم تنزوّجِ

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوقون . ويتشوقون ويتلهفون .  
لا تنثنى أبصارهم عن وجهها . ولا يحولون الوجوه عن قِيَمَتِهَا . فهم قائمون  
على عبادتها عاكفون . لا يتفكون عنها ولا هم يستنكفون . وهنَّ  
يُوالينَ الضحكات . ويُتالينَ الحركات . ويتبادلنَ معهم الغمز . ويتبادلون  
معهم الرمز . ويتراسلون بمرآوحٍ تُثير مكنون الهوى والغرام . وبشيرة  
بمناديلَ تغنى عن فصيح اللفظ والكلام . وقد خرقت الأصابعُ نسيجَ  
الأستار . لتنفذ منها رسل الأزهار . وتقابلتُ بينهم المناظير بالمناظير .  
تدني البعيد وتكبر الصغير . وكل فتى يرى أنه المرمرى دون سواه  
بالنظرات . وأنه المعنى بتلك الإشارات . فيتصنع التجميل والتظرف .  
ويتكلف التأنيق والتلطف . وفوق أعلى الشرفات أقوام وأبى أقوام .  
متزاحمين أكواما على أكوام . كأنهم في سوق من أسواق الأناعام . لا  
ينتهون فيه عن الشجار والخصام . وتفقدنا أصحابنا في أنحاء الملهى .  
فوجدناهم في غرفة والعاهرة في أخرى . وقد تزيت بزى الأجنيات

فبذت الحمار والإزار . وتبدت في القُبعة والزنار . وهي تغاز العمدة بعينها . وتشير اليه بيديها . والخليع يُكون تارةً في الغرفة عندها . وأخرى يظهر في غرفة بعدها . إلى أن دق الجرس بالدخول . وارتفع عن الملعب ستره المسدول . وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين . ما بين ملحنين ومرتلين . على طريقة يمجِّبها السمع . ويعافها الطبع . وبكلام مبهم . وألفاظ لا تفهم . كأنهم حُداة في مفازة<sup>(١)</sup> . أو سعاة في جنازة . وهم في أزياء متعاكسة . وأشكال غير متجانسة . وثياب تنافرت ألوانها . على أشخاص تباينت أوطانها . وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين . ثم انصرفوا عنا بعد حين . ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل . مزجج الحواجب مكتهل . مصبغ الخد والجبين . بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين . فأخذ يخطر ويتشى . ويهتف ويتغنى . وبجانبه امرأة نَصَف . تتمايل وتتعطف . لا تقل عنه شيئاً في باب التصبغ والتدهن . والتصنع والتلون . يقول لها في شكوى الغرام . وشرح الوجد بها والهيام :

« يا حبيبة الفؤاد . وغاية المراد . ما أطف هذا الشكل . فهياً بنا

نغتم الوصل »

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم . إذا ساعدتنا أمي نسيم .

فدبر أنت ما عليك . وها أنا ذاهبة لأرسلها اليك . »

ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم فتدخل عليه ،

وإذا هي عجوزٌ شوهاء ، وجلبانةٌ ورهاء<sup>(٢)</sup> ، فيتصل بينهما الكلام وينتهي

(١) المفازة ، الفلاة لا ماء فيها (٢) الجلبانة ، المهذارة السيئة الخلق ، والورهاء الخفاء

بالقبول والاتفاق، ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ،  
ثم يفرد متجولاً ينشد ويفنى مدة من الزمن ، ثم يذهب لسبيله .  
وتأتى الأم ومعها زوجها وإذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ولم تقده  
التجارب شيئاً فتمتثال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته في بيته  
فيمتنع وبتملل بقوله : « حقاً ان ذلك الشاب . هو ألح من الذباب . وهو  
عندى أفسق من الشياطين . وأخبت من البراذين . لا يترك من النساء  
الدون . ولا العجوز الحيزبون »

فتجيبه بقولها : « لا تخف أيها الزوج الأفضل . فاكل الطيور  
تؤكل . وابنتنا العاقلة الحلوة . لا يُخشى عليها منه في الاجتماع ولا في  
الخلوة . » ثم يطول الكلام بينهما وينتهي بقبول الوالد ما دبره له كيد  
الوالدة . ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيمتانقان ويتلاثمان وتقول له  
في حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الأنيق . على التيسير والتوفيق . فقد  
سهلت أذى لنا الطريق . ولم يبق أماننا الا استرضاء الخادمة . حتى تكون  
لاسرارنا كاتمة » فيجيبها : « نعم وان لم تطاوعنا فانها تصبح حزينه نادمة .  
لأنى أقسم يا بنت الكرام . بما بيننا من الحب والغرام . أننى أذيقها كأس  
الجمام . بحد هذا الصمصام . إن امتنعت عن تسهيل الأرب . بقبول ما في  
هذا الكيس من الذهب . » فتقول له : « آه يا حبيبي ما أطرب الجلوة .  
وما أطيب الخلوة . حيث نصبح في بحر النشوة . وهياً بنا أيها المهمام .  
فانى أسمع صوت أقدام . وعندى الآن أن أحسن طريقة . أن نتشقق

نسيم الصَّبَا في زوايا الحديقة . فيقول لها : « حُفِظت يا سيدتي ومولاتي .  
ومنبع حياتي ومماتي . فالآن قد بزغت شمس سعودى . وعَطَّرَ الأَكْوَانُ  
عَرَفُ نَدَى وَعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرُهما فيتداول الكلام بينهما مرة عن  
سرقة واحتيال . وخيانة واغتيال . وأخرى عن اجترام واقتراف .  
واختلاس واختطاف . ثم يعلو بينهم الضجيج ويصيحون بغناء كأنه  
ندب وعويل

وعلى هذا ينتهى الفصل الأول ويُرْخى عليه الستار ويمجدُ الحاضرون  
حينئذٍ في الصفير والتصفيق والتأوّه والشهيق كأنهم جميعاً في نوبة من  
الصرع أو المسّ . ثم انهم يتناثلون الى الخروج لشرب الخمر والتدخين  
ونقيم نحن جلوساً في مكاننا فيلتفت الى الباشا ويقول :

(الباشا) - لقد سئمتُ - عِلِمَ اللهُ - وملبتُ من منظر هذه  
المراقص والملاعب فما أشبه بعضها ببعض وما أجمعها لأشتات النقائص  
والرذائل على اختلاف أوضاعها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا المكان في أصل وضعه بمرقص  
ولا بملعب، هذا هو «التياترو» المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف  
والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسن الأخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن  
المنكر، وهو عندهم توأم الجرائد، هذه تعظ بالخبر، وهذا يعظ بالنظر،  
فيغرس في النفوس صورة الفضيلة مجسّمة للأبصار بما يعرضه على

الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان الغابرة أو الحاضرة ويفعل في النفوس مالا تفعله الرواية والخبر، وهي في بطون القصص والسير، فيمثل لك محاسن الفعال، ومحامد الخصال، وما تأتي به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك معها المصاعب، ونالتك المتاعب، ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصور فظاعة النقيصة وما يكون في عاقبتها من سوء وفي أثرها من المكروه وإن خلبتك بمنظرها ساعة وخذعتك بهرجها لحظة، فيجتمع لديك من الموعدة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح إن همت به ويردك إلى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك إلى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة إلى الشهود ومن القول إلى الفعل فتجذب نفسك إلى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة، وكرم ومروءة، وأمانة ووفاء، وسماحة وسجاجة، وصبر وحلم، وينفر طبيعتك عما تجمه الرذيلة من دناءة وجبن، وخيانة وغدر، وجهل وحمق، وفحش وفسق

(الباشا) - إن كان الأمر كما تقول فكيف تسمى للمصريين أن يقبلوا وضعه ويشينوا شكله ويحملوا هذا المكان على مثل حال الخان، فلا فرق عندي فيما أنظره هنا الآن وما رأيته في الخانات الأخرى من الرقص والعزف ومعاورة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يفرى به ويهيج من شهوات النفوس إليه. فإذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من ابواب الآداب وهم

يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد فان شره عندي أعظم من شر  
الملاعب والمراقص الأخرى، لأن الداخل اليه لا يرى على نفسه من لائمة  
يتقيها في دخوله ولا ينكر على أدبه منكر فيه ولا يخشى انتقاداً عنده  
فسترسل النفس في غيرها ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً ، بخلاف  
الحال في الداخل الى تلك الحانات فانه يدخلها وهو واثق بأنه قادم على ما  
يلام عليه ويماب ، فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه  
يوماً عن غيه وجهله . والإقدام على المحرم الصراح فيه من تأنيب النفس  
ما يزجر وينهى ، لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو  
الداهية الدهياء ، والمصيبة العامة فلا وازع من الخجل والحياء ، ولا زاجر  
من خوف الهلاك والعقاب

( عيسى بن هشام ) - لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على  
أن هذا الفن غير مفيد للآداب فقد قدمت لك أنه فن غربي ووصفته  
لك بمقدار ما وصل اليه من الإتقان لدى الغربيين وهو لا يزال هنا على  
حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون الى إتقانه وحسن وضعه  
وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو  
والخلاعة على ما ترى . وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه  
لا بد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا من السعى في ارتقائه وإتقانه وهم  
يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين  
له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم إنها تحرم أهل  
بلادها كل مساعدة من هذا القبيل

(الصديق) - قد سمعتُ مقالك وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المتعلقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً الى تأثير التربة والإقليم والى تركيب الغرائز والفِطْر والى العادة والعرف . ولا يتحتم أن ما يكون ذائع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم . والشواهدُ كثيرةٌ حجة على أن ما يكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً ، وأن ما يكون في لوندرة حميداً يكون في الخرطوم ذمياً ، وما يكون في رومية حقاً يكون في مكة باطلاً ، وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلاً . ولست أرى أن هذا الفن لو تمَّ لأصحابه ما يبتغونه من وفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به الى حد الإتيقان المطلوب ولا أن يكون له النفع المقصود في تربية الأخلاق وحسن الآداب لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق وأخص بالذكر منهم أهل الإسلام ، لا بل ربما كان منه الضرر البحث . ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار . ولا تخلو قصة من قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام ، وما من رواية لهم الا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها ، هو إن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً به لموافقة العادة عندهم ولكونه شيئاً لا عيب فيه يجهر به فتياهم وفتياتهم بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح به في عاداتهم ولا يدخلونه في أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ، ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر لا التجاهر به والتظاهر . ولقد جرى العشق في

بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعمار الفاضح ، وكان عند بعض قبائل العرب اذا اشهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعه عن الزواج بها لهذا السبب وربما رفعوا أمره الى السلطان إن شهَرَ بها في شعره فيهدر دمه . فهذا العشق الذي هو الركن الأكبر والسبب الأعظم في حصول الزواج عند الغربيين هو من أكبر الموانع في الزواج لدى الشرقيين . ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتي الآمن الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد . فتشخيص هذه الأقسام والروايات الغربية الموضوعه على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى ، ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقاً لأحوالهم وظروفهم جارياً على مقتضى عرفهم وتاريخهم ، وليس من المقبول عند حصول هذا التشهير والتمثيل في معيشة الأهل والولد وما تنسدل عليه الحجب والستور ، في البيوت والدور . وليس في الدين الإسلامي ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال في تأدية هذا الفن لانه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال ويأمرهن بغض البصر فضلاً عن طموحه . ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على أسلوب ينتدىء بالعشق والغناء . وماذا ترى في أبي جعفر عاشقاً وأبي مسلم مغنياً وأبي الفوارس راقصاً كما يجترىء عليه الآن أهل هذا الفن وذلك أكبر إهانة للأسلاف وأعظم خرف في التاريخ ، وإن أردت أن أكشفك بكل ما يجول في خاطري قلت لك إن هذا الفن الذي تعالی الغربيون في إتقانه وارتقائه لم يقدم أدنى فائدة في

باب الآداب ، وضرره بينهم اليوم ظاهر وتفعه غير بادٍ ، لأنّ المعول عليه عندهم في هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة وبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات الى حد المبالغة التي يذهب اليها خيال الشاعر ، فتوضيح الرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على أصحاب الرذائل في القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل مدرّجة الى تعمق صاحب الرذيلة في رذيلته واقتناعه فيها بتلك الوجوه المنوعة فلا يسبقه اليها سابق . وكم تدرب اللصوص ومهرة الأشقياء وبرّز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم وأخذوا عنها ما كان يُعجزهم ، ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب في خفايا الرذائل التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب في انتشارها ، ولذلك قالوا إن توضيح الجرائم التي من هذا القبيل في القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم اليها . وقد سئل الشارع الحكيم اليوناني عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه في شريعته فقال : « ما كنت لأتصور أن يونانيا في الوجود يُقدّم على قتل أبيه » فكان قوله هذا أنفَى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها . واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذي يلحق بأهل الشر منها

قال عيسى بن هشام - ودقّ الجرس وعاد الناس الى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظاً خطيباً

فأزال يَهْدِي في القول حتى سقط على الأرض يتخبط في قيئه ورجيعه،  
لا في دمه ونجيعه . ثم ارتفع الستار عن منظر غابة يدور فيها ذلك الفتى  
ويتغنى بفناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تلتفت وتتعرثر . ثم  
رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر  
والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مر الشكوى من الانصراف عنه  
في غنائه ، ثم إنه يعود الى ما كان فيه من الغناء ويأخذ بيد خليلته للهروب  
فيدخل والدُّها عليه في تلك الحال فيحول بينها وبين عشيقها ، فينبرى له  
الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريماً ، ويدركه قومه فيصوب الفتى  
عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون الى الفرار وتقع المرأة مغشياً عليها ويقع  
العاشق باكياً تحت أقدامها ، وعلى هذا يُسدل الستار وينتهي الفصل  
ويعود الناس الى مكان الشرب والتدخين ، فنتبع أثرهم ونجلس ناحية في  
بعض زوايا الحان . واذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرتِه جالسين جانبا أمام  
إحدى المنافذ وأمامهم الراح والكؤوس مترعة ، واذا برجل عابس الوجه  
بين الغلظة قد وقف أمامهم يقول للمرأة في كلامه : « أتظنين أن الهرب  
وخُذْف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسط المطلوب لي منك وأنا لا أزال  
اقتنى أترك منذ الصباح الى الساعة وتحملت في البحث عنك تعباً عظيماً ،  
والحمد لله اذ عثرت عليك في هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطيني  
مبلغ القسط أو تردّي الى هذه الحلى التي يتزين بها صدرك أمام عشاقك  
وخلانك ، ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها فيمنعه الخليع متوسطا بينهما  
ويقول له لبس هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك الحاكم . فلا

يرجع الرجل عن عزمه بل يقول « أنا لا أطلب بحق أمام المحاكم وأمامى  
مالى فى صدرها » ثم يمديه ثانية فتقبض العاهرة على حليها وتميل على العمدة  
تستغيث به وتستجير ، فتأخذ الحمية والنخوة فيدفع عنها الصائغ بيده فيقول  
له : « ان كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبك فالشهادة تقضى  
عليك بأن تدفع لى المبلغ من عندك لأن تدفعنى عن حقى بيدك » فيسأله العمدة  
عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيتها ،  
فينقد الصائغ الدراهم فى الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ، ثم يقدمها الى المرأة  
بيده والكأس بيد أخرى فتقبل حافة الكأس شكرآ له وحمدآ ، وينصرف  
الصائغ ضاحك السن قرير العين . ويعودون الى شربهم وحدثهم فيقترح  
العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان الى سواه وأنه يفضل الذهاب الى  
منزل صاحبه ، ويطلب من الخليلع أن ينظم له مجلسآ هناك فوق سطح  
المنزل فى ضوء القمر ، وبينما هم فى أخذٍ وردٍ اذا بصاحب الحان الذى  
تشتغل فيه المرأة واقفاً على رأسها واضعآ يديه فى خاصرتيه يبيكتها بقوله :  
« أهذا هو المرض الذى تعذرين به عن تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل ،  
وهذا هو المستشفى الذى تتعالجين فيه ، وأظن أن حضرة العمدة هو  
الطبيب الماهر فى هذا العصر الحاضر » ثم يجرها بيده لتذهب معه الى  
مباشرة الشغل فى الحان فيمسكها العمدة من أذياها ويقول له : « ما هذه  
الوقاحة وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيتها فى نظير تأخرها  
عن الشغل فى الحان ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها فى هذه

الليلة» فيقول له : « إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه الى فقد كذبت في دعواها وادّخرت الدراهم لنفسها فيما أن تردّ الى المبلغ وتعهدي بأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي وإما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذي لا يكفيني فيه دخل أطيانك » ويشدد بينهم اللجاج والخصام فتنبري إحدى الممثلات الجالسات في الحان من انتهى دورهن فتستصرخ البوليس لإخراجهم ، فيأتي البوليس ويصم أن يسوقهم الى « القسم » جميعاً . ونخرج وراءهم لاتباعهم ، فيأبى الباشا ذلك كل الإباء وينفر عنه كل النفور ، ويقول أنا لا أتوجه الى « القسم » لا شاكيًا ولا شاهدًا ولا مراقبًا ولا مستخبرًا ، فقد جرّبت ما يقع فيه . وكفاني ما علمته من ظواهره وخوافيه . وقد شعرت بسأم في النفس . وصداع في الرأس . فلنذهب الى البيت لنتمتع بشيء من الراحة . ونخلص من رؤيّة هذه الحرّمات المباحة . فأجيبه بالطاعة والالتقياد . وترك الصديق على ميعاد

## المدينة الغربية

قال عيسى بن هشام — وما وصلنا الى البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه . يحاول أن يشتفي بالرقاد من غمه وهمه . فتركته في غرفته . ورغبت في النوم كرجلته . وبيننا أنا غريق في المنام . أسبح في بحر الأحلام . اذ سمعت الباشا يناديني نداء متتاليا . فقامت اليه مسرعا وملييا . فأخبرني أن طول التفكير نفي عنه الرقاد . وأورثه الأرق والسهاد . وطلب مني أن نحبي الليلة بالسمر . وأن أقتلها معه بالسهر . فجلسنا تتجاذب أطراف الحديث . من قديم في الزمن وحديث . الى أن صارت الليلة في أخريات الشباب . فاستهانت بالإزار والنقاب . ثم دبّ المشيبُ في فودها <sup>(١)</sup> . وبان أثر الوضع في جلدها <sup>(٢)</sup> . فعبثت بالعقود والقلائد . من الجواهر والفرائد . ونزعت من صدرها كل منشور ومنظوم . من درر الكواكب والآلئ النجوم . وألقت بالفرقدين من أذنيها . وخلعت خواتيم الثريا من يديها . ثم انها مزقت جلبابها . وهتكت حجابها . وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء . ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء . وتردد آخر أنفاس البقاء . فسترها الفجر بملاءته الزرقاء . ودَرَجها الصبح في أرديته البيضاء . ثم قَبَرها في جوف الفضاء . وقامت عليها بنات هديل <sup>(٣)</sup> . نائمة بالتسجيع والترتيل . ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجتلاء . وتبدل النحيب بالغناء . لإشراق عروس النهار . وإسفار مليكة البدور والآفكار .

(١) الفود ، معظم شعر الرأس مما يلي الاذن (٢) الوضع ، يياض الصبح

(٣) بنات هديل ، الحائم

وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس . للوعد الذي كان  
ينتنا من أمس . فسألنا كيف أصبحنا . وهل نعمنا واسترحنا .  
فأخبرته بما كان . من اتصال السهر إلى الآن . وما كانت تجرى عليه  
المسامرة . وتدور به المذاكرة . وجمتها أن الباشا لا يزال يدهش مما  
يراه في رحلته . ولم يكن له أثر في أيام دولته . ويستخبرني عن سرعة  
هذا الانتقال . من حال إلى حال . وما الأسباب والعلل . في انتشار هذا  
الفساد والتحلل . فذكرت له بعض ما حضرني منها . وما عامته عنها .  
وإنك تخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح . وتجبرنا  
بما عندك من السبب الصحيح

( الصديق ) - السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدنية الغربية  
بفتة في البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معاشهم  
كالعميان لا يستنيرون يبحث ولا يأخذون بقياس ولا يتبصرون بحسن  
نظر ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع وتباين الأذواق  
واختلاف الأقاليم والعادات ، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف  
والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة ، وظنوا أن فيها السعادة  
والهناء وتوهّموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة ، وتركوا لذلك جميع ما كان  
لديهم من الأصول القوية ، والعادات السليمة ، والآداب الطاهرة ، ونبذوا  
ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهريا فانهدم الأساس ، ووهت الأركان ،  
وانقضّ البنيان ، وتقطعت بهم الأسباب فأصبحوا في الضلال يعمهون ،

وفي البهتان يتسكعون<sup>(١)</sup> واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدينة الغربية واستسلموا لحكم الأجنبي يرونه أمراً مقضياً وقضاء مرضياً ، وخرّبنا يوتنا بأيدينا ، وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب ، وإنّ بيننا وبينهم في المعاش لبعد المشرق من المغرب

(الباشا) - قد يكون ذلك ، ولكن لست أدري لأية علة أخذ

الشرقيون باطل المدينة الغربية وارتدوا بلباسها ولم يلتفتوا يوماً للرجوع الى سابق مدنيّتهم الصحيحة وعمرانهم القويم ، فهم أهل السبق في ذلك كله ، وعندهم أخذ الآخذون وقتل المقلدون في كل زمان ومكان

(الصديق) - لا أعلم لذلك من علة الا ما أعقب العزة السابقة من

البطر والأثر وما يتولد عنهما من طول التواني والتواكل وسوء التراخي والتخاذل ففعلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكثرثوا بمستقبلهم ، وقعدت بهم ههناهم عن مشقة التكليف التي كان يتباهى أسلافهم باحتمالها . ويتفاخرون بممارستها . وراق لهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدينة الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جدّ ولا كدّ ، فعظم مقدار أهل الغرب في أنظارهم وتوهّموا أنهم من طبقة عالية فوقهم نخضعوا وذلوا ، وقهرّ الغريون وغلبوا

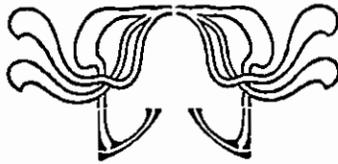
(الباشا) - ألا ليت شعري كيف يمكنني الوصول الى البحث والنظر

في أصول المدينة الغربية ظاهرها وباطنها وأن أقف على خافيتها وباديها في أرضها وديارها . ولكن بعدت الشقة وعزّ المطلب

(١) تسكع الرجل ، تمادى في الباطل

( عيسى بن هشام ) — لا تستبعد أيها الأمير حصول الفرض ونيل  
المطلب في يوم من الأيام فإنه لا يزال يدور في خاطري أن أرحل معك  
رحلة الى البلاد الفريرية نجتني منها ثمرات العلم والبحث ، فإن كان هذا  
العزم من غرضك أيضا فأنا أجهز له أمرنا  
( الصديق ) — وأنا إن شاء الله معكما

قال عيسى بن هشام — ثم قنا وقد عقدنا النية : على تحقيق هذه  
الأمنية . ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية . في المبدأ والنهاية



# الرحلة الثانية

obeikandi.com

## باريس

قال عيسى بن هشام — سبحان مَنْ لا تجرى الأمور الا بتقديره .  
ولا تنفذ العزمات الا بتيسيره . فقد يَسَّرَ اللهُ لنا الرحلة الى الديار  
الأوربية . لنشهد مظاهر المدنية الغربية . وبلَغْنَا من سفرنا المدى . فألقينا  
بباريس العِصَا . وشرَعْنَا نجوب منها الطرقات الجامعة . والساحات  
الواسعة . فلا القبائل تُدعى وشرَع . ولا الجيوش تُحشد وتُجمع . ولا  
الموتى وهم يُنشرون . ولا الخلق وهم يُحشرون . يُضاهى ما القوم فيه من  
ازدحام واتحام . واصطدام والتحام . متدققين في سيرهم تدفق السيل .  
تحت أضواء تحت آية الليل فلا ليل . يُخشى فيها على الأَبصار . أن تعشو  
من شدة الأنوار . وربما انخدعت بها الديكة فأخذت في الصباح . إيذانا  
بانبلاج الصباح

فإذا نظرت الى الشارع من العلو . لم تُبالِ بالعلو . لأن قلت بحر  
مسجور<sup>(١)</sup> . قام عليه شاطشان من نور . واذا أبصرتُه من أسفله . عند  
أولِهِ . قلت أسراب الدو<sup>(٢)</sup> . تصعد الى الجو . بين الكواكب الزهراء .  
من كرات الكهرباء . والبيوت عن حافته تُشرف جو السحاب . وتحاول  
أن تعلق من السماء بأسباب . فارعة بأسقة . متلاصقة متناسقة . كأنها في  
انتساقها سطور الخط . والأزهار على جدرانها شكّل ونقط . فأين منه  
ما بناه لفرعون هامان . وشاده جن سليمان لسليمان . ورقعه سمنار للنعمان .

(١) المسجور ، المرتفع الامواج (٢) الدو ، الفلاة

رأين شماريخ ثبير<sup>(١)</sup>. من سنام البعير . ومعارج الجبال . من مدارج النمال .  
لا بل أين البحر العباب . من لامع السراب . وأجرام الكواكب . من  
بيوت العناكب

وشاهدنا المارة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم . والمأزق  
المتراحم . من كل شيخ وكهل . وصبي وطفل . وفتى وفتاة . بين ركبان  
ومشاة . والألوف من صنوف العجل تحترق صنوف الناس . وتنفذ  
ينهم نفاذ السهام عن الأقواس . طائرة بقوة الكهرباء أو البخار أو  
الأفراس :

ولمالم يسابقهن شيء

من الحيوان سابقن الظلالاً

وكل سائر منهم في اضطراب المصفور . وتلفت القطا المذعور .  
إن خاتته لفتته . أدركته منيته . وإن عثرت قدمه . هريق دمه . وإن  
شمخ شامخ بأنفه . وقع في حتفه . فهم يلمسون شاكلي الطريق<sup>(٢)</sup> .  
كما يتلمس الشاطيء الغريق . والحوانيت على الجانبين متبرجة ببذائع  
البضائع . ونفائس الصنائع . تغوي الزاهد فيشتبهها . وتغري الشحيح  
فيشتريها . والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس . مشحونة بالجلوس . في يد  
كل واحد منهم كأس الصبء . وفي الأخرى جريدة المساء . ونحن في  
هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول . من هول الدهش والذهول .  
ونظير منا الألباب . من شدة الوجع والاضطراب :

(١) الشماريخ ، رؤوس الجبال ، ونبير جبل معروف (٢) الناكمة ، الناحية والجانب

في ساحةٍ لو أنْ لُقمانًا بها

وهو الحكيمُ لكان غيرَ حكيم

ومال بنا طلب الراحة . الى حانٍ في تلك الساحة . فلم نجد به مكانًا خاليًا من الزحام . فمكفنا مدة واقفين على الأقدام . وكدنا نذهب عنه آيسين . لولا أن تحرك بمض الجالسين . فذهبوا لشأنهم . وخلقناهم في مكانهم . وجلسنا في هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين . وأجناس المارين . فاذا عدد ربات الحجال . يربو على عدد الرجال . من كل ذات حسن وجمال . وتيه ودلال . وقدرة متأود . وخذية متوردة :

تختال في مقوف الأنوان

من فاقع وناصع وقان

وهن يرفلن في الوشئى . ويسرعن في المشئى . ويتبارين في رفع الفضول . من الأطراف والذبول . ويضربن الأرض بأرجلهن . ويحزحن ما استطعن من حملهن :

وييسمن عن دُرِّ تقلدن مثله

كأن التراقى وُشحت بالمباسم

وينشرن من الأريج والطيب . مثل نشر الزهر في الغصن الرطيب . ويرسلن سهام العيون . فيحركن سواكن الشجون . ويسلطن من اللحاظ القوائل . ما يدمى حبات القلوب الغوافل :

إشارة أفواهِ وعمزُ حواجب

وتكسيرُ أجنانٍ وكفٌ تسلم

وأصناف الباعة يكثرون من الغدوّ والرواح . ويهيجون في النداء  
والصياح . بمثل العوّاء والتبّاح . دائبين في الإلحاف والإلحاح  
ولما أفقنا هنيهة أخذ الباشا كعادته في السؤال .<sup>(١)</sup> يَسْتَجَلِي منا واقعة  
الحال . ويقول ما أشك في أن هذا اليوم يوم عيد . عند أهل هذا العالم  
الجديد . أو هم في نظري سكان مهاجرون . أو جند قافلون . انتهوا من  
حومة المنايا . بالفنّام والسبايا . فأقول له لا بل هي كما يصفها الواصفون .  
ويُعرّفها العارفون . تلك المدينة الفاضلة . أم المدينة الكاملة . مهبط  
العمران والحضارة . ومظهر الزينة والنضارة . وموطن العز والمجد .  
ومصدر النحس والسعد . بل هي تلك عندهم لرم ذات العمار . التي لم  
يُخلق مثلها في البلاد . لو رآها صاحب الإيوان . كسرى أنو شروان .  
لم يفخر على الدهر . بإيوان ولا قصر . ولحكّم بأن « المدائن » لديها  
سبب سبب قفر<sup>(٢)</sup> . ولو نظرها قيصر الرومان لأقسم أن رومية وهي عنده  
عاصمة الدنيا . قرية لديها من الطبقة الدنيا . مثل التي ذكرها في كشفه عن  
طمأ عيته . قبل ولايته . اذ قال : أفضّل أن أكون الأول في أدنى قرية .  
ولأكون الثاني في مدينة رومية . « ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان .  
لم يقل فيما دبر من الزمان : أحمد الله على نعم ثلاث يعجز عن حمدتها اللسان .  
ولا يقوم بحمدها شكران . أن خلقتني من نوع الإنسان . لا من نوع  
الحيوان . ومن جنس الرجال لا من جنس النساء ؛ ثم جعل نسبتي الى

(١) العاد العادة (٢) السبب المغاظة والارض البعيدة المدى

« أئينا » عاصمة اليونان . دون سائر البلدان . ولو اطلع عليها هاروت  
وماروت . لم يُمارياً في أن يابنَ عندها فلاة سُبُوت<sup>(١)</sup>

كجثة الخلد تَسْرُ مَنْ رَأَى

فَتَرَدْرِ «الْخُلْدَ» و«سُرَّ مَنْ رَأَى»<sup>(٢)</sup>

هذه هي اليوم بيت العلم والفضل . ودار السلام والعدل . ومعهد  
الحق والانصاف . ومهد الاتحاد والائتلاف . - هذه هي المدرسة التي  
يُشرق منها على العالم شمس الهدى والعرفان . ويتلقى الانسان عنها  
حقوق الانسان . ويعرف منها وجوه الخير والإحسان . ولكل إنسان  
وطن وهي لكل وطني وطن ثان . لولاها لم يدرك الانسان لنفسه من  
قَدْر . ولم يأمن في دياره من اغتيال أو غدر . فقد كَفَّتْ عن الناس  
عاديَاتِ المظالم . وكَفَّتْهم بائقات المغارم<sup>(٣)</sup> . وعَلَّمَتْهم كيف تُوقَى المكارم .  
وُجْتَنِبَ الأوزار والحارم . وكيف يعيش البشر في دار الشقاء . عيش  
السعادة والهناء . تحت ظل « الحرية » و« المساواة » و« الإخاء » . اذا  
ناداها المظلوم من أي جنس وأي قوم . أَجَابَتْهُ لِيَّيْكَ مات الظلم فلا  
ظلم اليوم

وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرقاد . ويواصلون السهاد .  
ويصرفون الحياة في الجد والعمل . ولا ينتهي بهم أمل الآلى الى أمل .  
فليس على همهم شيء بمحال . في كل حال . يذبيون بعزائمهم صلب

(١) السبوت ، القفر (٢) الخلد ، قصر المنصور ، وسر من رأى ، بلدة شهيرة قرب بغداد

(٣) البائقات ، جمع بائمة ، وهي الدامية

الحديد . وتلين لإشارتهم صم الجلاميد . وينذيبون الهواء . ويكتبون  
على الماء . ويفتلون الحبال . من الرمال . ويزيلون راسيات الجبال .  
برائشات النبال . وينضبون الدأماء .<sup>(١)</sup> يمتح الدلاء . ويمحون آية الليل  
فلا تبلغ فيهم أمدا . ويجعلون النهار دائماً عليهم سرمداً :

أوئلك الناس إن عُدوا بأجمعهم  
ومن سواهم فلفو غير معدود  
والفرق بين الورى جمعاً وبينهم  
كالفرق ما بين معدوم وموجود

أقول قولى هذا والباشا ينصت ويتأمل . و « الصديق » يتبرم  
ويتملل . فالتفت إليه استخبره الخبر . عن سبب هذا الضجر . فما  
أتمت عليه أحرف السؤال . حتى انهال علينا فى المقال . انهيال السيل  
من مشرف عال :

(الصديق) — تالله لقد سئنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات  
وتردادها على آذاننا فى وصف هذه الديار ، ونحن فى ديارنا ، السنين  
والأعوام . وأولى ما يوصف هذا الوصف للغائب عنها لا للحاضر فيها .  
وأنت رجل بحاث نبأ<sup>(٢)</sup> من دأبك استنباط الفوامض واستجلاء  
الدخائل ، وألزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجرداً عن مثل هذه  
الأوصاف والأخبار التى شحنت خيالنا زمناً طويلاً فنسأها ولا نذكرها  
ليكون حكمنا على المشاهدة والعيان خالياً من مقدمات سبقت على الغيب

(١) الدأماء ، البحر (٢) نبأ ، منب

ورسخت في أذهاننا بالخبر . وقد علمت أن ذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتحصيص ولا يباشرهما في الغالب الا مضطراً مقسوراً لما في التسليم المطلق والتصديق المعجل من راحة الفكر وسكون البال . وربما ارتسم في خياله أمر استحسنة بالخبر فيركن اليه ويردُّ كل ما يردُّ عليه من قبيله الى صحيفة الاستحسان والقبول في نفسه — والأذن تعشق قبل العين أحياناً — كما انه اذا هو استقبح أمراً كان الأمر على هذا القياس . ولذلك ترى العاشق يردُّ كل ما يصدر عن معشوقه الى الحسن وإن كان غير حسن في الواقع عند الفحص والتأمل ، للميل الأول والاستحسان السالف ، واستعداد لوح الرضا والقبول في نفسه لانتقاشه فيه ، ومن هنا جاء قولهم :

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلَةٌ

كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتاً من الشعر لم يكن يعرفه ولم تُسمِّ له قائله ربما استهجنه ولم يستماحه ، فاذا سميت له أبا تمام مثلاً أو أبا الطيب ارتد الى الاستحسان وأخذ يتمحل لقائل البيت عذراً إن كان في البيت ما يُستهجن حقيقة ، وما كان ذلك إلا لما اطمانت عليه نفسه وتعودته من القبول والاستحسان لكل ما يصدر

عن هذين الشاعرين

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والاقبال الذي

يناله الإنسان في دنياه ان صادف عمله في النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس ، ومعنى النحس والتعس والإدبار إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح ، والشاعر يقول :

إِذَا أُقْبِلَ الْإِنْسَانُ فِي الدَّهْرِ صُدِّقَتْ

أَحَادِيثُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ كَاذِبٌ

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسنِ القالة فيه . وقد عهدنا الغربيين عموماً وهؤلاء الفرنسيين خصوصاً لا يتصفح لهم كتاباً ولا نسمع منهم حديثاً إلا يتمجيد مدنيتهن ومباهاة الناس طرّاً بنظام معيشتهم ، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر ، وأن الهدى هداهم ، والضلال فيمن عدّاهم ، وأنه أوحى اليهم من سماء مدنيتهن أن يُخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، فإما الإيمان بها وإما الحسام . وقد ذاعت فينا دعوتهم ، وأعانهم منا على نشرها من أعانهم ، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر ، وصرفنا كل ما يأتونه الى وجوه الحكمة والصواب وبسطنا لهم صحيفة الاستحسان من النفس يرسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويعوّهون به علينا

فالرأى لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا ونظر اليوم الى الأمور في حقائقها ونحكم عليها بحسب قيمتها في ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم وسوّله الخيال في تقوسنا . ومعنا الباشا يتناز علينا والحمد لله بأنه كان بعيداً عن هذا العالم محتجبا عن هذه الدنيا الدهر الطويل ، فبقى

خالى الدهن مما شحن رءوسنا من هذه المدنية ، فحكمة اليوم على ما يشاهده بالعيان دون الخبر والرواية يكون أصح حكم ونظره أصدق نظر . وما علينا الا أن نشاركه في صحة النظر مجرد دين عن الهوى حتى نقف على كنه الحق والباطل في نظام هذه المدنية وقوفاً تاماً

( عيسى بن هشام ) - لك الله فيما تُبدئ وتعيد !! كأنك تريد

ان تخالف الإجماع وتقابل الناس بغير ما ألفوه فننتقد لهم ما هو خالٍ عندهم من كل انتقاد بعيد من الذم والعار فيرموننا بغلظة الطبع وجفاء الفهم وسخف الرأي ثم لا يفوتك أن كثيراً من ذوى رأى يرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تُقال وكل صحيح يُروى

أو ليس من صواب رأى حينئذ أن نسير على أسلوب الذين

سبقونا الى زيارة هذه البلاد فارجع على أهل الشرق باللائمة عليهم في انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم ، وأن نصِف ما القوم فيه من القوة والمنة ومظاهر العز والمعظمة في النعيم المقيم ، وأنا لا نزال راقيدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والخمول ، يقولون فنسمع ، ويأمرون فنصدع ، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر ، وينقصون من أرضنا فنحمد ، ويحتلون ديارنا فنقبل . أفلا أقل من أن نسهب في بيان الأسباب التي ارتقت بهم الى مرتبتهم في الوجود ونظب في شرح القواعد والأصول التي أسسوا عليها بنيانهم لنحذو حذوهم ونعمل على شاكلتهم . أوليس الأليق بنا أن نحض قومنا لينفضوا عنهم غبار الكسل ويخلصوا عنهم

لباس الخمول ويهبوا الى تقليد هؤلاء المجتهدين في أنواع الكلمات .  
أولست ترى من أفضل الأبواب في الحث والتحريض أن نفخم ما  
استطعنا في وصف هذه المدينة ونمظمها في أعينهم ونكبرها في صدرهم  
ونبكتهم بأحاديثها ونرفع من قدرها بقدر ما نخط من قدرنا ونعيرهم  
بالمقارنة ليكون الحث والتحريض على المباراة أشد ، والإشارة الى اللحاق  
بهم أبلغ ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه ولم يعيره بسبق غيره عليه  
أكنت تراه يجتهد في الأخذ ويجتهد في التحصيل

(الصديق) - لا يعزب عن فطنتك بادىء الأمر أن جل هؤلاء

الذين تحكى عن طريقته ممن زار هذه البلاد من أقوامنا وعادوا الى بلادهم  
فحدثوا عنها وكتبوا وقرروا وحكموا ، ينقسمون الى اقسام :

القسم الأول منهم : الطلبة الذين تلقوا في هذه البلاد دروسهم ،  
وهؤلاء لما هم فيه من غلواء الشباب والافتتان بكل رائع يغاب عليهم  
الأخذ بالظواهر ، ولا متسع تمتّ عندهم للبحث والفحص ودقة التمييز  
فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة وداخل تحت حكم الرذيلة عند النظر في  
معيشة أهل هذه المدينة الغربية ، بل هي تتجلى لهم في صورة معظمة  
فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة حتى اذا انقلبوا الى أهلهم رويوا لنا عنها  
مثل حديث المنعم عن معشوقه في أوقات نشوته ، وكان همهم أن يظهر  
عليهم أثر من آثار تلك المدينة العظيمة مما تخف مؤنثه وتهون تكاليفه  
ليحلقوا بأنفسهم شيئا من تلك العظمة التي بهرت خيالهم وبهروا بها  
أعين الناس . ولستنا من أهل هذه الطبقة

والقسم الثاني : جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواهما ، فهم لا ينظرون الى هذه المدينة الاً من وحه تطبيق العيان على الخبر . ومن بحث منهم فأنكشف له فيها عيب كره تغيير الرأى ومخالفة المعبود لما فيه من المشقة والكلفة . ثم أضف الى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعايب والتبسط فى الحكاية عنه من الفضل على السامعين والمستخبرين . ولسنا من هذا الصنف

والقسم الثالث : طائفة من أرباب الوظائف فى الحكومة يفرون الى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القيد ، ومنهم من تلقى دروسه فيها ، وحكمه حكم الذين ذكرناهم فى القسم الأول . وفيهم من لم يتعلم فى أوربا فهم يسرون على نهج المباراة للمتعلمين فيها سائرين على نخطهم ليلتحقوا بهم ويحشروا فى زمرتهم ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم ، وحكمهم حكم واحد أيضا ، على أنهم ليس عندهم جميعا من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه ، فان كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارته مشغول الفكر ، مقسم النظر ، بين أمرين : عين تنظر الى ما بقى فى صحيفة اجازته من الأيام ، وعين ترمق ما بقى فى كيسه من الدراهم . ولسنا من هذه الرتبة أيضا

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مولعون بالمبالغة فى الوصف والغلو فى القول ، ولا غرو فالناس لا يرون لهم فضلا فى الرواية والنقل ما لم يضيفوا اليها الكثير المفترى من عندهم . ولحكاية الغريب ورواية العجيب لذة

في نفس الراوى وحلاوة في أذن السامع ، على هذا دَرَج الخلق منذ خلق  
الله آدم الى اليوم ، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجن والعفاريت  
والأغوال والسعالى الى قصة « الف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة »  
و « خريدة العجائب » . وهناك قسم رابع ربما يخص ودقق ووقف وعلم  
ولكن له هوى خاصاً به يمنع من كشف الحقائق ويدفعه الى المبالغة  
على القصد والغلو على العمد فلا يروى ما يرويه عن هذه المدينة الا  
بالتشديد والتجيد باطلاً كان أم حقاً لينصر مذهباً له معيناً وغرضاً مضراً  
فيدأب يبتنا كالأجير للأجنبي يرفع لنا من شأن مدينته وقوة حضارته  
ليرتفع معه بارتقاه ويتسلط علينا بسلطانه وينتفع منه بتمكين جاهه فينا  
وقدرته علينا . وفي هذا القسم من يرى أن فى استيلاء المدينة الغربية  
على الشرق وتغييرها لقديم عاداته وأخلاقه انتصاراً لمذهب بعينه ، فهم  
فى إهادتهم بأمرها وتشيعهم لها وتبشيرهم بها كالمتشيعين لمذهب  
والمبشرين بدين .

فقد تبين لك إذن اننا لسنا بعمدودين فى قسم من هذه الأقسام ،  
وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا فى سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب  
والاعتراض والانتقاد ، وأن نتحدث عن هذه المدينة بما فيها من ضارٍ  
ونافع ومعوَج ومستقيم على المشاهدة فى منبت أرضها وتربة نشأتها .  
وأنا رجل أميل الى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يُروى ، فدعنا  
حينئذ من الغلو والإغراق واتركنا من التخيل فى النعت وتعمل الشعر  
فى الوصف ، وخذ بنا فيما عهدناه على أنفسنا . وقد آن أن نسأل الباشا

وهو ينظر الى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى ، عما وقع عليه من التأثير في نظره الأولى عن هذا العالم الحديث عنده وعن جملة ما حصل منه في نفسه

(الباشا) — ما أراني أُمَيَّرَ شيئاً فيما رأيته من هذا الخلق المزدحم وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق في هذا الدَّوَى المائل لدوَى الخُلايا وهذه الأضواء التي يتأذى منها البصر، وجملة ما أنا فيه الدهشة والخيرة ولعل هذا هو الذي يعنى من التمييز . وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة خالية من مثل هذا الزحام حتى نألف الديار وساكنيها

(عيسى بن هشام) — ليس ما توده من هذا القبيل بميسور لأن الزحام منتشر في جميع أرجاء المدينة . وهذه الحركة لا تنتهى الليل والنهار ولا جَرَمَ فإن عدد سكانها يُقدَّر ببضعة ملايين . ولك أن تقول فيها أنها جملة بلاد متجمعة متشابهة يمدونها مدينة واحدة

(الصديق) — وفي هذا من عظمة الملك ما لا يخفى على أحد !!

(الباشا) — إن كان الامر كذلك فلا بد لنا من مرشد يرشدنا وهاد يهدينا فنقف منه على ما يخفى علينا فيها وما يغمض من حقائق الأمور

(الصديق) — ما لإخالك واجداً لطلبتك ، فقلّ أن تجد في أهلها مَنْ لا يسلك السبيل المعروف في تشييد مجده وقومه ونشر مفاخرهم بما نحن في غنى عنه ، ولسنا نستفيد منه إلا كثرة اللغو وقلة المحصول

قال عيسى بن هشام — وجاء وقت الطعام ، فقمنا الى المطعم ، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة تبصّرنا أماننا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم . فأنصتنا اليهم نتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه ، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشّارة مخلوق اللحية والشارب ظاهر التكلف في زيه يتمّ شكله وحديثه على أنه أديب من كتاب العصر . وثانيهم رجل بدين منتفخ البطن أحمر اللون ينيثك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار . وثالثهم شيخ جميل المنظر في وقار السن ورزانة العلم ما يشك رائيه والسامع له في أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة . ولذّ لنا أن نجعل التفرغ لاستماع كلامهم سمرّ المائدة . فوجدناهم ينتقلون فيه من باب الى باب ومن شأن الى شأن ، حتى انتهى القول بهم في الأحوال الحاضرة الى حرب الصين فسمعنا « الكاتب » يقول وهو يضرب المائدة يديه والأرض برجليه :

(الكاتب) — لقد آن للمدينة أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود ، وأن تقوم بنشر الرسالة التي سخرنا أنفسنا لتبليغها الى الناس فنصلح من شأن الإنسان في أى مكان كان ونغرس فيه أصول المدنية ونأخذه بتعاليمها لنصل بالعالم الإنساني الى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة في هذه الحياة . وإلا فامزية جهادنا في فنون الترقى والتقدم والتسابق في العلوم والفنون ، وما فائدة هذا الاختراع والابتداع في أبواب الصناعات والآلات . فان كان المقصود من المدينة أن تتقن هذه الآلات الحربية ونعدّ هذه القوى العسكرية ليقتل بها بعضنا بعضاً

ونخرّب بيوتنا بأيدينا فبُست العلوم والفنون وبئس ماسخر ناله أنفسنا  
وأضعنا فيه أعمارنا إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية الى فظاعة الوحشية  
ولقد كان الواجب على دول الغرب وأُممه أن تتحد بعضها ببعض  
فتنصرف بكليتها وتندفع بجميع قواها التي شيدتها لها أفكار العلماء وذوى  
المعارف منا الى تهذيب بقية أهل هذا العالم المقيمين على الجهالة الى اليوم  
لتتزعجها من حضيض المهجبة الى مقام الرفعة الانسانية، فيحق لكل  
واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسدّ نقصانها  
(التاجر) — نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا، والآ فكيف يتسنى  
لنا تصريف بضاعتنا وترويج صناعتنا التي تقوم عليها معاشنا وتضيّق بها  
أرضنا اذا اجترأ أهل الصين على أن يقوموا في وجودنا ويعطلوا  
مصالحنا. وكيف نُجهد أفعالنا في العلوم ونشقى وتعمب وفي العالم أقوام  
نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لا ينتفعون بها ولا  
يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف  
أسرارها ورفع أستارها

(الحكيم) — ان كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التي تقوم  
على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل  
والإحسان وتوفر لهم أسباب السلم والأمن في السعة والرخاء، فلسنا منها  
في شيء ان كنا نأنظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود والتفنن  
في تشييد قوَى الحرب وإتفاق ثروة الامة في سبيل ذلك حتى تضيق

بنا الأرزاق في أرضنا فعمل على طلبها في أنحاء المسكونة ونُسلط على أهلها هذه القوى الحربية . ولسنا من المدنية في شيء أيضاً اذا كنا نعتبر انفسنا ملائكة الأرض وصفوة البشر وأرباب الخلق فنحترق بقية العالم ولا نرضى منهم الا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم وأن يفوضوا الينا أمورهم ويسلموا الينا مقاليدهم ونكون فوقهم كالأوصياء ، نصرهم الى ما نحب ونسوقهم الى ما نهوى . وليست المدنية أن نذهب الى الصينى في أقصى الأرض وهو آمن مطمئن بين أهله وولده في عيش يرتضيه ونظام يألفه فنقول له : قُمْ فقد جئناك بالهدى والحق ، فهلم فكسّرْ أصنامك واهدِمْ مناسكك واحرقْ كتابك وغير ثيابك وبدلْ طعامك وارفعْ حجابك وكنْ أورياً في الصين القديم ، وغريباً في الشرق الاقصى ، فاذا قال لنا : لست أفقهُ شيئاً مما تدعونى اليه ، ولا أدرى ما هذا الدين الذى تبلغوننى رسالته . قلنا له ليس هذا بدين ولا بمذهب وانما هى دعوة المدنية الغربية ندعوك اليها لتقرها وتلبس بها ، فيقول لنا : ان كانت لكم مدينة غربية فلنا مدينة شرقية أسسها فينا تجارب القرون المتراكمة وبقيت فينا نقيّة خالصة هذبها الدهور وأخلصتها يد الزمان ، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات الا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقيّ ، وأتم ان كنتم تؤرخون وجودكم في العالم بسبعة آلاف من السنين فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف ، وان كانت مدينتكم بنت قرن أو اثنين فان مدينتنا بنت عشرات القرون اصطالحنا عليها وألفناها وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور ، ومن دلائل المدنية الصحيحة أن

تعيش فيها بأمن وسلام لا يطمع أحد فيما ليس له ولا يُغير على حق للغير ،  
وقد علمت أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع في أرضكم ولم نُثرِ حرباً لفتح ،  
ومن دلائلها أنها لا تنتهي بأصحابها الى مفاصد الترف والنعيم فتضعف  
الأجسام ويقل النسل ، وقد علمت أن بلادنا هي أكثر البقاع سكاناً  
وأعظمها عمراً ، فنقول له : ما أضلّ أحلامكم يا معشر الصينيين ألم تعلموا  
بأن مدينتنا هي مدينة العالم كله لا سواها قامت على العلوم والمعارف  
واستوت على أساس متين كان ينشده الخلق منذ القدم فازالوا يتخبطون  
دون الوصول اليها حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأجبتنا لها فأخرجناها  
للناس هدى ورحمة ، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق اليها ليسعدوا بها  
مدى الحياة ، بهذا وصانا أئمة المدينة فينا ورجال الدعوة منا

ان كانت هذه هي المدينة التي تفاخر بها ونساجل فلا بدع أن يعتقد  
أهل الشرق أنها ليست الا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع  
وبلوغ المآرب

قال عيسى بن هشام - وتأتى غادة هيفاء تثنى بقوامها وتتكسر  
في مشيتها فتخاطب « الكاتب » بالعتاب لأنه أهملها في الانتظار وجلس  
للكلام والجدال ، وتسوقه أمامها بعصا المظلة ويتبعهما التاجر ، ويبقى  
الحكيم يرمي ثلاثهم بالنظر الشزر وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم  
ويلتفت الى « الصديق » فيقول لى : ما أغرب ما نرى من هذا  
الشيخ الفرنسى فما أصله في قول الحق وما أجرأه على الجهر بالصدق

وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصر به ونسترشد . فأرفع ببصرى الى الشيخ  
فاذا هو يرمى بنظره الينا ويستمع لحديثنا بالعربية ويظهر نحونا البشر ،  
فقابلته بابتسامة أخطب بها ودهُ ، فبادرنا بالحديث واتصل بيننا حبل  
الكلام ، فسألنا عن أمرنا ، وسألناه عن أمره ، فتبين لنا أنه رجل من  
أساتذة الفلسفة والحكمة ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله ،  
وكشفنا له حقيقة أمرنا والغرض الذي رمينا اليه ، فاتفق معنا على المخالطة  
والمصاحبة نحكى له عن الشرق ويحكى لنا على الغرب . ودعانا لزيارة المعرض  
العام معه فى الغد . فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد

---

## المعرص

قال عيسى بن هشام - وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأمم. وسوق الأقدار والهمم. ومشهد النفائس والعظائم. ومظهر القوى والعزائم. وحلبة الابتكار والابتداع. وميدان الإنشاء والاختراع. ومعرض التبصر والاهتداء. في حسن التقليد والاعتداء. ولهذا المعرض خمسون بابا. تختلف ابتعادا واقترابا. فيلغناه من ناحية الباب المعظم. والمدخل المقدم. فاذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم. تلامس بملوها الغمام. كأنها اليفاع<sup>(١)</sup>. في الاتساع والارتفاع. ينحدر من تحتها الجيش المترابك. فلا تماس فيه المناكب. وعلى كلا الجانبين سارية<sup>(٢)</sup>. تقارن السحب غادية وسارية. يدور في رأس كل واحدة منهما نبراس وأى نبراس. اذا اشتعل جعل نخمة الليل قبسا من الأقباس. فكلتاها علم في رأسه نار. يستوى عندهما الليل والنهار. ومن لصخر الخنساء. أن يأتتم بهما في ظلمة اليبداء. وهو الموثم به في آيات الرثاء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به

كأنه علم في رأسه نار

فهما عمودا فجر. لا عمودا صخر. يكتنفان تمثال غانية غيداء. قائمة على رأس تلك القبة السماء. وشيقة القد. بارزة النهد. مكمورة لفاء<sup>(٣)</sup>.

(١) اليفاع، النل المرتفع (٢) السارية، الاسطوانة والمامود

(٣) المكمورة، المدجة الخلق، والفاء المتلثة السابقين

مجدولة عجزاء. قد خلعت الأزار والوشاح . وتبدت في «قيص الصباح» .  
وهي تضمه يديها الى صدرها . خشية أن يحاول النسيم هتك سترها .  
اذا عارض وجهها القمر . علا وجهه الكدر . ثم بان فيه الكلف والنمش .  
فاحتجب بالغمام وانكش . وغارت منها الزهرة . غيرة الضرة من الضرة .  
فغارت في الدجون . وغابت عن العيون . لو قام نابغة بنى دُيان من قبره .  
لشهد أنها الذمية التي وصف بها المتجرّدة في شعره :

أَوْ ذُمِيَّةٌ مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٌ  
بُنِيَتْ بِأَجْرٍ يُشَادُّ وَقَرْمِدٍ <sup>(١)</sup>  
أَوْ دُرَّةٌ صَدَفِيَّةٌ غَوَاصَةٌ  
بِهَجٍّ مَتَى يَرَاهَا يُهْلٍ وَيَسْجِدُ  
لِوَأَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ <sup>(٢)</sup> رَاهِبٍ  
عَبَدَ الْإِلَهَةَ صَرُورَةَ مُتَعَبِّدٍ <sup>(٣)</sup>  
لَرَنَا لِرُؤْيَيْهَا وَحَسَنٍ قَوَامِهَا  
وَلِحَالِهِ رَشَدًا وَإِنْ لَمْ يَرشِدِ

فقد أقامها الصنّاع آية الفن في التصوير والتشكيل . وشاردة الشوارد  
في الرسم والتمثيل . يُخَيَّلُونَ بِهَا «فرنسا» في ترحيبها بالزائرين والقاصدين .  
تحميها للواردين على المعرض والوافدين . . والباب كله مرصع بحقائق من  
البلّور <sup>(٤)</sup> . إذا تلالاً فيها شعاع النور . خلتها أنوار الأزهار في أغصانها .

(١) القرمذ ، كل ما يظلي به  
(٢) الاشمط ، الذي خالط سواد شعره بياض  
(٣) الصرورة ، الذي لم يتزوج  
(٤) البلور ، بالضم لغة في البلور بالفتح

أو أذْيَالِ الطواويس في اختلاف ألوانها . بل قلائد منظومة من در  
وجوهر . وعقود ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر . لا بل فصوصاً منضدة  
من الماس . يترأى فيها طيف الشمس بالانعكاس

ولما تجاوزنا الباب انتهينا الى سهل رحيب . ووادي عثيب . نبئت  
أرضه بالقصور المنيفة . كما نبئت الروض بالأغصان الوريفة . تضل فيه  
الحداة . وتجار الهداة . ولا بدع فالمدينة في اتساعها قطر من الأقطار .  
وهذا المعرض في سرتها مصر من الأمصار . وما زلنا سائرنا على أرض  
ترهو فيها أغراس الجنان والبساتين . وأزهار الأغصان والياحين .  
يتخللها من الدمي والتمائيل . ما يعرب عن الدقيق من المعاني والجليل .  
فتكاد تبادرك بالخطاب . أو ترد عليك رجع الجواب . ولما امتلأت العين  
من هذه المحاسن الشائمة . وجنّ اللب من هاتيك المناظر الرائعة . التفت  
الى أصحابي أتلمس ما يجري في خواطرهم . وأتحسس ما يدور في ضمائرهم .  
فرايت الباشا يتأمل ويحدق . ويمعن ثم يطرق . وإذا هو يقول في همسه .  
وحديثه لنفسه . لله أبوهم ما أبعده شأوهم في التشديد . وأجل شأنهم في  
الإنشاء والتجديد . وما أسبقهم في الجِد والاجتهاد . الى التوسع وحب  
الازدياد . وما أشغلهم بما يكنى الانسان أقله وأدونه . ويكفل راحته  
أصغره وأهونه . ولو يقن ابن آدم أن القبر غايته . لم تحقق على القصور  
رايته . وكان همه بحفر القبر . أعظم من همه بتشديد القصر . فقامه  
هناك طويل . وبقاؤه هنا قليل . ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة في

الشرفات العسالية . لا تلبث أن تنتقل صفائح في القبور البالية . لم يعمل  
عمل المخلدن . وهو بين أظفار المنايا رهين :  
تَبْنِي الْمَنَازِلَ أَعْمَارٌ مَهْدَمَةٌ

من الزمان بأنفاسٍ وساعاتٍ

ووجدت « الصديق » في هذا الموقف على حال لا تتغير . وهيئة  
لا تتأثر . ينظر الى ما نستعظمه نظرة الفلاح الى قريته . والبدوى الى  
دِمتِه . لا يعجبه شيء ولا يزدهيه . مما تحار أحلام الورى فيه :

لا مَعْنَى بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا

كُلُّ عَجِيبٍ عِنْدَهُ بِعَجِيبٍ

الا أنه مع ذلك غير هادىء البال . ولا ساكن البلبال . كأنما هو  
يعفوس على معنى يَدِيقُ فى الفهم . ويبحث فى أمر يجل عن الوهم .  
ويستجمع لديه حواشى التفكير . ويلم أشتات التذكير . فاستخبرته عما  
يشغله . وسألته عما يذهله . فلم يسعف بالجواب ولم يُسعد . غير أن  
سمعتَه يترنم وينشد :

ما أَقَلَّ عَتَبَارَنَا بِالزَّمَانِ

وَأَشَدَّ اغْتِرَارَنَا بِالْأَمَانِ

وَقَفَاتٌ عَلَى غُرُورٍ وَإِقْدَانِ

مُ عَلَى مَزَلَقٍ مِنَ الْحَدَثَانِ

إِلْتِفَاتًا إِلَى الْقُرُونِ الْخَوَالِي

هَل تَرَى الْيَوْمَ غَيْرَ قَرْنٍ فَإِنْ

أين ربُّ السدير<sup>(١)</sup> فالخيرة اليِّ  
ضَاءُ أم أين صاحبُ الإيوان  
والسيوفُ الحدادُ من آلِ بَدْرِ  
والقنَا الصمُّ من بني الرِّيانِ  
يَكْرَعُونَ العُقَارَ في فِلَقِ الإِبِ  
رِيزِ كَرَعَ الظَّمَاءُ في المُدْرَانِ<sup>(٢)</sup>  
من أباةِ اللعنِ الذين يُحْيَوُ  
نَ بها في معاهدِ التيجانِ<sup>(٣)</sup>  
تَتَرَاءَهُمُ الوفودُ بَعْدًا  
ضارِبِينَ الصُّدُورَ للأَذْقَانِ  
في رياضٍ من السَّاحِ حَوَالِ  
وجبالٍ من المَلُومِ رِزَانِ  
وَهُمُ المَاءُ لَذًّا للعطشا  
نِ بَرْدًا والنَّارُ للحَيْرَانِ  
ما تَنَّتْ عَنْهُمْ المُنُونُ يَدُ شَوِ  
كاهِ أطرافها من المُرَّانِ<sup>(٤)</sup>  
عَطَفَ الدهرُ فرعهم فرآه  
بَعْدَ بَعْدِ الذُّرَا قَرِيبَ المَجَانِي

(١) نصران معروفان (٢) الفلق، جمع فلفة بالكسر وهي القطعة  
(٣) أباة اللعن، الملوك الذين يخاطبون بأبيات اللعن (٤) المران، الرماح

وَمَنْتَهُمْ بَعْدَ الْجَمَاحِ الْمَنَيا  
فِي عَنانِ التَّسليمِ وَالإِذعانِ  
لِيسَ يَبْقَى عَلى الزَّمانِ جَرى  
فِي إِباهٍ أَوْ عاجِزٍ فِي هَوانِ

ورأيت الشيخ «الحكيم» يهز كتفيه . وينظر في عطفه . ويقول  
في التفاته الينا . وانطافه علينا . ما أشبه الأواخر بالأوائل . في التفاخر  
بالباطل الزائل . لا يظن ظاناً ان كل ما براه من هذا المشهد الفخم .  
ويستعظمه من البناء الضخم . بما أنفق عليه من الأموال الطائلة . وما  
اقتضاه من المشاق الهائلة . سيدوم السنين والأعوام على الدهر . وانما  
يُمدُّ بقاؤه باليوم والشهر . وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران .  
الآهذان القصران . وأشار بيده الى قصرين متقابلين . كأنهما في  
ارتفاعهما ذروتا جبلين . وهنا أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم . وأنا أنقل  
له وأترجم :

(الباشا) — وما مقدار الأموال التي أنفقت في تشييد هذا

المعرض؟

(الحكيم) — اشتركت الحكومة في الاتفاق عليه بمشرين

مليوناً من الفرنكات وبلدية باريس بمشرين مليوناً وتألقت جمعية

اشتركت فيه بستين مليوناً أصدرت بها خمسة وستين مليوناً من التذاكر

لأيدي الناس تحت ضمانه البنك العقارى

(الباشا) - وما الغرض منه؟

(الحكيم) - الأصل فيه الكسب والريج. والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يُظهر مقدار المسافة التي تقطعها الأمة من حين لآخر في باب الإجابة والإتقان ليتضاعف الجِد والاجتهاد وتتسابق المهتم في أسباب التقدم والارتقاء في مدارج المدنية

(الباشا) - وهل تظنه يأتي بريج عظيم؟

(الحكيم) - كان أمل الريج منه عظيماً، ولكن خاب الظن فيه فان الشركة قدّرت عدد الزائرين والمترددين عليه بخمسة وستين مليوناً في مدة وجوده وهي مائتان وأربعة أيام، ولكن لم يتردد عليه الى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها. وقد بلغ عدد الشركات التي اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة الى اليوم. وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شركة « شارع القاهرة » ورأيتهم يبيعون « معروضاتها » وأثاثها بحكم المحكمة في ناحية من نواحي المعرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكاناً فسيحاً جمعت فيه ما يكون في شوارع مدينتكم من لعب القُرود، وألبسة الثعابين، ورقص الزنوج، وتسريح الجمال، وسوق الحمير، فرأيت الجمال وهي ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكاً وبيع الحمير من الأربعين حملاً بتسعة عشر فرنكاً. وكان من ينظر الى هذه الدواب وهي تُعرض للبيع بهذه الأثمان في غير بلادها يتخيل من أعينها كأنها تندب نحس طالعها ونحس قيمتها في غربتها، ولا تسأل عن سوء الحال

التي كان عليها النساء والرجال المصاحبون لهذه الحيوانات ، وقد تداركهم  
« مأمور التفليسة » فخصص لهم مقدارا من الدراهم يُنفق عليهم لإعادتهم  
الى وطنهم . وعلى الجملة فالخسارة في هذا المرض عظيمة وأرى أنهم  
أخطأوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورة  
الواحدة فيه الا بقطع مسافة لا تقلّ عن عشرة كيلو مترات ، فوزعوه  
وشتوه مع قلة الزائرين والواردين ، ولو أنهم اختصروا فيه لكان  
خيرا لهم

(الصديق) - أهذه الشركة التي تذكرها في كلامك هي « شركة  
المعرض المصرى » الذى سمعنا به

(الحكيم) - لا ولكنها شركة أخرى فرنسية ، وليس من  
الضرورى أن يكون أصحاب الشركة من أبناء مصر

(الباشا) - ولماذا لم تقدرُوا في هذا المعرض حسابكم بما لكم في  
مختلف الأمور من الدقة وصحة النظر ؟

(الحكيم) - كانوا يحسبون ان أم العالم ستهرع اليه من كل فج ،  
وكانوا يعتقدون ان أكثر ملوكها يندون على المعرض فينفقون فيه  
خزائن أموالهم ودفائن كنوزهم فلم يحضره إلا ملك السويد من ملوك  
الغرب ، ولم يزره إلا شاه العجم من ملوك الشرق ، وكانوا قد دعوا اليه  
ستا وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يُجيبهم سوى ثلاثين منها

قال عيسى بن هشام - وكنا وصلنا في هذه الأثناء الى باب أحد

القصرين المشار اليهما بالبنان المعدودين لعرض ما يسمونه بالفنون الجميلة وهو المعروف بالقصر الصغير ، فعولنا على البدء بزيارته . فدخلناه فاذا هو ببناؤه وتشيدده وزينته وزخرفه ونقشه ورسمه يفوق كثيرًا من قصور الملوك والقيصرة . وناهيك أنهم أنفقوا في إقامته اثني عشر مليوناً من الفرنكات . وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حُفِظَ عن الأوائل منذ العصر الروماني الى القرن الثامن عشر من قطعة المعدن المضروبة الى تقوش أبواب الكنائس ، ومن أواني الفخار الى الحلبي والجواهر ، ومن النعل المطرزة الى التاج المرصع . وهنا يعجز القلم عن الوصف والتمت ، والأحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتي من طريق الخبر والنقل بل من جهة المشاهدة والعيان ، ولا يمكن أن يتجلى أثرها في نفس القارئ مثل أثرها في نفس الرائي . ولما فرغنا من دورتنا الأولى في القصر استوقف الصديقُ الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورآى من الطرَف :

( الباشا ) - ما أرى الا كثيراً مما كان يوجد عندنا بعضه في الأسواق القديمة وبعضه في البيوت العظيمة

( الحكيم ) - اعدوا أن ماترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة في العالم لا تتناول كنهها الظنون . مثال ذلك أن هذه الساعة التي بجانبنا ، ولم تلتفتوا اليها في وقوفكم عندها ، قد رغب في شرائها بعض الأغنياء فساومها بثلاثة ملايين فرنك فلم يسمع صاحبها بالبيع لقلّة الثمن

وما هي إلا كرة محمولة على أيدي ثلاثة هياكل من الرخام . ولكن  
دقة الصنعة وقِدَمُ العهد أورتاها هذه القيمة العجيبة في الثمن

( الصديق ) - حقاً إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة

جسنة من حسنات أهل الغرب يُعَبِّطون عليها ، فإن النظر إليها يورث  
إحساساً جليلاً في النفس وذكرًا جميلاً بمجد الأُم الفابرة ودرساً مفيداً  
في التاريخ ، كما أن في ذلك من حفظ السلسلة في الصناعات ما يفيد الفكر  
ويساعد على الترقى في العمل . وقد أهمل أهل الشرق هذا الباب إهمالاً  
لا يُغتفر لهم حتى اندثرت المآثر واندرست ولم نعدْ نعلم من كيفيات  
المعاش عند المتقدمين الا الأسماء التي غابت عنا مُسمياتها . وقل لي بالله  
أى شيء يكون اليوم أجمل في العين نظراً وأجمل في القلب وقماً لو حفظنا  
ما ضيَّعه التفريط مثلاً من « دِرَّةِ عمر » و « صمصامة معدى كرب »  
و « قيص عثمان » و « درع علي » و « تاج الرشيد » و « راية المعز » .  
ولكنني أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد وتغالوا في هذا الباب  
غُلُوًّا كبيراً ، وذهب بهم حب التنافس في اقتناء العتيق مذهباً يلامون  
عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان هذه المقتنيات التي لولاها لكانت  
من قسمة الأرزاق بين العباد ، وكم في هذا العالم المتمدن من الألواف  
الذين لا يجد أحدهم فرنكا واحداً لقوت يومه بينما نرى أحد المولعين  
بالمقتنيات يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام

( الحكيم ) - نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالاة

لمجرد التباهي والتفاخر مع حرمان الناس من أرزاقهم ، ولكن ليس

عندنا من الوقت الآن ما يكفينا لبسط القول في نصرة المذهب  
الاشتراكي

قال عيسى بن هشام — وأدر كُنَّا التعبُ والكلال . وان لم يكن  
يدركنا السأمُ والمَلال . واحتاج الجسم الى الراحة والسكون . فغادرنَا  
القصر . وفي النفس منه بلابلُ وشجون

## القصر الكبير

قال عيسى بن هشام -وزرنا القصر الكبير . بعد القصر الصغير .  
أعنى الآية الكبرى . بعد المعجزة الصغرى . ناطقة بما لا يتصور من  
جمال الوضع . وحسن الصنع . فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز  
التي لم تجتمع لأحد من قبل . ولم يظفر بمثلها ملك في الدهر ولا قيل .  
ما كنوز قارونَ عندها الآمن التراب والحصى . ولا قرط « مارية » الآ  
من الخرز أو النوى . وما طوق « عمرو » . الأ طوق أسر . وما أسلابُ  
الاسكندر لديها الآمن أطمار « المجاذيب » و « الأ ولياء » . ولا وشىُ  
« داراً » الآمن فراء « العرفاء » والفقهاء . وما أعلام البلغاء . الا مغازل  
النساء . اذا هي حاولت في وصفها تسطيرا . ورامت لنعها تحجيرا .  
وماذا تقول في خزائن المسكونة تسكن في دارين . وأفلاذ البسيطة  
مبسوطة بين جدارين . لو توزع بعض ما اخترناه على الخلق . لم يكده  
أحد بعدها في طلب الرزق . ولم يشك شاك من عيش الحرمان . ولم  
يبك بك من بؤس الزمان . ولا صبح المحروم بين الورى غنياً . وغدا  
اسم الفقر في الدنيا خبراً مطويماً . وآساوى الناس في الرتبة والقدر . ولم  
يسلكوا فيما بينهم سبل الختل والغدر . نعم ولم يُمرسالب على مسلوب .  
ولم يفتك غالب بمغلوب . ولم تُتترف في العيش المآثم والذنوب . ولم  
يبقى للنفوس في الدنيا من مُستهى ولا مطلوب . فالقصران قائمان يفخران  
على الدهر . بما ليس له به عهد من الثراء والوفر . وسرنا في أنحاء العرف

تأمل التحف والطرف . ومن أبداع ما اجتلاه النظر . بين تلك الدرر  
والغرر . معرض التماثيل والصور . فكم هناك من صورٍ برأها الإتقانُ  
والإحكام . تمثل للعقول والأفهام . مالا يمثله تأليف الكلام . وتشخصُ  
لك حوادث التاريخ ومناظره . كأنك كنت حاضرةً وناظره . ويوضح  
لك قلم الرسم والتصوير . ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير . من مكنون  
الأهواء والأشجان . بلفظ مبين من النقوش والألوان :

أراك المني فتمنيها

وصاغ لك الطيف حتى انبرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صدأ الحس . ويرقق حواشي النفس .  
فتولاك هزة الطرب لرؤيتها . وتعتريك نفحة السحر من هيئتها .  
فكادتني للفارس المقتول . وتعطف على الواله المتبول . فترحم على قتيل  
الرمح والحسام . كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام . وتستيبك الفتاة  
الحسنة . والكاعب العذراء . فتصبر الى محبتها . وتطمع في مودتها .  
لولا عيون الرقباء من أهلها . وهم ضاربون من حولها

وترى هناك صورة غادة باهرة الخاق . عريقة الحسن والعنق .<sup>(١)</sup>  
يتأق على وجهها نور العفاف والسيانة . ويبدو على محياها خصال الرزانة  
والرَّكَّانة<sup>(٢)</sup> . مع قوة الشكيمة . وثبات العزيمة . قد وطئت تحت أقدامها  
غولاً من الأغوال . لها مائة فم للنهش والاغتيال . وطعمتها بالرمح في  
أحشائها . فأوردتها مورِدَ فئتها . وعلى رأس الغادة فوجٌ من ملائكة النصر .

يُتَوَجَّوْنَهَا تاج العز والفخر . - وتلك هي صورة «الفضيلة» . في مصارعها  
« للرزيلة » . وعن يمينها حرّةٌ بارعة الجمال . بادية المهابة والجلال . ترمقها  
بعين المستبشر بظفر حزبه . والمقنط بنبيل سوّله وإرّبه . - وتلك هي  
« الحكمة » التي لا تُنال الفضيلة الآبها . ولا تُدرّك إلا بخالصها ولبابها .  
وعن شمالها حرّةٌ أُخرى يتلألأ في غرتها نور المعرفة واليقين . وقوة  
الادراك والتمكين . تحمل على كتفها طفلاً في سن الرضاع . وتُمسكه في  
يده شبه القلم أو اليراع . وهي تنظر الى «الفضيلة» نظر التوقير والتعظيم .  
في موقف التبجيل والتكريم . - وتلك صورة « العلم » وفضله . وذلك  
الطفل صورة الإنسان في جهله

وترى امرأةً نَصَفًا وضمت على كل ثدى لها طفلاً ترضعه وتغضمه .  
وكأنها تقبله وتشمه . ومِنْ حَوْلِهَا أطفال عراة تجذبهم الى حبرها .  
وتسترهم بفضل إزارها . وعلى مُجَيَّاهَا سِمَاتُ الغبطة والارتياح . وعلامات  
الرضا والانشراح . فيكاد يلوح فيها ما طَوَّته يد الزمان . من براعة الحسن  
والافتتان . - وتلك صورة « الخير والإحسان »

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولاثة . وخريدة من أبهى الخرائث .  
كأنها المهابة في المخائل . والظبية في الشمائل . يطول شعرُها فضلَ الإزار .  
ويريك الليل في وَصَحِ النهار :

بفَرَجٍ يُعِيدُ اللَّيْلَ وَالصَّبْحُ نَيْرٌ

ووجهٌ يُعِيدُ الصَّبْحَ وَاللَّيْلُ مَظْلَمٌ

تبدت في ملتف غابة أغصانها من العود والند . وأغراسها من  
البنفسج والورد . فالأرض مفروشة بمشور الأزهار . والسقف معروشة  
من أغصان الأشجار :

فهي تحتال في زبرجدة خض

راء تُغذى بلؤلؤ مشور

وغدت كل ربوة تشتهي الرقـ

ص بثوب من النبات قصير

وقد ثرت الشمس عليها مثل نثار العرائس . بدنانير تُعِي أيدي

اللوامس . كما عِي المتنبئ بمثلها . من قبلها . وهو يجتاز شعب بوان .

ويصف فيه التفاف الأغصان :

فميرتُ وقد حَجَبْنَ الحَرَ عنى

وجئن من الضياء بما كفانى

وألقى الشرقُ منها في ثيابى

دنانيراً تفرُّ من البنانِ

والأطيار واقفة من حولها على هيئة التفريد . وترديد النشيد .

كأنها تجاوب الفتاة في سؤالها . عن أوبة خيلها . بأن لكل حمامة منا

شوقا ينازعها . الى إلف يضيئها . فيشتد بالفتاة الروع والهيام . وتشارك

في الهديل مع الحمام . — وتلك هي « الطبيعة » في جمال الفطرة .

وجلال القدرة

وترى «هُوميرُوس» آدم الشعر اليونانى وهو أعمى البصر . متلفعاً  
بالوشى والخبر . تضىء لحيته بنور المشيب . ويملاً العينَ بالمنظر المهيب .  
متربعاً على سرير الملكِ مُلكِ الأشعار . لا مُلك الأقطار . وسلطانِ  
الأوزان . لا سلطان البلدان . وشعراء الجن يكلمونه بأكليل الانتصار .  
وشعراء الإنس بين يديه فى موقف الإِعظام والإِكبار . من «هبرنوز»  
و «إسكيل» . و «هوراس» و «فيرجيل» . وعن يمينه أبطال الشجعان .  
وفرسان الزمان . ممن رَوَى الشعر أنباءهم . وخَلَدَ النظمُ أسماءهم .  
وهم على سمة الخضوع . وهيئة الخشوع . من «أشيل» و «اسكندر» .  
و «إينيه» و «قيصر» . وعند رأسه كعبان . كأنهما اللؤلؤ والمرجان .  
متفتتان فى جمال الوجه والجسم . وإن اختلفتا فى الشكل والرسم . هما  
الفنان اللذان ابتكرهما فى الشعر . منذ شبابة الدهر . والشعراء فى  
وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما . وينعمون بقربهما . والقيانُ من حولهما  
صفوف . يضربن بالمزاهر والدفوف . ويوقعن النغم واللحن . على ذلك  
النظم والوزن

ومنَّ لنا بهذا الشاعر وأمثاله من الأولين الأقدمين . والسابقين  
المقدّمين : يصورون بأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الالواح  
والمهارق . فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق  
ولما افقنا قليلاً من نشوة الإعجاب والازدهاء . واقتربت زيارتنا من  
الانتهاء . اذا نحن برجل أمامنا رث الثياب . خلق الجلباب . كأنه المعنى  
بقول القائل . من شعراء الأوائل :

أخو سفرٍ جوابُ أرضٍ تقاذفت  
به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبرُ

وقد اختلط شعر جبهته. بشعر لحيته. فاختلفت بينهما مقاطعة وملاحة.  
وغمضت أساريه ولوائحه. ونحل جسمه نحول الشاة بالأجاذب (١).  
وطالت أظفاره فتقوتت كالمخالب. واختزن فيها الوسخ فصارت  
كالمسكاحل علقته بها المرآود. أو كخطوط الحداد على صفحات الجرائد.  
وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة الزدري المحتقر. ويذهب بنفسه  
ذهاب المبتدع المبتكر. والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام. ويواجهونه  
بالإكرام. فالتفت الباشا الى صاحبنا « الحكيم » يستخبره عن هذه  
الكتلة من الدامة. والكومة من القمامة. وكيف راق لهم الجمع بين هذه  
المنظر الحسان. وبين منظر هذا الشيطان. فاشتبك بينهما الخطاب.  
وأخذت أترجم لهما في السؤال والجواب :

(الباشا) - أفا كان ينبغي منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه  
الاماكن النفيسة ليحفظوا لها رونقها واثلا يضيعوا بهجتها في نفوس  
الزائرين. ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال

(الحكيم) - هذا الرجل هو من كبار المصورين الذي نفتخر  
على العالم بصنع أيديهم مما ابتهج به نظرك في هذا القصر الذي  
أقيم لتفخيم هذه الصناعة وأنفق على تشييده أربعة وعشرون مليوناً من

الفرنكات ، ولا تعجب من تفاوت المنظرين فالذهب من التراب  
والماس من الفحم

(الباشا) - وكيف جاز لكم أن تتركوم على مثل هذه الحالة من  
الفاقة وشظف العيش وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم وينقذهم من هذه  
الرئاسة التي يرئى لها الناظر. وان كانت هذه الصناعة لا تدر الرزق على  
أربابها فإلم هذا التشييد لها وشدة العناية بها

(الحكيم) - ان هؤلاء الذين تعطف عليهم هم ينننا أوسع الناس  
رزقاً وأكثرهم بضاعة رائجة ، واللوح الواحد من صنعتهم يُقدر بالئات  
من الألوفاً وبالملايين ، وليست هيئتهم هذه عن حاجة أو فاقة وانما  
هى ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم ، وعذرهم فيها أن أرباب  
الأعمال الدقيقة التي يفوس فيها الفكر وتجدد القريحة ويتوزع لها الدهن  
فى عالم الخيال قل أن تتوازن فيهم قووى الدماغ ، فماتمو قوة الأ  
بضعف أخرى، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصرهم عن النظر فى  
نظام اللبس والمطم ولا يميزون فى الميشة الطيب من الخيىث فتختل  
أجسامهم وتسوء أخلاقهم الى أن ينتهوا الى حال من الطيش والحمافة  
لا تطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب ، ومنهم من يتصنع ذلك  
كما يتصنع بمض أهل الدين التقشف والزهد ، وقد ألىف الناس ذلك  
منهم فاذا قيل لك هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع أو فلان المتفنن  
غفرت له ما ساءك من منظره لما يسرك من مخبره ، وربما لم يكن عند  
بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورئاسة المرأى

(الصديق) - انى لأعجب لقوم يعتمدون فى أعمالهم على رءوسهم  
ثم يذهلون عن أبدانهم ، وقد علموا ان القريحة السليمة لا تسكن الا  
الجسم السليم ، وكيف يصح البدن اذا لم تتمهده بالنظافة وطيب الغذاء  
وحسن الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له ، ولقد يعرض للرجل المتفكر  
وهو فى تجلّى قريحته أن يشم رائحة كريهة أو يبصر منظرًا رثينا فيضيق  
فى الحال صدره وينقبض فكره ، فكيف بمن يجد ذلك فى نفسه ويحس  
به فى جسمه ، وأحرّ بمن ينقطع فى عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيسا  
فى ذاته ، فلا يعرف عجرفة الطبع ولا شراسة الخلق بما تولده فيه من  
صفاء الحس ولطف الشعور وبما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع .  
وعلى الوجه الأعم لست أدرى ما فائده العلوم والمعارف والفنون اذا لم  
تكسب صاحبها بادية الأمر محاسن الأخلاق ومكارم الصفات فيكون  
القدوة الحسنة لمن يقتدى بعلمه ويتأدب بأدبه ، والا فكيف تنبت الزهرة  
من السبخة ويسطع النور من مهجور القبور

(الحكيم) - صدقت وأجدت ، ومن قصر فى تربية نفسه فكيف  
يطمع فى تربية غيره

(الباشا) - وماذا يصنع هؤلاء الصُّناع بهذا الرزق الواسع والثراء  
الوافر وحالهم فى سوء المعيشة على ما أسمع وأرى

(الحكيم) - يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من  
أرباب المواريث فى الإسراف والتبذير ، وهم لشغفهم بالجمال الذى تستمد

صناعتهم منه حسنها وروفقها لا يفترون عن التولع بالنساء والافتتان  
بمحاسنهن ، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنى المتباهى ، الى يد  
الصانع المفتون ، الى كيس الفاجرة الهلوك ، الى صندوق التاجر والصائع .  
وعندهم أيضا باب لاتفاق عظيم على طائفة من النساء التى يطلقون عليها  
اسم « المِثَالِ »

(الباشا) - وما « المِثَالِ »

(الحكيم) - « المِثَالِ » هو المرأة التى يتخيرها المصور ليأخذ فى  
التصوير على مثالها لجمال وجهها أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها ،  
فهذه لزندها ، وهذه لهدها ، وتلك لقوامها ، والأخرى لشكل ابتسامها ،  
وهلم جرأ . فترى غرف المصورين ممتلئة بهاته « الامثلة » التى تختلف  
أجورها باختلاف اقدارها . وقلما تدخل على مصور فى مصنعه إلا ترى  
أمامه امرأة مكشوفة البدن عارية الجسم يقلبها كيف شاء ذات اليمين  
وذات الشمال حتى تصير على الشكل الذى يريد أن يملأ عينه منه  
ويحصره فى ذهنه ليخرج الصورة على مثاله

(الباشا) - ما هذا الذى تحكيه من التبذل والتفضح

(الحكيم) - ليس هذا عندنا بميب ولا نقص ، ولا غضاضة على  
النساء منه فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة لا عار  
فى مزاولتها ولا بأس على السمعة منها . وعندنا اليوم خلاف قائم هل  
يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل فى طريق الناس وفى

مسالك السابلة كما يفعل ذلك في داخل مصنعه ، فان أحد المصورين عنَّ له بالأمس أن يصور صورة انبعاث من القبور ، فقصداحدى المقابر وجلس هناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للمثال ، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد وكان يقيم هناك في كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال يمعن بنظره في الفتاتين ثم يخطط ويصور ، وكان بجانب المقبرة دار ثننى قام على حائطها البناءون فاشمأزوا من هذا المنظر ودفعم دافع الحياء الى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو فيه ، فلم يعأ بهم ولم يبال بتأنيبهم واستمر على ذلك أياما ، فرفعوا الامر الى رجال الشرطة ثم الى قضاة المحاكم لمنع الرجل عن هذا الفعل السيء . ولا تزال الجرائد تتجادل في المسألة هل يجوز المنع أم لا يجوز ، فبعضها يذهب الى وجوبه ارتكائا على نص القانون الذى يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة فى الطرق ، وبعضها يرى الإباحة لأن كل إنسان حر فى صناعته ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه

(الباشا) - نعوذ بالله من هذه البدع .

قال عيسى بن هشام - واتهينا بالخروج من القصر بعد أن كدنا نضل فيه لانساع أطرافه ونواحيه وتعدُّدِ غُرُفاته وحجراته وهى كلها خاصة بالصور والتمائيل . ثم وقفنا فى الخارج وقفة الاجلال والإعظام أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض واكليلا الصناعة ، وعاد الباشا الى « الحكيم » يسأله :

(الباشا) - وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء

المعرض

(الحكيم) - يبقيان على حالهما دون أبنية المعرض لعرض أعمال

أهل الصناعة والتصوير في كل عام

(الصديق) - انى كلما نظرت الى هذه العناية الكبرى عندكم

بنفن التصوير والغلو فيه الى هذا الحد ثم نظرت الى قلة العناية به عندنا  
حرتُ في معرفة السبب ، فان كان ذلك ناشئاً عن الترقق في المدنية فانى  
أراه فيكم قديماً منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية مسفرة بينكم ،  
وربما كان القديم أبعد من الحديث ، مع أن أهل الشرق على ما تعلمون  
أوسع مجالاً في الخيال وأبعد شأواً في التصور ، فكيف نما هذا الفن فيكم  
دون أن ينمو فينا

(الحكيم) - ان أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحيّ أهل عبادة

للأوثان والأصنام، فقضى الاعتقاد الدينيّ بإتقان الرسم والتصوير، واتسع  
نطاقه على الأخص في الدولة اليونانية والدولة الرومانية حتى تعدى  
التصوير تماثيل الآلهة الى تماثيل الخلق ، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال  
وعظماء الأبطال ، ووصل الغلو في ذلك أيام الدولة اليونانية انهم أحصوا  
ثلثمائة تمثال لشخص واحد في شوارع « أثينا » في حال حياته فلم تمكث  
بعد وفاته ثلثمائة يوم لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل وعلو الصيت  
على غير استحقاق ، ومن ملح ما يروى في هذا الباب ان بمض الناس

قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير الخطر: انى لا عجب لأهل «أثينا»  
يقيمون لمثل هذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق ولا يقيمون لك تمثالاً  
واحداً وأنت المقدم المفضل فيهم ، فقال له لأنّ يتعجب الناس مثلك  
من أنهم لم يقيموا لى تمثالاً واحداً أفضل عندى من أن يتعجبوا لماذا  
أقيمت لى التماثيل . ولما دخل الدين المسيحى على هذه الحال لم يحظرها  
ولم يحرمها فاستمر الناس على ما ألفوه. وتناولوا الدين المسيحى نفسه بفن  
النقش والتصوير وصوروا المسيح وأمه فى كثير من أطوار حياتها  
ودوتوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس ، فبقيت العناية بذلك  
متصلة قائمة الى اليوم ، بخلاف الدين الإسلامى عندكم فانه حظر التصوير  
فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية ، والافوه منتشر  
فى الشرق انتشاره فى الغرب بين الامم الوثنية كالصينيين واليابانيين  
والمجوس من أهل الهند

قال عيسى بن هشام — وسرنا عن هذين القصرين تقصدسواهما  
من المعاهد . وتقف على ما اشتهر فى المعرض من المرانى والمشاهد

## الارزجار والارزهار

قال عيسى بن هشام — ودخلنا معرض الأشجار . وبستان  
الأزهار . في قصر لم يُبْنَ بِناء القصور والديار . ولم تُشَدَّ أركانُه بالشيد فوق  
الأحجار . <sup>(١)</sup> ولم ترتفع بالآجر حجْرُه وغُرْفُه . ولم تُتخذ من الخشب  
أبوابه وسُقْفُه . بل عُقِدَتْ له القباب والأبراج . من صقيل البلور وسبيك  
الزجاج . فهو صرح ممرّد من قوارير <sup>(٢)</sup> . كأنه لجة يَمِّ أو صفحة غدِير .  
لو دخلته « بلقيس » صاحبة العرش في الأيام الخالية . لكشفت عن  
ساقينها مرة ثانية . جمعوا فيه أشات النباتات الغض . من كل بقعة وناحية  
في الأرض . مما ينبت بين ثنيات الجليد . وتنشق عنه صمّ الجلاميد .  
وما أخضر في رُبا الصحراء . وأورق في وهاد البيداء . وأزهر في الجمد .  
وأينع في الومد <sup>(٣)</sup> . ومن حيث تجرى الأنهار والجداول . الى حيث  
تعصم الأراوى والأجادل <sup>(٤)</sup> . ومن حيث تشدو الحمامة الورقاء . تحت  
الظلال والأفناء . الى حيث تدور الحرباء . حول الغزاة في كبَد السماء <sup>(٥)</sup> .  
ومن أدنى الشرق الى أقصى الغرب . ومن طرف القطب الى طرف  
القطب . فما أردت هناك من جميع الأنواع . في متفرق البقاع . ما بين  
ملتفّ ومنتشِب . <sup>(٦)</sup> ومتساق منه ومنتشِب . يفتّر بكل مجرّم وميئس .

(١) الشيد ، ما حلّ به من الجس وغيره (٢) ممرّد ، امس مصقول

(٣) الجمد ، الثلج ، والومد الحر

(٤) الاراوى ، جمع أروى وهو الوعل ، والأجادل ، جمع أجدل وهو السفر

(٥) الكبَد ، وسط النوى ، والغزاة الشمس (٦) منتشِب ، ملتف

ومذهب ومفضّض . ومشرق ومومض . وأين ابن الرومي يتأملها فيخلع  
عنه رداء الفخر والتهيه . ويُقرّ بجزه في الوصف والتشبيه . ويحرق  
ديوانه بكبريته المذكور . في تشبيهه المشهور :

ولازورذية ترهو بزرقها

بين الرياض على حمر اليواقيت<sup>(١)</sup>

كأنها وضاعف القضب تحملها

أوائل النار في أطراف كبريت

هناك تستبيك ألوان الأزاهر . بما يزرى بلمعان الجواهر . فما  
الياقوت عندها والزبرجد . وما الفيروز والزمرد . وما العقيق والجمان .  
وما الدر والمرجان ! وكيف يقاس الحجر . بالشجر . وتستوى الحصباء  
اليابسة . بأكلام الأغصان المائسة . وكيف يُقدّم الجامد الثابت . على  
النّاميّ النبات . وأين الحركة من السكون . والمنشور من المدفون . وأين  
المنثور على ظهر الروضة الزهراء . من الملحود في بطن العبراء . ولئن  
انتظمت القلائد . بجواهر تلك الفرائد . في لبّات الخرائد . وكان مكانها من  
الحور . في المعاصم والنحور . لكانت هذه الزهور . بين الرثا والصدور .  
وكم أنعشت خامد النفوس والأرواح . بطيب الأنفاس وشدّي الأرواح .  
فوقفنا نستششق الأريج والنّشر . من أصناف ذلك الطيب والعمار . لو كان  
معنا ضرير المعرّة رهّنُ المحبسين . لانقلاب منشرح الصدر قرير العين .

(١) اللازورد ، معدن شفاف أزرق يقرب الى الحمرة

وَلَأَنسَ مِنْ وَحْشَتِهِ . وَذَهَلَ عَنْ فَاقَتِهِ وَخَلَّتْهُ . <sup>(١)</sup> وَعَلِمَ أَنَّ مِنَ الْمَسْكَرِ

مَا هُوَ طَائِقٌ حَلَالٌ . وَلَمْ يَتْلَهَفْ عَلَى شَرْبِ الْمَعْتَقَةِ حَيْثُ قَالَ :

تَمَنَيْتُ أَنْ الْحَمْرُ حَلَّتْ لِنَشْوَةِ

تَجْهَلُنِي كَيْفَ اطْمَأَنْتُ بِي الْحَالُ

فَأَجْهَلُ أَنِّي بِالْعِرَاقِ عَلَى شَفَا

رَزِيءِ الْأُمَانِيِّ لَا أُنَيْسُ وَلَا مَالُ

وما زلنا في هذه الروضة الغناء . والجنة الفيحاء . نردد قول العبيد

الصالح الأواه :

« وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

ونكرر النشيد . لبيت التوحيد :

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

حتى إذا أن أوان الانصراف . خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف <sup>(٢)</sup> .

خروج أيدينا من دار الخلود والبقاء . إلى دار الصوم والشقاء . ولما تركناها

إلى نواحي المعروض صنوئل في أعيننا . ما كان يرؤقنا ويردهينا . وصغر

في أنفسنا . ما كان يخلبنا ويُسجينا . وذبل أمامنا ما كان من المناظر ناضرا .

وذال ما كان نغمًا نادرا <sup>(٣)</sup> . وغلب ذلك المنظر على كل بديع رائع .

من مختلف الفنون والصنائع . وأين قدرة الحيوان الناطق . من قدرة

المبدع الخالق . وماتسويته آلات المصانع . مما تصوره يد البارئ الصانع .

وكاد الباشا بهم بالرجوع من حيث أتينا . ويقتصر في يومه على مارأينا .

(١) الخلة ، الغافة (٢) الألفاف ، البستان المجتمع العجبر (٣) ذال ، بمعنى مان

لولا أن استوقفنا قول « الحكيم » للصديق في عرض كلامه . عن ترتيب  
المعرض ونظامه :

( الحكيم ) - نعم تنقسم أما كن المعرض الى قسمين : هذا  
القسم الذى شاهدناه من نقائس الصناعة والطبيعة وهو مباح للزائرين  
بغير أجر ، وقسم آخر أقاموه لترويح النفس واستجلاب الأنس  
بالمشاهدات الغريبة والمناظر البديمة يدخله الداخلون بأجر معين

( الصديق ) - لقد قرأت في الجرائد عن هذا القسم الأخير  
ما يعجب ويدهش ، وأشد ما تشاقق نفسى لزيارته تلك « النظارة  
المعظمة » الهائلة التى اخترعوها لمشاهدة القمر على بُعد متر واحد ، فتحيط  
به العين فى زعمهم كما يحيط الجالس فى الغرفة بأجزاء جدرانها . فأين ذلك  
المكان منا الآن

( الحكيم ) - ليس هو بيميد ، وهم يسمونه « قصر الأضواء والمرآيا »  
ولطالما أسهبت الجرائد كما قلت فى وصفه بما يهيج الرغبة الى زيارته ، ولم  
زره بعد ، فهل بنا نقصد قصده  
( الباشا ) - البدار ! البدار الى زيارته . فلو كان ما يقولونه عنه  
صحيحاً لكان إحدى المعجزات

قال عيسى بن هشام - و سرنا جميعاً نلتبس هذا المكان حتى وصلنا  
الى قصر مشيد قل أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك فى فخامته  
وضخامته ، ووجدنا مكتوباً على بابه بين صور الكواكب والنجوم

هذه العبارة باللغة اللاتينية : من هنا يصعد الإنسان الى أجرام الكواكب ويتصل بالآلهائية . ولما دخلناه رأيناه مزدحمًا بالجموع ، فبدأنا معهم بالدخول في حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر مترًا في الطول وعشرة في العرض وهي مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحدة منها مترين ونصفًا في عرض متر ونصف وقد تخللتها مصابيح الكهرباء ، فاذا نظر الإنسان بين تلك الاضلاع والمثلثات رأى صورته تتعدد بالمثلثين ، واذا مشى بضع خطوات ضلّ الطريق ولم يهتد السبيل ، وكلما ظن أنه وجد منفذًا للخروج منه اندفع اليه فيصطدم وجهه بزجاج المرآيا فتعلو أصوات الضاحكين وهم في حيرتهم وضلالهم ، ولا يزال على هذه الحال مدة من الزمن حتى يصل الى نهج الطريق من طريق الاتفاق . وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء في وصف أشكال الزايرات وانطباع صورة الواحدة منهنّ على صفحات المرايا ألف مرة كما تنطبع محبتها وهي واحدة ، على صفحات قلوب الرجال وهم أوف

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التي يضل الداخل فيها كما يضل الراكب في الفيافي والقفار سرنا نقصد غيرها ، و«الحكيم» يقول « للصديق » في حديثه :

(الحكيم) - ان الفكرة في إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال يضل الداخل فيها ولا يهتدى للخروج سبيلًا شئ في قديم الوجود . وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول من شيد الأبنية للضلال والتهيه ، منها الهيكل الذي رآه « هيرودوتس » في زمانه ووصفه في

تاريخه ، وكان يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل في بعض ،  
فمن دخل هذا المعبد ولم يكن معه دليله ضلّ فيه حتى يهلك بجوعاً ؛ ولا يزال  
أثره باقياً عندكم الى اليوم بقرب بحيرة « موريس » أمام المدينة القديمة  
المروفة بمدينة « التماسح » . وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين  
فأقاموا في مدينة « كريد » معبداً يمثله ، ومما يذكر عنه في أساطيرهم أن  
غولاً من الغيلان كانت تفسد في الأرض وتعيث ثم تلجأ اليه فلا يدركها  
أحد ، وصمّم احد المشهورين من شجمانهم على اتباع أثرها والفتك بها  
فلم يتوصل الى ذلك الا بالحصول على خيط معلوم دلّته عليه عشيقته  
فربط طرفه عند الباب قبل دخوله وسار به في طريقه فأدرك غايته وفتك  
بالغول واهتدى به في رجوعه . والفرق بين ما صنع القدماء في السالف  
وما صنعه المحدثون في الحاضر كما ترى أن بناء المتقدمين من الحجر وبناء  
المتأخرين من الزجاج

قال عيسى بن هشام — ودخلنا بعد ذلك غرفة في إثر أخرى ، وكلها  
على هذا النمط من انعكاس الأضواء في المرآيا وتعدّد الصور ، فتخيّل هنا  
بئراً وهناك بحراً الى غير ذلك من وجوه التخيل . ثم اتهمينا الى تلك  
الغرفة المنشودة التي يرصد فيها القمر على بُعد متر واحد ، فما جاوزنا بابها  
حتى أطفئت في وجوهنا المصابيح وتخبّطنا في الظلام الدامس ، ثم سلطوا  
اشعة الكهروباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر  
مصنوعة بكيفية تبيّن فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته فتراءى لك  
الأولى بمقدار قلامة الظفر والأخرى بمقدار خروق الغربال ، ووقف

هناك رجل كالمُرشد يشرح للناس ما يشرحه عن هذا الرسم ويزعم انه صورة القمر بعينه على بُعد سبعين كيلو متراً كما يُرى في « النظارة » التي انتشر الإعلان عنها بأنها تُريْكُهُ على بُعد مترٍ واحد وأسهبَت فيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض . ثم خرجنا و« الصديق » يقلبُ كفتاً على كف من شدة الدهش والعجب ، ويسأل صاحبتنا « الحكيم » عن كُنه هذا الغش والكذب :

(الحكيم) — خَفَضُ عليك ، فان أكثر ما تقرأ من التفتيح والتهويل لمثل هذه المسائل في الجرائد لا يُعوَّل عليه ، فانها تعتمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تناوله عليها من الأجور ولمصلحة أبناء البلاد في ترغيب الناس الى زيارة المعرض ، وهي تستحل الغش والكذب في سبيلهما . ولا تعجب إن قلت لك إن الذي باشر هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا فقد قام في المجلس خطيباً وطلب منه الموافقة على إقامة المعرض العام وأعلن أنه وجد عنقاء المعرض والآية الكبرى في ارتقاء الصناعة بإنشاء « نظارة معظمة » يرى الناظر فيها القمرَ عن بُعد متر . وما زال يحكي والجرائد تكتب حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه « النظارة » التي يقولون عنها انها تُرى القمرَ على بُعد سبعين كيلو متراً ، وأقاموا هذا القصر بمنظره لاجتناء الريح من تهافت الزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى . وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس في العالم من التهويل الباطل في أقوالهم والغلو الفاضح في وصف أعمالهم بمقدار الفرق ما بين المتر الواحد والسبعين كيلو متراً ،

والراجحُ فيهم من كان ماهراً في الغش والخداع والفائز فيهم مَنْ كان سيّاقاً  
في المكر والاحتيال

قال عيسى بن هشام — وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب  
الذي لم يُكفهِ الغش من طريق السياسة والاستعمار . حتى ترقى فيه الى  
طريق الكواكب والأقار

## المرآئى والمشاهد

قال عيسى بن هشام - وسرنا فى قسم المرآئى والمشاهد . ندخل  
واحداً منها فى إثر واحد . فلا نجد فيه . عند ما نوافيه . مصداقاً ما سمعنا  
من وصف واصفيه . بل ربما وجدنا ما يخالفه وينافيه . الى أن وصلنا  
الى قصر مشرف منيف . يزهو على القصور بحسن الترتيب والتصنيف .  
أعدوه هناك لأنواع الرقص والغزف . وفنون القفز والقصف . منذ  
عهد البداوة الغابرة . الى عهد الحضارة الحاضرة . ومن عيش الخشونة  
والشظف . الى عصر النعمة والترف . فما شئت من رقص الحماسة  
والشجاعة . الى رقص الخلافة والخلاعة . فترى رجال البداوة يرقصون  
بالسيوف . فى مواقف الحتوف . وترى العذارى من ورائهم يضربن  
بالدفوف . ويصفقن بالكفوف . تحريضاً لهم على الحرب والهابا . وإثارة  
لهم على العدو وإغضابا . فتحلوا لهم مضاضة الإقدام . كما تحلوا لشاربها غضاضة  
المدام . ويرتشفون كؤوس المنايا . كما يرتشف سوام رُضاب الثنايا . ثم ترى  
رقص الآيين من السفر . والقافلين بالنصر والظفر . بين عذارى الحى وجواريه .  
وسبايا العدو ومأسوريه . بإشارات تبسب أيمًا بيان . عن مكنون الهوى  
والأشجان . فى صدور ماؤها العنيرة والشمم . وقلوب حشوها الشهامة  
والكرم . ونفوس تفرع لصولتها الوحوش الكواسر . وتفرق من هيبتها  
الأسود الكواشر . لكنها تخضع لربات القدود والنهود . خضوع

العابد للمعبود . فتفرَّق لديها أوزاعا . وتطير أمامها شعاعاً<sup>(١)</sup> . ان  
خَشِيتَ منها بادرة صيدٍ وجفَاء . أو حركة تقور وإبَاء . وهُنَّ يقابلن  
حركات التذلل والتزلف . بحركات التذلل والتعفف . ويَجْزِينَ على  
التولع . بالترفع والتمتع . ويبدن لطيف التجنى . يبدع التمتنى .  
ويَغْضُضْنَ من أبصارهن . في جلائهن وإسفارهن . ثم يُسرعن الى  
الالتفاف . ويَسْتَرْنَ ما انحسر من الأطراف . فيرتدُّ طرف الواله  
حسيرا . وقلب المهائم كسيرا . وما أبدع الحياء في الوجه الجميل . كما  
الفرند في السيف الصقيل . اذا عارض حياء الشجاعة في الفارس المغوار .  
فلَّ غَرَبَهُ عن ربة الحجل والسوار . وكأنما الشجاع منهم في يد الغادة .  
لايفتا ينشد قول أبي عبادَة :

نحن قومٌ نُذِينَا الأَعينَ النُّجُ

لُ على أَننا نُذِيبُ الحديدَا

طَوَّعُ أَيديَ الغَرامِ تَقْتادُنَا البِ

ضُ ونَقْتادُ بالطَمانِ الأَسودَا

ثم رأينا أشكالا متفرعة من الرقص والحجلان . وأنواعا متعددة  
من الدوران والخطران . مما هو شائع عند عبدة الأوثان . وسائغ مباح  
في بعض الأديان . حتى يجد المشاهدُ حركة تلك الأبدان . ما يجده راكب  
السفينة من الهيضة والغثيان . وكأن الأصل في ذلك إنهاك القوى  
الجسمانية . لإضعاف الجواذب الشهوانية

(١) طار قلبه شعاعا ، تفرق من الخوف

ثم شاهدنا بعد ذلك ما في رقص المدينة والحضارة . من الفضاحة  
والدمارة . فترى أفواج النساء . كأسراب الظباء . لا يستر أجسامهن  
الآن غلالة كالقشرة . في لون البشرة . تنطبق على أعضائهن انطباق العرق في  
على ترائك الرئال . (١) وتلتصق التصاق القميص باجساد الصلال . (٢)  
فهن عاريات للناظر . كاسيات في الخاطر . فيأتين في رقصهن أشكالاً  
تشرح في ساطع الضياء . مذاهب الأعصاب ومفاصل الأعضاء . فتارة  
يثنين . وطوراً ينحنين . وآونة يدرن على أطراف أصابعهن . غير  
منتقلات من مواضعهن . وفيهن من ترفع ساقها حتى تلم في الخد سواد  
الخلال . بذهب الخللخال . وتلس الجبين الوصاء . بطرف الحذاء .  
والنظارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون . ويصفقون  
ويستعيدون . ثم ما لبثن أن عدن بنوع آخر من أحدث الأنواع . في  
ضروب التفنن والإبداع . فتوشحت كل واحدة منهن بملاءة بيضاء .  
متسعة الاطراف والانحاء . اذا استدرت فيها خلتها قطعة غمام . أطل  
منها بدر التمام . أو زفة حمائم بيضاء (٣) . ترفرف ظمأ حول الماء . وفي  
قبائهن مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان . بمختلف  
الأضواء والألوان . فتبدو الراقصة بانعكاسها فيها كأنها طاقة أزاهر .  
أو قلائد جواهر . وكأنها في سرعة تلونها واهتزازها . زبد اللجج  
هاجته السفينة في اجتيازها . فالعكست فيها أشعة الشمس المشرقة .

(١) الفرقاء ، الفسرة الملتفة بياض البيض ، والتربكة ، بيضة النعامة ، والرأل ، النعامة

(٢) الصل ، الحية (٣) زفة ، جاعة الحمام

بألوانها السبعة المنفرقة . وفي يد كل راقصة منهن عصا جرداء . اذا  
هزتها في الهواء . وقابلت بها شعاع الكهرباء . أزهرت بأزهار من نور .  
وأينعت بأثمار من البلور . يخالها كل من يرى : — كعقود ملاحية  
حين تورا — <sup>(١)</sup> لورآها سحرة فرعون وهامان . لا أقروا بفضل العصا  
في كل زمان ومكان

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار . وانسدل عليها الستار . خرجنا  
ونحن في دهش وذهول . والتفت الباشا الى «الحكيم» مخاطبه ويقول :  
( الباشا ) — أرى أن للرقص عندكم معشر الغريبين شأننا نفخا كأنه  
من نفائس الفنون وطرائف الآداب ، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر  
والأشكال التي يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه  
الكيفية الفاضحة

( الحكيم ) — إن شأنه عندكم أعظم وشكله فيكم أفضح ، ولا يزال  
كتابنا وأهل النقد منا يعيرونكم به ويستفظمون ذلك الشكل الذي  
يسمونه «رقص البطن» . وهذا المرض المصري هنا كل من دخل فيه  
وشاهد النساء المصريات حاسرات النهود عاريات البطون يحركن طياتها  
خرج يقطر وجهه خجلاً وتكاد تجيش نفسه غمياً من شناعة هذا المنظر  
في عينه فيحكّم عليكم بحسنة الآداب وقلة الاحتشام . ومن شاهد مواضع  
اللبو في بلادكم لم يجدها حافلة بسواد ، فاذا عرضتم علينا آثاركم في ديارنا

كانت هذه الرقصات في أوائل ما تعرضونه ، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم

(الصديق) - ان الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم ، فان هذا الرقص ليس بمنشور في عاداتنا ولا معروف في بيوتنا ، وانما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة يباشره العواهر فيما يباشرنه من أبواب الإنم والفجور في بيوتهن ولم يظهرن به على الملأ في الملاهي العامة الا بفضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الریح متساوية لا حطة فيها ولا تقيصة . والجمهور عندنا على استقباحه والنفور منه كما تنفرون . ولا يشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة ولا يأتيه من النساء الا القواجر العواهر . وكلما حاولت الحكومة ، في محافظتها على الآداب ، حظره ومنعه اعترضتها امتيازات الأجانب وحریتهم المطلقة فيما يأتون ويذرون . أما الرقص عندكم فهو متأصل في عاداتكم وسنة متبعة بينكم لا يقتصر على الملاهي والأماكن العامة ولا ينفرد به النساء دون الرجال ولا يخلو منه بيت من بيوت السوقة ولا قصر من قصور الملوك ، ولا تقام عندكم وليمة من الولائم ولا يتم لكم احتفال في المواسم الا والرقص ركن من أكبر أركانه ومظهر من أنفخر مظاهره ، والرقص عندكم من الفنون النفيسة يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز

(الحكيم) - ليس الرقص في أصله من المنكرات ولا مما يعاب شأنه كما تذهب اليه ، وهو حركة طبيعية في الإنسان يقتضيها تركيب

الجسد لرد الأعصاب الى ميزانها ونظامها عند ما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثر، وهو قديم في الفطرة، وربما تجاوز نوع الإنسان الى بعض الحيوانات والطيور، وقلما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة الى اليوم. وهو ينقسم الى أربعة أنواع: نوع يستعمل في الحرب، ونوع يستعمل في الصيد، ونوع يستعمل في حكاية المهوى من طريق الإشارة والإيماء، والنوع الرابع في الشعائر الدينية. وقد اعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة، وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية، وكان كبراًؤهم وأمرأؤهم يمتازون بإتقانه ويتباهون بالتبريز فيه، وفيهم من انقطع له واشتهر به. ولقد كان السفير بين أهل «ايننا» وبين الملك «فيلبس» والد الإسكندر المكدوني رجلاً اسمه «توستيديموس» من أكبر الاساتذة في هذا الفن، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها «لاريسا»، وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولا يستنكره. وكان «إبيامينوننداس» وهو من أشهر الفلاسفة راقصاً مبرزاً في الفن. والأمر على ذلك أيضاً من جهة الرقص الديني في الدولة الرومانية عند نشأتها، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشاراً عاماً الى أن دخل الدين المسيحي على الوثنية الرومانية فلم يستنكره في بادىء الأمر بأشكاله التي تفتن فيها الرومانيون على ما هو معروف فيهم من التناهي في الملاذ الفاضحة في أواخر دولتهم. ثم دخل في عادات الأمم الغربية فتمسكت به ولم يصدّها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى اذ كانت النفوس ألفتها واعتادت أن لا ترى فيه عيباً أو شيناً. وانما الذي شأنه في

نظر كم اجتماع الرجال والنساء عليه في حفلاتهم ، وذلك ناشئ عن ارتفاع  
الحجاب عندنا ووجوده فيكم

قال عيسى بن هشام — وقَطَعَ الحديثَ يَدِينَا أن رأينا في طريقنا  
مكانا يتزاحم عليه الناس وعلمنا انه أحد المرائي الشهيرة الذي قرأنا عنه  
فصولاً متعددة في الجرائد العالية مثل « الديبا » و « الفيجارو » ووصفته  
بان الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به في مياه البحر المتوسط فتمرُّ  
به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان . فدخلناه  
بعد أن دفعنا الأجرة وصعدنا السلم حيث انتهينا الى هيئة سفينة كبيرة  
فركبناها ، فاذا هي تميل بجانبها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط  
في حركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج ، ويحف بها من  
الجانبين حائط من قماش نُقِشَتْ فيه أمواج البحر وأشكال الثغور  
الكبيرة مثل « نابولي » و « فينسيا » وغيرهما فيتخيل للراكب عند ذلك  
ان السفينة تسير به في عرض الأمواج المرسومة والرسم متصل بالآلة  
السفينة تديره بسرعة كبيرة . والسفينة في تمايلها كالأرجوحة لا تتحول  
عن مكانها . فلم نر في الأمر ما يُستغرب له

ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائي فرأيناها كلها على  
هذا النسق من التعمية . وما برح « الصديق » يظهر التذمر لشدة  
الفرق بين ما رآه من هذه المناظر التافهة وبين ما انتشر عنها في أنحاء العالم  
من المبالغة في الوصف والغلو في البيان . ولم يخالفه « الحكيم » في ذلك وإنما

أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم المرائى كله. وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا فى المعرض يمثلون بها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة . ولما دخلناها تملَّكنا الطربُ وتولانا الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة وشاهدنا الجبال شامخة تسيل من قممها السيول الى قرار الوادى فتتشعب منها الجداول والأنهار وتتخلل البيوت والجدران ، وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة. فى تلك البلاد واقفة على مذاودها ومن حولها الولائد والجوارى تتألق. فيهن نضرة الشباب وتبرق أسرتهم بحسن البداوة :

### حُسن الحضارةِ محلوب بتطرية

وفى البداوة حُسنٌ غير محلوب

وهن يحتلبن ألبانها فى قُيوب من البلور ويُقدِّمنها برغوتها لمن. يرغب فى استقامتها من الزائرين ، ورأينا الرجال فى حوائيتهم يملئون العين حسناً وبهاءً واقفين وقفة التأدب يعرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم. وأزهار جبالهم. ولقد علمنا أنهم أقاموا فى تشييدها ثلاث سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات . فأعجبنا المقام وقضينا هناك زمناً. تتناقل وتفاكه ، وتذاكر فى حديثنا فضل المعيشة الطبيعية فى سذاجتها. على المعيشة المدنية فى تصنعها وكلفتها

## الفرقاء على الوطن

قال عيسى بن هشام— وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونجول .  
 اذ سمعنا صوت مزمار وطبول . فهاج منا الذكرى والشجن . وأذكي فينا  
 الحنين الى الوطن . حين أنضاء الثوق <sup>(١)</sup> . بلامعات البروق . تنبعث  
 من أفق بلادها . وتنازعها الأشواق في أغوارها وأنجادها . فشخصت اليه  
 الأحداق . ومالت نحوه الأعناق . فقصدنا منبعه . وأتمنأنا مطلعته . عسانا  
 نجد عنده من آثار مصر فضلاً . ومن أشكال بلادنا شكلاً . يملأ العينَ جمالاً .  
 والصدرَ جلالاً . ويؤنسنا في وحشة الفراق . بما يخفف من لوايعج  
 الأشواق . ويكون لنا في المعرض موضعاً للفخر والمباهاة . في باب المسابقة  
 والمباراة . فوجدنا أخلاطاً من الزُمرَ والجماهير . حول الطبول  
 والمزامير . ورأينا في وسطهم رجلاً يعلوهم فظاً في هيئته . كظاً في  
 طلعتته <sup>(٢)</sup> . لو استزاد من الغلاظة لم يجد له من مزيد . كأنه جامود صخر  
 أو قطعة جليد . بوجه تثور منه الساجدة . ثورانَ المجاجة . « وطربوشٍ »  
 عليه طوق مثل الدهن من العرق والوضر . لو لَجَّ فيه شعاع الشمس  
 لاحتدم واستمر . وهو يعبجُ مثل عجيج الإبل في الفلوات . ويصيح  
 بصوت من أنكر الأصوات . دُونَهُ صوت الحمرُ الناهقة . أو الرعد  
 بالصاعقة . وفي يده مروحة يتزود بها هواء للتنفس . خشية الاختناق  
 من التهييج والتحمس . وهو يتأيلُ عجيباً واختيالاً . ويذهب في الخلقة

(١) أنضاء ، جمع نضو وهو التعب المتهوك (٢) رجل كظ ، عسر متعدد

يميناً وشمالاً . منادياً في الجمع . بألفاظ مكروهة في السمع . ترغيباً للرائح  
والغادى . في دخول ذلك النادى . ليروا من أسباب الأُنس . ومُسْتَمْتَع  
الحواس الخمس . ما يَنفَى بلباب الصدور . ويُجَلِّي بواعث السرور .  
من كل منظر لبس له نظير . لا يحيط به التخمين والتقدير . مما بَدَّتْ به  
مصرُ سائرِ الأُمم . وحلَّتْ به في الفخر محل الذُّرا والقيَم . ولا غرو فهي  
لا تزال في مضارها منذ القِدم . عالية الكعب راسخة القِدم . وأن هذه  
فرصة سانحة لا بدَّ أن تُلتَمَس . وخلصه من الدهر يعقبها الندم ان لم  
تُختلَس . فن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار . وأوقع نفسه في الخسار .  
ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله . بعد أن يفقد النفيسين  
من وقته وماله . ومن لم يشاهد صنعة « زهرة » و « معتوقة » . لم يشاهد  
في الدهر معشوقة ولا موموقة . ولم يحصل الآعلى الخيبة . في السفر  
والأوبة . فدخلنا نستكشف الأثر . ونستشف الخبر . فتأقانا بالباب  
رجل حسن الثوب والعمامة . في زى أهل التشيُّخ والإمامة . مشغول  
اللسان بالترحيب واليد بالتسبيح . كأنه إمام مُصَلَّى أو سادن ضريح .  
لولا أن تأملته ففرقه رجلا من فوى الرتب بين التجار . مشهوراً بتجارة  
الطيب والأعطار :

ذئبٌ تراه مُصَلِّياً      فاذا مرتَ به ركعٌ  
يدعو وجلُّ دعائه      ما للفريسة لا تقَع

فَهَنَّا ناً بالسلامة . وبالغ في الحفاوة والكرامة . وتقدم بنا الى ساحة

من ساحات اللهو واللعب . و « مرسح » من مراسح الرقص والطرب .  
وانكشف لأعيننا الستر عن بنات الفجور والعبر . فأخذن في « رقص  
البطن » بتلك الحركات الشنيعة . والأشكال الفظيعة . حتى تخيلنا أننا  
عدنا إلى أدوار تلك المدة . في مصاحبة « الخليع » و « العمدة » . فلوينا  
أعناقنا نحو الباب . ونحن في حزن واكتئاب . وخرجنا نستر وجوهنا  
بأيدينا خجلا . وتمنينا ان لا تُنسب الى بلادنا أصلا . لنخلص من وصمة  
هذا العار . وما يجرحه علينا من الازدراء والاحتقار . ورجعنا مهرولين  
ابتعاداً عن هذا « المعرض المصري » وما يحويه . من مثل هذا المشهد المعيب  
والمنظر الكريه . وأقسمنا على ان لا نمر من هذه الناحية . مرة ثانية .  
فأخذ « الحكيم » يهون علينا من وقع المصاب . ويخاطبنا في معرض العتاب :  
( الحكيم ) - لم هذا التسرع والتعجل . أما علمتم أن المعرض  
ينقسم الى قسمين : قسم الصناعات والآثار وقسم المشاهد والمرآئ . وقد  
رأيتم من « المعرض المصري » القسم الثاني فدعوه الى سوء أدبه وقبح  
أثره ، ولا ينعننا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذي هو قسم الجد  
والعمل ، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذا  
الذي اعتراكم من الهم والكدر

(الباشا) - ما أظن هذا القسم الا عنوانا للقسم الآخر . ومن  
أساء الاختيار في قسم المشاهدات فجدير به أن لا يحسن الاختيار في  
قسم الصناعات ، ومن بلغ به الانحطاط في انتخاب مشاهد بلاده ومرآئها  
الى عرض بطون النساء وفض العاهرات للرائج والغادي من أطراف

المسكونة في هذا المعرض فلا يُرجى منه حسن الاختيار في آثار البلاد  
وأعمال صنّاعها

(الصديق) - لقد أعمى الطمع في الربح مثل هؤلاء التجار عن  
قبح هذه المشاهد وغرم ولع السفهاء بها في مصر فحسدوا عليها أصحاب  
الحانات : ولم يكن من اللائق بهم أن يزاحمهم فيها ببلادهم فانهزوا هذه  
الفرصة للتفرد بها في بلاد الغربية، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها لإقبال  
الشبان في بلادهم فيفوزون بالربح وليس من يعير بقبيح وجهه في بلاد  
لا يعرفهم بها أحد ، فان فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذى الرتبة الثانية  
الذى لو دعوته لرؤية الرقص في مصر لغطى وجهه بجبته ولوى عنقه  
يستعيز ويستغفر من هذا الإثم الذى ينهاه عنه دينه وأدبه . ولكن جاء  
الأمر على خلاف ما قدروه فلم ينالوا ربحاً ولم يستروا قبحاً ، فان أدب  
زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينهام عن مشاهدة هذه الفضائح  
فلم يقبل عليها أحد ، ولم يبق لأصحابها الا سخط المصريين عليهم جزاء  
تمييز الأثم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم

قال عيسى بن هشام - ولما جاوزنا باب الملهى قليلا انثنا الى القسم  
الأول من هذا المعرض المصرى مطاوعة لرأى صاحبنا ، فوجدنا بناء  
شيداً مثل أبنية الجوامع والمساجد يفاجئك مدخله بحانة للخمر ذات  
اليمين تتخطر فيها شمطاء من عجاز باريس ومن حولها بناتها وحفندتها ،  
وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربهاً ، عريق في القبح والدمامة

تنطبق عليه القبة دون العمامة ، وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس وقد التفّ عليه جماعة من أجناس الناس ، يتقدم اليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية في ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات ، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون في انكبابهم عليه هلم الى شيخ المسلمين ليكتب لنا شيئاً من « قرآن محمد » فحزبنا الامر وانتظرنا قليلا حتى انقضّ الجمع عنه وأقبلنا عليه نسأله فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية ، فزجرناه قياماً بواجب الدين الاسلامي الذي ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من « شركة المعرض المصري » للارتزاق بهذه الوسيلة التي دفعته اليها ضرورة العيش . فتركناه وتوغلنا في داخل المكان وإذا برجل آخر معمم ومن حوله صبيان في أزياء المصريين التفتوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه وهو يقرهم آيات الكتاب بصوت عال ويروضهم على اهتزاز الجسم في أثناء التلاوة وفي يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤدبهم ، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من شكل التدريس في مصر وتعليم الدين بين المسلمين ، ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضاً وما فيه من المنكر تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانهم ليمثلوا به هذا المنظر ولم يستنكروه وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين ، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف . فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد ، أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحي المتصيد

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقاً تشبه أسواق الموالد  
وحوانيتها ، فعن اليمين بائع « لب وحمص » وفول وترمس ، وعن الشمال  
بائع « عرقسوس وسحلب » وفي هذا الجانب بائع « حراير شامية » وفي  
الجانب الآخر بائع « حلوى استامبولية » ومن دونهما بائع « أحذية  
صفراء وطرايش حمراء ». ولما استخبرنا أهذه كلها آثار مصر والمصريين ،  
قالوا نعم ويزيد عليها « معروضات المصنوعات والمزروعات » في داخل  
هذا المكان وأشاروا اليه ، فدخلناه فاذا هو مكان متسع على شكل معابد  
القدماء من المصريين ووجدنا حوانيته أشبه شئء بحوانيت الطارين  
انتقلوا منها الى مساها وتركوها في أنحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم ،  
فهنا صرة فيها بذرة قطن ، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة ، وفي  
صدر المكان صوان<sup>(١)</sup> من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب مما يلبسه  
العداءون « القمشجية » أمام الخيول بمصر . فانتقلنا خارجين من « قسم  
المزروعات والمصنوعات » على حال من النعم والحزن أشد وأدهى من  
الحال التي خرجنا عليها من ملعب المقنيات والراقصات

وفزعنا الى الهرب من هذا المرض المصرى وسيئاته فعارضنا أحد  
المروجين له ، واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب  
فيه ، فطاوعناه فدخل بنا غرفة مُحجَّبة وانكشف لنا الستار عن فتاة  
مقطوعة الذراعين تغزل برجليها وتعملهما استعمال اليدين في كثير من  
الشؤون . فخرجنا لا نلتفت وراءنا وقد حان وقت الغروب حتى صرنا في

(١) صوان : هو المعروف في العامية بالدولاب

الشارع فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف والشموع وفي وسطهن امرأة عليها زينة العرائس وهن يُنشدن حولها أناشيد الأعراس في زفاف المصريات . فعجبنا من تركهن لمكان اللعب والرقص الى خارجه في وسط الشارع . وبيننا نحن كذلك اذ بصر « الصديق » بأحد المصريين من أصحابه فاستوقفه يطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع وينعى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا « المعرض المصرى » :

(الصديق) - ألا تخبرني عن سر هذا التفضيح فانهم لم يكفهم ما يدور في داخل المعرض من كل مخجل معيب حتى انتشروا به في الشوارع على نحو ما تراه . لو قلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكايه بهم وليظهروهم بأسوأ المظاهر بين الأمم فاتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم لما أخطأنا الصواب

(المصرى) - ليس الأمر كما ذهبت اليه ، وانما دفع أهل الشركة الشره والطمع واستجلاب الربح بكل سبيل كما تراه في تسير موكب الزفاف في أنحاء الشوارع للاعلان والترغيب في زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعاً ، ولكن الذى يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث ان يهون عليه الأمر شيئاً ما لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية ، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة التى ارسلتها الحكومة الفرنسية اليها ولم تشارك فيه رسمياً

كما أعلنته في الجرائد، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية لان الجانب  
الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم  
من المصريين

(الصديق) - وهل تظن أنهم يربحون الشيء الكثير من هذا  
المعرض وهو على ما تراه من حال الكساد والبوار  
(المصرى) - ما أظن الربح على هذه الحال بميسور، ولكن الشركة  
لا تخسر شيئاً وإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها، وهم يقدرون الخسارة  
الى اليوم بثمانين الف فرنك، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبءة  
لهم وتأديبا حتى لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التي  
لا يسهون فيها من الخسارة ولا يسلم المصري فيها من وصمة العار  
قال عيسى بن هشام - وزودنا الرجل بالتحية والسلام . بعد أن  
خفف علينا بعض ما بنا من الآلام

## غيز الطمرنية

قال عيسى بن هشام — وانتهى بنا التجوال في المعرض الى « أقسام الدول ». فرأينا فيها من مفاخر الأواخر ومآثر الأول. ما يشهد لهن بالعلو والارتقاء . في أبواب الإبداع والإنشاء . وقد تبارين في ميدان المناضلة . وتسامين في مضمار المفاضلة . بما لا يُشق لهن فيه غبار . وتقتصر دونه الأبناء والأخبار . وكانت الدولة الألمانية من يذهبن أسبقهن<sup>١</sup> قدما . وأرفعهن<sup>٢</sup> علما . وأعز مكانا . وأعظم شانا . كأنها لم تقتنع بالسبق عليهن في ميادين الحرب والطمان . فارادت أن تسبقهن أيضا في حلبة العلوم والعرفان . وأن تبهذهن في حالتي الحرب والسلم . بشدة البأس وقوة العلم وينا نحن نمتع النظر بحسن الصنع . وجمال الوضع . اذ شعرنا بضجة والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجج<sup>٣</sup> . في الليل الدجوجي<sup>(١)</sup> .

قد ركبوا رءوسهم من شدة الفزع . وطارت عقولهم من الهلع والجزع . وانتشر بينهم الصراخ والصریح . واشتد فيهم العويل والنواح فسألنا عن الخبر فقيل لنا ان القنطرة القائمة على رأس المعرض هوت بمن فوقها على من تحتها ، فتوجهنا ناحيتها فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون ، فمن جثت هامدة وأجساد دامية ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل من زوار المعرض يزيدون المائة ، والدماء تجري كالسيل والناس يترامون على الأرض ليتعرفوا بمن عسى أن يكون

بين المصابين من أقرباهم وأصدقائهم ، وما فيهم إلا كل متوقع للمصيبة  
ومتربق للمكروه ، فالبكاء شامل والأنين عام ، والأطباء يضمدون  
ورجال الصحة يحملون . واشتد علينا الحال باشتداد الهول وتكاثرت  
الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد  
الفظيع فجذبني « الباشا » اليه لنخرج من هذا المأزق فأسرعنا الى مطاوعته  
وسار بنا وهو يقول :

(الباشا) — تالله ما يفي كل ما رأيناه في هذا المعرض من بهجة  
وسناء في ترويح النفس بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا  
الموقف الهائل ، حتى لقد تخيلت اني أشاهد يوماً من أيام الحروب تتمزق  
فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء

(الصديق) — صدقت ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد  
يكون أقل في النفس وقملاً لأن للحروب رجالاً استعدوا لها واستأنسوا  
بها وغلظت أكبادهم ، ولست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال  
وهاته النسوة اللواتي رقق النعيم أديمهن ورفقة الرغد أجسادهن يفزعن  
من مس الابرة وينزعرن من لمس الوبرة ، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت  
الردم والأعضاء مدكوكه في الأتقاض . وهكذا صارت وقائع المدينة في  
سلمها أشد من الوقائع في حربها

(الباشا) — لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولا نعود اليه مرة  
أخرى ، فقد قطعناه طولاً وعرضاً واستوفيناه بحشاً وتدقيقاً ، وبدأ فينا  
الملل من طول التردد عليه

(الحكيم) - ان كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات  
المعرض بعد اليوم فلا يفوتكم أن تختموها فيه بروية العجيبة التي هي  
في الحقيقة أم العجائب ومصدر هذه الطرائف والغرائب والأصل الذي  
تتفرع عنه الفنون والصنائع والمنبع الذي تسيل منه مظاهر المدنية والمطلع  
الذي تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة

قال عيسى بن هشام - فشوقنا بكلامه الى متابعتة ، وسرنا وراءه إلى  
حيث يريد ، فانهى بنا الى بناء نخم من أبنية المعرض لم يكن وصلنا اليه  
من قبل ، ولما دخلناه وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب  
البصر عند رؤيتها وتختلج النفس من هيئتها ، فدعانا للنزول فيها ودفعنا  
لركوب آلة هناك للهبوط والصعود كأعظم ما يكون من الدلاء ، فهوت  
بنا الى قرار بئر عميق وجبّ سحيق ، فتولاني من الهلع والذهول ما  
أنساني كل شيء في ذاكرتي مما يحفظه أهل الدنيا الاثلاثة آيات ، لم يبق  
لي سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار والهوى في ظلمات بعضها فوق  
بعض ، قالها الفرزدق لما تعلق بحبال الغواني من أعلى الجدران . فراراً من  
صولة الثائر والغيران :

فلما استوت رجلاي في الارض نادتا  
أحى يرجى أم قتل نحاذرة  
قلقت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا  
ووليت في أعجاز ليل أبادرة

هُمَا دَاتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً

كَمَا انْقَضَ بَازٍ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرَةٌ

ولولا ان حسن العشرة وطول الخلطة مَكَّنَ الثقة من نفوسنا  
بالحكيم الفرنسي لقلنا إنه كاد لنا وأراد أن يحدد في عصرنا الحاضر  
ما فعله أبناء يعقوب بأخيه في عصرهم الغابر . ولما أفقنا من الإغماء في  
بطن الأرض سألتنا أين نحن من الآخرة أو في أي طبقة من الطباق  
السبع ، فعلمنا أننا في مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجري تحت  
الأرض وكيف يستخرجه العمال في غياهب الجب . فأخذنا نحدق العيون في  
حناس الظلماء عسانا نبصر شيئاً ، فتمثل أمامنا العمال يداً بون في عملهم  
على ضوء سراج معقود بناحية كل عامل كأنه نار الجباحب تنقدح بين  
الأشجار في ظلمات الليل البهيم . وأتت لأضواء السرج الكهربائية أن  
تشق عباب هذا الظلام الدامس وهو يكاد من تسكاته يُمسك باليد  
ويقبض بالراحة ، وحسبك أنها لا تفيد في كشف الظلام وإضاءته ، وإنما  
تريد في بيانه وإراءته . ثم خطونا قليلاً وعثرنا كثيراً ، فرأينا من السرادب  
والكهوف ومن الأخاديد " ما تفضل فيه الصلال بالتوائها وتنكش  
دون انسيابها . ونظرنا في كل فجوة أشباحاً يتشكلون بأجسامهم على كل  
أشكال الصراع الذي يتفنن فيها المصارعون للتمكن من العمل في ثنايا  
الفجوات والمنعطفات ، وفي أيديهم ما ثقل ودق من أدوات القطع والحفر  
وأخشاب الإسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائر

والكهوف . ففهم الواقف في عمله على أصابعه والمضطجع على جنبه  
والجائى على ركبتيه والمنكب على وجهه ، والمياه تسيل عليهم من الشايا  
والشقوق ، هذا بعض ما تقاسيه الأجسام من المتاعب والمشاق ، والله  
العليم بما يدور في القلوب والرؤوس من توقع الخطر وترقب الهلاك بما  
شئت من أنواعه المتعددة انهياراً واندفاعاً ، وانفجاراً وانبثاقاً ، وغرقاً  
واحتراقاً ، وارتداماً واختناقاً ، وهمهم الأ كبر أن يراقبوا ما على نواصيمهم  
من السُّرُج خشية أن تصاب برضة تنلهم فيها ثلثة فتتصل بغاز الفحم  
المتسرب في المعدن تسرب الهواء فتميد الجدران وتندك الأحجار  
وتخسف بهم الأرض . واهتدينا آخر الأمر الى منفذ نخر جنا منه وتركناهم  
يعملون في ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض :

فانفخ ظلام جامد ، والظلام فم سائل ، وعيشهم أسود حالك ،  
وكفانا الله شر المهالك

ثم درنا قليلاً في « معدن الذهب » بعد أن اتهمنا اليه من « معدن  
الفحم » فلم نجد أرباب العمل فيه أسعد حالاً ، ولا متاعبه أهون احتمالاً ،  
لا نصيب لهم من الاصفر الرنان ، مما يجلو عنهم صداً الكروب  
والأحزان ، سوى أنهم صُفُّ الأيدي من الفضة والذهب ، صفر الوجوه  
من النصب والتعب :

والعيسُ أقتلُ ما يكون لها الصدى

والماء فوق ظهورها محمولُ

وكادت الرطوبة في المدن تعقد دماءنا في مجاريها فأسرعنا الى مكان الصعود فانتشرنا من بطن الأرض الى ظهرها ، وأقننا هنيهة نعالج بأيدينا غشاوة الظلماء عن الأبصار، عند مفاجأة ضوء النهار . وسرنا نتمتع بفضاء الارض لا نطق حرفاً ولا نحسن خطابا ، واذا بصاحبنا « الحكيم » يستوقف . أنظارتنا الى « مسبك المدافع » الذى يمثل أعظم المسابك فى فرنسا تطلُّ منه أعظم اسطوانة للمدفع فى العالم ، ويخاطبنا بقوله :

(الحكيم) — وهذا هو الثالث من أمهات المدينة وأقائم الحضارة ، فقد رأيتم الأقموم<sup>(١)</sup> الاول وهو الفحم ، والأقموم الثانى وهو الذهب ، وهذا الأقموم الثالث وهو الحديد

(الصديق) — « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »

(الحكيم) — نعم انهم يستخرجون الذهب ليشتروا به الفحم ليصهروا به الحديد فيصنعوا منه ما شاؤا من آلات السلاح وأدوات الصناعة فيخرجوا للناس ما تشاهدونه من عجائب الصنع ، وان كل ما ترونه مما يبهر الأنظار ويستهوى القلوب راجع فى الأصل الى ذلك الفحم الأسود الذى هو اليوم الخبز الثانى للانسان فى عالم المدينة ، منه نعيمها ورفاهتها وبه بأسها وقوتها . تباً للانسان فما أعق عمله وأقبح صنعه ايهوى بالملايين من العمال الى أسفل طبقات الأرض فيخربون باطنها ليستخرجوا منه ما يخربون به ظاهرها . وتمسك له ! يزعم انه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش وهو يقضى عمره فى الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه

فيخرج من الدنيا باكيًا كما دخلها باكيًا بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تقضُّلها حالة الحيوانات والحشرات ، وهو بزعمه أفضل المخلوقات !

(الباشا) — كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم في فرنسا وما مقدار أجرة العامل في اليوم

(الحكيم) — يشتغل في معادن الفحم مائة الف عامل ، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعة وعشرين مليوناً من الأطنان تباع بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات . ويعمل العامل منهم في جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار وفي وسط الأخطار التي لا تقل حوادثها في العام عن الف وخمسمائة حادثة فتذهب بالمدد الجيم من القتلى والجرحى . هذا غير ما يصيب العمال من الأدواء الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق «الكربون» وفاسد الهواء ، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار ومعهم أولادهم ونساؤهم — كل هذا بأجرة تختلف من اثنين الى خمسة فرنكات في اليوم !

(الباشا) — وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التي هي ثمرة كدِّهم ونتيجة تعبهم

(الحكيم) — تذهب الى فئة معينة من أرباب الشركات والامتيازات فينفقونها على شهواتهم أو يدخرونها في صناديقهم . ولا تظنن ان هذه الفرنكات التي يأخذها العامل أجراً له في اليوم تصل الى يده . فان أكثر الشركات تبني بيوت السكنى للعمال في أحياء بجوار

المعدن وتقيم بجانبها الأسواق ، فيشتغل العامل في معدن الشركة ،  
ويسكن في بيت الشركة ، ويشترى طعامه ولباسه من سوق الشركة ،  
والشركة تخصم عليه من أجرته ، فاذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له  
كان رضى الحال رضى البال

(الصديق) — من هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها ،  
فانه كيف يصبر الانسان على هذه الحال يعمل عمل الحشرات في باطن  
الغبراء ، ليغني المقعدين في قصور العز والهناء

قال عيسى بن هشام — ووصلنا في مسيرنا الى البرج الشهير . برج  
«لايفل» المهندس القدير . فأسندنا اليه ظهورنا نتفكر في أعمال الأُنسان .  
وما يأتيه من فنون الجنون في كل زمان . وهو يدعى أنه المخلوق الكامل .  
والحكيم العاقل

## المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام - ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع . والعماد الرفيع . فهالتنا رفعتة . وأدهشتنا صنعته . فهو في باب المشاهد الفريدة العصماء . والغرة الشهباء . والهضبة العليا . والقلة السماء . أعجوبة الصنائع وضعا وإتقاناً . وبكر هذا المرض وان كان فيه عوانا <sup>(١)</sup> . تنحى أمامه الآطام والآكام <sup>(٢)</sup> . وتخز له الرُّبَا والأعلام . فأين من ارتقاه الهرمان . ومن علوه صرح هامان . لما أمره فرعون بقوله في كفره وعناده . وجحوده وإلحاده : « يا هامانُ ابنِ لى صرْحاً لعلِّي أَبْلُغَ الأسبابَ أسبابَ السمواتِ فأطَّلِعَ إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذباً » . لو رآه فرعون لهدم ما شاد وأعلى . ولم يقل أنا ربكم الأعلى . ولأنحى على هامانه فجَلَدَهُ أَلْفًا . وعلقه في الجذع شنفًا <sup>(٣)</sup> . وأين « برج بابل » من برج يشافه بروج السماء . ويشارف الشعري الغميصاء . اذا حوّم عليه نسر الجوصار ثالث النسرين . واتخذ وكره في منازل الفرقدين . وأنى خيال الشاعر أن يملو في وصفه علوه . ويسمو سموه . لا جرّم أنه يضيق عليه نطاق الوصف فيلجأ الى تشبيهه الا كبر بالأصغر . والأعظم بالأحقر . كما شبهوا شمس النهار . بكأس العقار . والتريا بعنقود . والجوزاء بعود . ودرارى النجوم . بالودع المنظوم . والليل الدجوجى . بالعبد الزنجى . والأشفاق . باللم المهرق . فلعله يقول إذا : إنه أَلِفُ الهجاء . في كتاب

(١) العوان : بعد البكر (٢) الآطام ، الحصون (٣) الشف ، القرط

التقدم والارتقاء . هزته رأيته التي تحقق . في صفحة الأفق . أو أول  
العدد المرقوم . في جدول الفنون والعلوم . أو الإبرة التي تُعَرِّز في خريطة  
الكرة الأرضية . لتعيين مواضع المدينة . أو هو القلم الذي يخط في أديم  
البدر . ما بلغته أمّ النرب من علو الشآن والقدر . أو هو قرن الثور في  
زعم البعض . نفذ الى ظهر الأرض

ولما فرغنا من الطواف حوله مرارا . وامتلات له نفوسنا إعظاماً  
وإكباراً . سمعنا « الصديق » يتنهد ويصعد . ويميد في قوله ويردد :

( الصديق ) — هذه سنة الدهر منذ القدم وعادة الزمن في أبنائه ،  
كلما ترقّت أمة من الأمم في معارج المدينة شيدت لها أثراً يفوق سواه  
من بديع الصنعة يقوم لها شاهداً بين الورى على ما بلغته من السمو  
والقدرة في زمنها . ثم لا يلبث أن يححوه الدهر من صحيفته ليقوم مقامه  
آخر ينتهى الى مثل نهايته . لا يزال الدهر هكذا في محو وإثبات ، ولا  
يزال ابن آدم عن العبر في غفلة وسبات ، اللهم إنه عمل باطل ، وظل زائل  
( الحكيم ) — لا تَعْلُ بنا في أفكارك علو البرج قبل أن نصعد

فيه ، ولا تشغلنا بأقوال الحكمة عن مشاهدته ، وهلم بنا الى الارتقاء

قال عيسى بن هشام — ودخلنا من أحد جوانبه في غرفة للصعود  
فارتفعت بنا من سطح الأرض الى عنان السماء في لحظة كلكم بالبصر ،  
فرست بنا في الدور الثاني منه وإذا هو سوق من أكبر الأسواق

اصطفت فيه حوائتُ التجار بأنواع البضائع ، والحاناتُ بأصناف الخمر ،  
وفى وسطه مطعم نخم يزرى بمطاعم الأرض ، فأخذنا مجلسنا فى بعض  
حافاته وجعل « الباشا » يسأل « الحكيم » إجمالاً وتقيصلاً :

( الحكيم ) - يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلاثمائة متر ،  
وهو من الحديد الخالص ، ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلوجرام ، وعددُ  
قِطَعِهِ التى يتركب منها اثنا عشر الف قطعة ، والخطاطيف فيه مليونان  
ونصف ، وله من العمر عدة سنوات . وبلغ دخله من الصاعدين فيه فى  
أثناء المعرض الماضى سبعة ملايين فرنك . ولو تم لأهل العصور الماضية  
بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع

( الباشا ) - وما الآيات السبع

( الحكيم ) - إن ذكرها ليطول

( الصديق ) - نحن فى مجلسنا هذا وفى علونا عن الأرض وتفرغنا  
عن العالم ما يبعثنا على جولان الفكر فى تاريخ البشر للمطابقة بين أعمال  
الانسان فى ماضيه وحاضره ، وأن اختلاف العصور ومرور الدهور لم يُغيّر  
شيئاً من جبلته ، فهو هو على عهده فى غرامه بالمعجب المدهش يبيع  
نعيم الدنيا بشقاها فى سبيل ذلك ويشغل بما لا تقضى به الحاجة لمجرد  
الزّهو والمعجب والتباهى والتفاخر

( الحكيم ) - نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمية فى  
تعليل أعمال البشر وطباع الخلق وأنت تنظر الى أهل العالم السفلى من

هذا العالم العلوى . كأنهم جموع النمل تغدو وتروح في سبيل أرزاقها ،  
ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل في تآزير وتعاون ، والناس في تضارب  
وتقائل ، والمصير واحد والفتاء شامل ، وعمل النمل حق وعمل  
الانسان باطل

وإن آيتم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر فهي :  
الأهرام ، والحدائق المعلقة ، وسور بابل ، وتمثال جوبيتر ، وصنم رودس ،  
وهيكل إيفيز ، ومدفن الملك مؤزول  
أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم

وأما « الحدائق المعلقة » في أرض العراق فقد أقامها « بختنصر »  
فوق الربوة التي تُعرف الآن بربوة « عمران بن علي » وهي في اتساع  
أربعين فدانا شُيدت بالبناء على أشكال الجبال وعقدت فيها القباب على  
عمد وأساطين أفرغوها وملاؤها بالطين وغرسوا فيها الأشجار تنساق  
جذورها في أصولها وتورق في رهوسها ووضعوا فيها الدرّج يصعد منها  
الصاعد إلى مثل رؤوس الجبال حيث تثمر الأثمار وتزهر الأزهار  
وتعشب الأعشاب وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى  
القباب ، ويقال ان السبب في إقامتها على هذا الشكل ان امرأة الملك  
كانت تحن دائما إلى مناظر بلادها التي نشأت فيها فأنشأ لها الملك بالصناعة  
ما يعوضها به عن الطبيعة

وأما « سور بابل » فهو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض يتسع

محيطها للاحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومن حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مائة باب من حديد

وأما « تمثال جويتير » الإله الأكبر عند اليونانيين فقد صنعه لهم « فيدياس » النحات الشهير ، وطول قامته أربعة عشر متراً وهو جالس على العرش مكلل بورق الغار وفي يمينه تمثال « آله النصر » مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل وفي يسراه الصولجان منضد بكرائم الأحجار وفي طرفه نسر من الذهب ، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضاً ، أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس ، وكان موطى قدميه من العرش أسدين من الذهب ، وقد أجاد صانعه وأتقن في تناسب الأعضاء في هذا الحجم العظيم حتى عدّه القدماء أنفس ما في الوجود من الصنع ، وكان كل يوناني يعدّ نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه

وأما « صنم رودس » فهو تمثال « أبولون » آله الفنون عند اليونانيين أيضاً أقاموه في مواجهة المرفأ ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء ، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته ، ونقلت العرب كثيراً من بقاياها في القرن السابع

وأما « هيكل إيفيز » ( وهي مدينة من مدن اليونان ) فهو معبد « ديان » إلهة الصيد والقتل ، ولم يكن له مثيل في البناء والنقش

والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الاطلاق . ومما يُذكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم: أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة، على كل حال، واسمه «إيروسطراط» بحث عن أكبر عمل يمتاز به في الوجود ويخلد ذكره على مدى الدهور فاحتال لإحراق المعبد، فأكلته النار، وأعلن الجاني عن نفسه انه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء، فحكم عليه القضاة بالتعذيب حتى يموت، وأدركوا غرضه من إحراقه فأمرُوا أن يلحق به كل من ذكر اسمه، فكان ذلك داعية انتشاره لأن الناس اخذوا يهيمسون به بينهم حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته الى اليوم . وكان حرقه في الليلة التي وُلد فيها الاسكندر فلما بلغ من الملك ما بلغه عرض على اهل «إيفيز» ان يعيد لهم بناءه من ماله بشرط ان ينقشوا عليه اسمه، فأبوا ذلك حتى لا يكون لأجنبيّ عنهم فضل عليهم في معبدهم وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته حتى تم لهم في مائتين وعشرين عاما . وما زال قائما حتى جاء «نيرون» القيصر الروماني فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها في قصوره بمدينة «رومية» . ثم انتهى الأمر بأن خرّبه «الجرمانيون» في حروبهم وأما «مدفن الملك موزول» فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته جمعت له مهرة الصانع من سائر البقاع وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل، وكان ارتفاعه اثنين وأربعين متراً وأساطينه من المرمر النقيّ نُقشت عليها صور الحوادث التاريخية وكان غطاؤه صخرة من المرمر صوّرت فيه وقائمه الحربية . وبقي هذا المدفن سليما الى القرن

الرابع عشر ثم اندثر أثره في القرون الوسطى ، ونُقل جانب من أجزائه قريباً منه لبناء قلعة « بودرون » بالاناضول في القرن السادس عشر .  
وبقي منه قِطْع من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه الى أواسط هذا القرن فاشترتها انكلترا ووضعتها في متحف لو ندره

(الصديق) — ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة !!

تراكت القرون وشاب فود الدهر وتغيرت الأرض واندثرت المعالم في كل زمان ومكان ، والانسان هو هو لا يزال على غيه يعتقد لأعماله البقاء ولاآثاره الخلود ، لا فرق في هذا الاعتقاد بين الأشوريّ عند برج بابل والفرنسيّ اليوم تحت « برج إيفيل » ، كلاهما يتعب ويشقى ، وكلا العاملين لا يدوم ولا يبقى . وما تبقى الا الأحاديث والذكر

كلُّ بيتٍ الى الهدم ما تبَتّي أ  
ورقاء والسيدُ الرفيعُ العمادِ  
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السدِّ  
رِ ضربَ الأطنابِ والأوتادِ

(الحكيم) — نعم صدقت ويحضرني في هذا الباب محاوره ابتكرها أحد قدماء العلماء وأجراها في عالم الأموات على لسان « ديوجين » الفيلسوف الزاهد القديم والملك «موزول» صاحب ذلك المدفن الشهير ، وأذكر منها :

(ديوجين) — مالي أراك أيها الرجل الأسيويّ مختالاً تياهاً في

اكفانك ! كأنك تريد أن تنزل هنا أيضا بين الأموات منزلة أشرف من منزلتهم ، وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكانا عليا

(الملك) - وهل من شك في ذلك أو ارتياب! ومتى تساوت الملوك بالسوقة ! وأنا أكبر الملوك ملكا وسلطانا ، وأحسن الخلق بهاء وجمالا ، وأعظم الفاتحين نصرة وجلالا ، وقد كنت في الحياة أرفع ذوى التيجان عرشا وقدرًا ، وأنا اليوم في الممات أعظمهم مدفنا وقبرا . وان افترى مُفترٍ منهم انه كان يساويني في نخامة الملك فقد انقطعت ألسنتهم أن يكون لهم مثل هذا القبر ، فهو معجزة البشر في النقش والحفر ، وآية الدهر في المجد والفخر . فهل ترى بعد ذلك أيها المتكشف في الدنيا والمندثر في الآخرة أن ليس من حقى التخاييل والترفع !

(ديوجين) - ولكنى أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانتك وجلالك أكثر مما بقى لى ، وهذه ججمتك لا تمتاز عن ججمتى بشيء فكلتاهما مثقوبتا العينين مفجورتا الأنف بارزة الأسنان ، وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويت فيه بمن دُفِنَ فى بلقع من الأرض ، وانما أصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين اليه من الأقطار حينًا من الدهر ثم لا يلبث أن تندك أحجاره وتزول آثاره

(الملك) - ما هذا الذى أسمعه ، يارب الصواعق والرواعد !!  
أذهب كل ما أو تبتُّه من أسباب العز والمجد متاعا باطلاً وأصبح مساويا لديوجين فيوسعنى تأنيباً وتبكيئا

(ديوجين) - لا تقل أيها المخلوق إنك أصبحت مساوياً لى فستاناً ما يبنى وينك ، فانك لا تفك تتحسر على ما كان لك فى الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة ، واما أنا فلا يحزننى شىء ولا يكدرنى الآن مكدر ، ولم أترك فى الحياة شيئاً أسف عليه ويوجعنى فراقه ، ولئن خطر الزنبيل الذى كنت أسكنه فى الدنيا على بالى يوماً لكان للاغتباط بأن مسكنى الآن فى بطن الأرض أوسع لى مجالاً وأحسن منزلاً ، ولكن لى فى قلوب أهل الدنيا ذكراً حسناً وأثراً من الفضائل خالداً لا تمحوه الأيام ولا يبلى بيلاء الزمن . فأين مكانك أيها المغرور من مكافى وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى .

(الباشا) - ما أحكم الموعظة وأجلّ العبرة !!

(الحكيم) - ولو علمتم أن «السيو ليفيل» صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسُجن فى قضية «بناما» الشهيرة - لا شتدّ بكم العجب فى نتيجة هذه الآثار وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار

والآن فقد احطم بمشاهد المدينة ومناظرها فى صنائها بآلاتها وأدواتها من بطن الأرض الى سطح البرج متجلية لكم فى هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسمى مراتبها ، فان كان من عزمكم العودة متمجلين الى بلادكم فقد كفاكم ما شاهدتموه مما يملأ الصدر مهابة والعيون حسناً، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم فقد رأيت فيكم من حسن العشرة ولطف

الخلطة وذكاء القريحة ودقة الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبل في كثير من أهل الشرق . وان كان في نيتكم الإقامة زمنا بيننا وكان الميل فيكم شديداً لاستطلاع العالم الأدبي بعد العالم المادي في هذه الحضارة الغربية وأحييتم الوقوف على ما تجرى عليه أحوال الجمعية البشرية وما تدور به المعاملات في المعاش والمرافق وما تنطوى عليه من الأخلاق والصفات ويتسلط عليها من الطباع والعادات - فأنا حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم ، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأُنس بكم ولذة النفس في مباحثكم ومناقشتكم

قال عيسى بن هشام - فحبب إلينا البقاء بكلامه . وحمدناه على حسن صنمه وإكرامه . وصادف رأيه لدينا حسن القبول . ففضلنا الإقامة على القبول . وبهذا انتهينا من زيارة معرض النفائس والأعلاق . لنبدأ بالنظر في معرض الأطوار والأخلاق

---

## من القرب الى السمرق

قال عيسى بن هشام - وأقنا مع صاحبنا «الحكيم» نهتدى في سيرنا بهدية . ونستضيء بنور فكره ورأيه . وتبعه اتباع الإبل لحاديها . والرفقة لهاديها . ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا . وأنزله على موافقتنا . وقضينا معه الليالى والأيام . منذ انتهينا من المعرض العام وكأنها حلم من من الأحلام . ينتقل بنا فى الأندية الحافلة . والمجالس الآهله . ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات . بين مختلف أهل الطبقات . فيعلو بنا تارة الى مراتب الخاصة والحامة (١) . ونسفل معه أخرى الى أدنى منازل السؤوة والعامه . فاليوم مع كبار الرجال والأمراء . وغداً بين شراذم الصنّاع والأجراء . ثم تحول من محادثة أرباب القصور العالیه . الى محاوره أصحاب الأكواخ الباليه . ومن منابر الوعظ والخطابه . الى مجامع ذوى الدعارة والدعابه . ومن أروقة العلماء والفضلاء . الى أزقة الأوباش والسفهاء . ومن جمعيات العلوم والمعارف . الى حانات المراقص والمآزف . حتى لم يبق مجتمع تُختبر فيه الفضائل والردائل . وتُسبر فيه الطبايع بين الأعالى والأسافل . الا لدينا طرف من خبره . وعلم من أثره . باحثين فى العلل والأسباب . مُستشفيين لما وراء الحجاب . الى أن أدركنا الشتاء بئخيله ورجله . وجليده ووجهه . وروعده وبوارقه . وعصاوصفه وصواعقه . وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام . وانسدل على العالم

(١) الحامة . مرادف الخاصة

ستر الظلام . وأصبحنا نستضيء بمصاييح الكهرباء . من الصباح الى  
الى المساء . وانطلقت في الجو مداخن المعامل ومداخن الاصطلاء .  
فعددت سحبا أخرى تحت سحب السماء . وتدفت السيول والأمطار .  
طول كل ليل وكل نهار . حتى أغرقت الغدران والأنهار . فظنى المساء  
بمثل الطوفان . وسال في الأودية والبلدان . وامتد نهر المدينة فوصل  
الى أرض المنازل والمساكن . وقد يعلو الى الأدوار والأماكن . فانزونا  
في الغرف والحجرات . تقضى بها جميع الأوقات . وكأننا نحن في العذاب  
نُعذب تارة بنار الاستدفاء . وتارة بزهرير الشتاء . وأقننا كافرين على  
الحديث والسمر . بما وعيناه عن هذه المدينة من كل خبر وأثر . وكان  
« الصديق » يبتنا كعهده يرسل علينا القول إرسالا . ويذهب في حدة  
انتقاده يميننا وشمالا

ويذكر من أسوء المدينة الغريبة ما يهول السمع . ويندرف الدمع .  
حتى استفز « الحكيم » للرد عليه . وتهوين ما ذهب اليه :

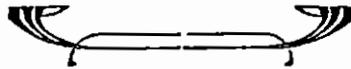
( الحكيم ) « للصديق » — لقد أسرفت أيها « الصديق » في  
القول وغاليت في الوصف وان كان في بعضه الجانب الصحيح والحق  
الصريح ، ولكن لهذه المدينة الكثير من المحاسن كما أن لها الكثير من  
المساوىء ، فلا تغفطوها حقها ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها عشر  
الشرقيين ما ينفعكم ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم وينافي طباعكم ، واعملوا  
على الاستفادة من جليل صناعاتها وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة

تصد عنكم أذى الطامعين وشره المستعمرين ، وانقلوا محاسن الغرب الى الشرق ، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم فأتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ، وتمتعوا في رخاء بلادكم وسعة أرزاقكم واحمدوا الله على ما آتاكم

قال عيسى بن هشام — ولم يبق لنا بُدٌّ في هذه الحال . من السفر والانتقال . فاستخرنا الله في العودة الى ديارنا . والأوبة الى أوطاننا . والحمد لله باطننا وظاهرنا أولاً وآخراً

---

﴿ والى هنا انتهى الحديث ﴾



بدأت هذا الكتاب بخير ما يبدأ به كتاب بعد اسم الله وذكر رسوله : رسالة  
الحكيم جمال الدين

لم أرم في ذلك - علم الله - الى التنبه من ذكرى والتويه بقدرى ، وأستغفره  
ثم أتوب اليه أن يكون الدافع الى نشرها هذا الغرض دون سواء وأنا أعلم أن مثل  
هذه الرسائل من كبار العلماء الى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم  
والاغراء بالتمق فيه ، كالطفل توضع في يده قطعة العاج المنقشة عذالة يتعلل بها لتنت  
أسنانه ، بل كان نشرها لأنها أثار يجب عرضه على النظار وتقاسة بما يخطه  
ذلك القلم الجليل في أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يتقى مطوياً في  
أدراج الأوراق وحته أن ينشر على سائر الآفاق

وأختتمه على مثل هذه النية بخير ما يختم به القول بعد حمد الله رب  
العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين : هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا  
الاستاذ الشيخ سالم بوحاجب شيخ العلماء وصاحب الافناء بالمملكة التونسية بعد أن  
قرأ هذا الكتاب في طبعته الاولى . وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة ويمناً وشرفاً  
وجلالاً بمن يمثل لك بالفعل ، ما يروى عن السلف الصالح بالقول ، ويشهد لك  
بسيرته في هذه الايام ، كيف كان العالم العامل في صدر الاسلام ، ويعيد لنا ذكرى  
البصرى في الزهد والتقى ، والكوفى في الرأى والحجى ، والمكى في الفقه والدين ،  
والمدنى في العلم علم اليقين . هذا الى سعة في الاطلاع وتصرف في الافكار ودقة في  
البحث واستنباط للامور ، يؤلف الغابر بالحاضر ويتطابق بين أحكام ما قضت به  
الحكمة في سالف الأوان وما تضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق العمر ناسكا يطلب العلم ثم بكشف عن أصله واتقاده

فهو المثال التام الذى ينشده الاسلام ، منذ السنين والاعوام ، من بين العلماء  
الاعلام ، ليعود اليه بمجده ويرتد اليه محقه ويعرف بهم قدره . ولو من الله بمن يأخذ  
بقدوته في سائر الاقطار ، ولو جرى العلماء على مثاله في كل مصر من الامصار ،  
لاستوى الأواخر بالأوائل في العلم والدين . ولعاد الاسلام الى ذلك العز القديم  
والنصر المين :

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها الجهد النحرير . المتصرف في أحرار الألباب . ورقيق  
الآداب . بالاسترقاق والتحرير . البالغ من رتب التهذيب أقاصيها .  
المالك من بدائع الترية نواصيها . أما بعد تقديم التحية . اللاتقة بعزة تلك  
الحضرة المحمدية المويحية . فقد وصل الى — واصل الله في مدارج  
الإجادة ارتقاءكم . وأدام لحسن الافادة إتقانكم وانتقاءكم . كتابكم الجليل  
الذي يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان . وبراعة البيان . وكمال ترية  
الانسان . أوضح دليل . قو الذي علم بالقلم . ومنح خير خلقه جوامع  
الكلم . إن لقلمكم من السحر المبين . ما تخر له سحرة البيان ساجدين .  
وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التي لمح لتأهليكم لها كتاب الاستاذ جمال  
الدين . كما يتحقق ما يُتفاهل به عن اسناد مروياتكم لاسم عيسى . وإحياء  
موتى الأفكار المؤسسة على حياة من كان في الاحدر ميسا . فيا له من  
معلم قد علم منه كل أناس مشربهم . ووجد فيه الباحثون عن وسائل  
الاستقامة مأربهم . فرجال الحكم مثلاً سواء أكانوا من الأمة الاسلامية  
أم غيرها . يتعرفون منه ملاك عز الأمة ونمو خيرها ، بإسناد الوظائف  
الى أهل المعرفة والفضل . والضمن بها عن غير الأهل . وإقامة منار العلم  
والعدل . لتدارك ما تخرب بيد الجور والجهل . — والعلماء يدركون به  
طرق النصح في التعليم . وعدم النفرة من الحديث لمجرد كونه لم يعمد  
في القديم . ومع ما يلزم لهم في اقتياد ذوى الجهالة والعدا من الملاحظات .

والتحذير مما يندس الشريعة المصونة من مُتَلَقِّ الخرافات - والحاكِمُ  
الغاشم ينتهي بمطالعة بالكف والإعراض . عن كل ما يمس المروءة  
ويندس الأعراس - والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهيمنة  
لفظه . ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه ، وكيف ينتحل الأديب .  
مهارة الطيب . فيشرح النصائح بأسلوب عجيب . لا يتطرقة إنكار أو  
تكذيب ، وقد يجد المريض من حنق الطيب عذوبة التعذيب ، -  
ثم يسترشد به الوالد في تربية أبنائه . ويدعوهم الى حفظ مجد البيت  
والثروة بعد فئاته . ويعينهم على استثمار دوحه البذور . وينقذهم مما يُفِضِي  
اليه سوء السيرة من الأسواء والشرور .

ملاً الله أوقات الجميع بالسرور . ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر  
مشكور . واذا كان لا يتيسر لغيركم رعاكم الله أن يصل بقلمه الى منتهى  
آماله . فحسبنا أن تقنع في أداء الواجب بإجماله

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب . من متيم ودمكم

سالم بو حاجب

وأدبكم :

## فهرس

( كتاب حديث عيسى بن هشام )

صفحة	صفحة
٢٥٤ العمدة في المجمع	٢ اهداء الكتاب
٢٦٦ العمدة في المطعم	٤ كتاب السيد جمال الدين الافغانى للمؤلف
٢٧٨ العمدة في الحان	٦ خطبة الكتاب
٢٩١ العمدة في المرقص	٧ العبرة
٣٢٣ العمدة في الرهن	١٤ الشرطة أو البوليس
٣٣٧ العمدة في الاهرام	٢٣ النيابة
٣٤٨ قصر الجزيرة والمتحف	٣٣ المحامى الأهلى
٣٥٨ العمدة في الملهى	٣٧ المحكمة الأهلية
٣٧١ المدينة الغربية	٥٤ لجنة المراقبة
٣٧٥ الرعدة الثانية	٦٢ محكمة الاستئناف
٣٧٧ باريس	٧٦ الوقف
٣٩٥ المعرض	٨٢ أبناء الكبراء
٤٠٦ القصر الكبير	٨٨ كبراء العصر الماضى
٤١٨ الاشجار والازهار	١٠١ المحامى الشرعى
٤٢٦ المرأى والمشاهد	١١٠ الدفترخانه الشرعية
٤٣٤ الافتراء على الوطن	١١٩ المحكمة الشرعية
٤٤٢ خبز المدينة	١٢٨ قصر حفيد الياشا
٤٥٠ المعجزة الثامنة	١٣٩ الطب والاطباء
٤٦٠ من الغرب الى الشرق	١٥١ الطاعون
٤٦٣ خاتمة بقلم المؤلف	١٦٠ الوباء
٤٦٤ رسالة شيخ العلماء وصاحب الافتاء	١٦٩ العزلة في العلم والادب
بالمملكة التونسية الاستاذ الشيخ	١٨٢ الاعيان والتجار
سالم بوحاجب للمؤلف	١٩٥ أرباب الوظائف
	٢١٠ العرس
	٢٤٢ العمدة في الحديثة